معجزة العناية الإلهيّة

"البيت الصغير"

القدّيس جوزيف كُتُّلِنْغو

أديب مصْلِح

مُعجزة العِنايَة الإلهيَّة

”البيت الصغير“

القدّيس

جوزيف كُتُّلِنْغو

سلسلة النوابغ

١٢

معجزة العِنَايَة الإلهيَّة

"البيت الصغير"

القدّيس

جوزيف كُتُّلِنْغو

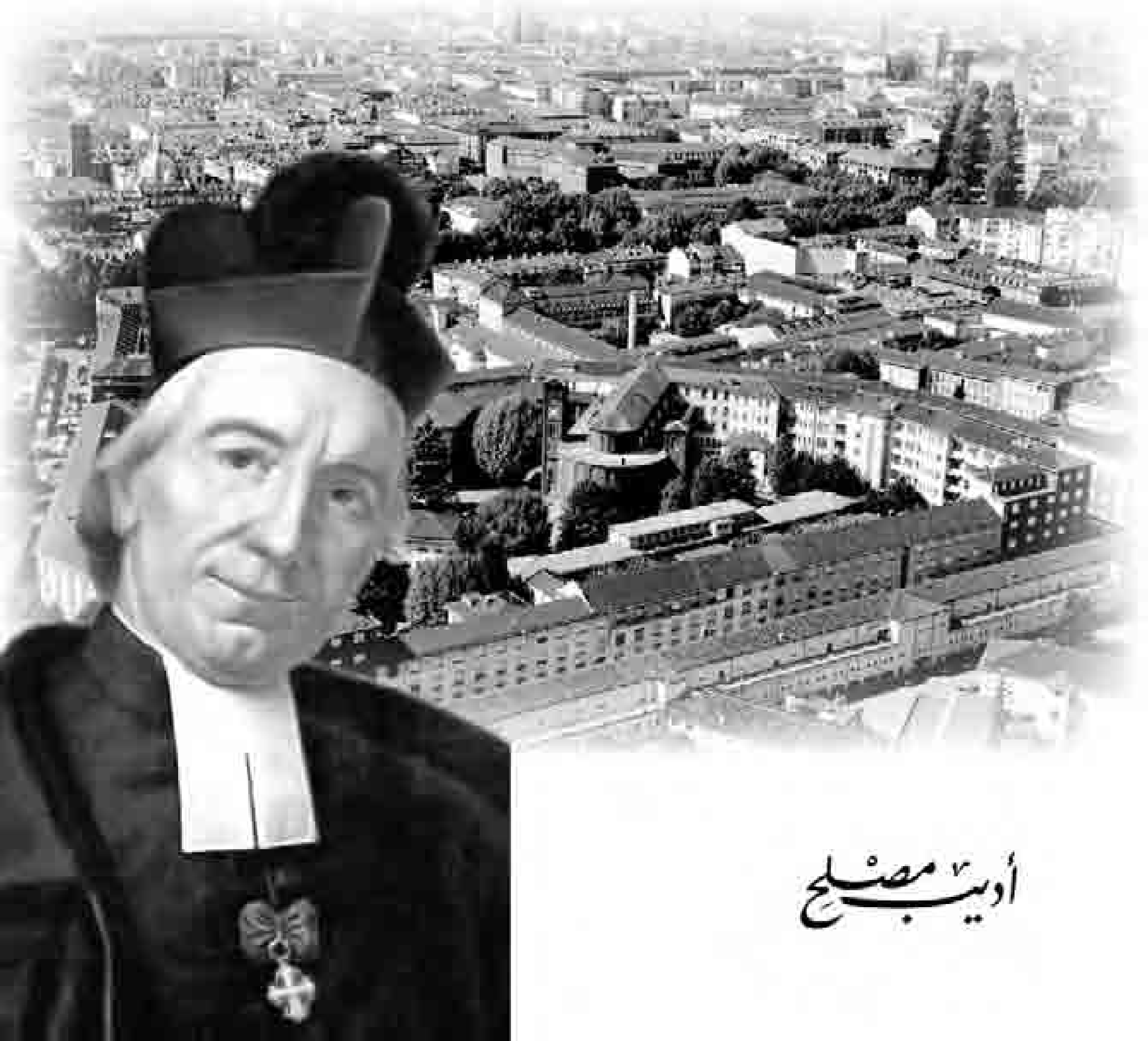

أديب مصلح

طبعة أولى

٢٠٢٠

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

منشورات المكتبة البولسية
جونيه - شارع القدّيس بولس - ص. ب.: ١٢٥
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٩٧٣
زحلة - شارع سيّدة النجاة - مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إهــداء

إلى مَن يكبُرُون بتواضعِهم . . .

ويَغتنون بفقرِهم !

القدّيس جوزيف كُتُّلِنْغو

تحت شعار: «محبّة المسيح تحثّنا»

تمهيد

« عندما أُومن أرجو، وعندما أرجو أُحبّ »

(القدّيس أوغسطينُس)

« يحتاج المسيح إلى شهودٍ بواسلَ، فاتحين...»

(فرانسوا موریاك)

ما أكثر ما قيل عن معجزة "كُتُّلِنْغو"!

إنّها معجزةٌ، حقًّا، ومعجزةٌ كبرى. وهي في معايير المنطق البشريّ منافيةٌ للعقل. ولكنّها في منطق الإنجيل طبيعيّةٌ، ومُتوقّعةٌ.

ألم يقلْ يسوع:

"إنّ مَن آمن بي يعمل، هو أيضًا، الأعمال التي أعملها، بل يعمل أعظمَ منها... كلّ ما تسألونه باسمي أعمله كي يتمجّد الآب في الابن. وإذا سألتموني شيئًا باسمي فإنّي أفعله". (يوحنّا ١٤: ٣١-٣٣)

هذا ما قاله يسوع، ويسوع صادقٌ في قوله. فعلى الإنسان أن يؤمن بقول الربّ إيمانًا راسخًا لا يهزّه شكٌّ، وأن يعمل به، بالتزامٍ لا خلَلَ فيه، ولا خشية. وحينئذٍ يستجيب الله استجابةً تُدهِش بسخائها، بقدر ما يكون السؤال منــزّهًا من الأنانيّة، نابعًا من محبّة الآخرين، ومن التضحية بالذات.

هكذا كان إيمان الأب "كُتُّلِنْغو"، وكانت استجابة الله مذهلةً. كان إيمانه راسخًا لا يتزعزع، وكانت محبّته بلا تحفّظٍ ولا قيدٍ، وكانت الثمار معجزةً.

بدأ مشروعه بملجأٍ إسعافيٍّ، في غرفتَيْن صغيرتَيْن مستأجرتَيْن، وفي غضون سنواتٍ معدوداتٍ، غدا مجمّعًا ممتدًّا على مساحة مئتي ألف مترٍ مربّعٍ، يضمّ مشافي

حديثةً مجهّزةً بأحدث المعدّات وبأبرع الأطبّاء، وملاذاتٍ لكلّ ضروب العاهات، والبؤس، والحرمان، وجمعيّاتٍ روحيّةً واجتماعيّةً، تعالج الأمراض الجسديّة، وتبلسم جراح النفوس، وتلقّن المحبّة والتضامن، وتصالح الجميع مع الله، ومع الحياة، وتقدّم أمثلةً ساميةً في المحبّة والتضحية والتضامن. ولكلّ فرعٍ من فروع المؤسّسة المتشعّبة معبده، وقاعة طعامه، وقاعة نومه، وقاعات اجتماعٍ، وصفوف دراسةٍ، وتأهيلٍ، وحديقةٌ خاصّةٌ. تلك المؤسّسة التي تؤوي، وتُطعِم، وتُلبِس آلاف النـزلاء والعاملين، وتستهلك، يوميًّا، أطنانًا من الطعام، وتنفق ملايين بل ملياراتٍ من الليرات على النفقات الجارية، وليس لديها سنتيمٌ واحدٌ، ولا احتياطٌ، ولا دخلٌ ثابتٌ. وكلّ ما يتدفّق عليها من مساعداتٍ وصدقاتٍ كان يُنفَق في يومه، لسدّ الاحتياجات، ولتطوير التجهيزات، وتوسيع الأبنية وصيانتها، ووفاء ما أمكن من الديون المتراكمة، ولا يُحتفَظ منه شيءٌ، احتياطًا للغد.

قد يطرأ ضيقٌ ماليٌّ، وتحتدّ مطالبات بعضٍ من الدائنين وتهديداتهم أحيانًا، فتجترح العناية الإلهيّة حلاًّ ينقذ الأبَ من حَرَجه، والمؤسّسةَ من محنتها بأساليب خفيّةٍ، ويستمرّ العمل بيُسرٍ ومرونةٍ.

كان الأب كُتُّلِنْغو جريئًا في الإقدام على تحقيق مشاريع موغلةٍ في الطموح، وأحلامٍ تتخطّى الواقع والمنطق، لأنّه كان راسخ الإيمان بوعد الربّ، ولأنّ المحبّة المضطرمة بين حناياه كانت تمنعه من الاستسلام لقدَرِ بؤس الآخرين. كان يقاومه من كان إيمانهم هشًّا، مترجرجًا، ورئيس جمعيّته كان يؤنّبه، وأخواه الكاهنان يحذّرانه، ويسخر به من لم يكن ينير دروبهم سوى سراج عقلهم النائس. ولم يمكثْ إلى جانبه إلاّ مَن كان إيمانهم صلبًا، مثل إيمانه، وراسخًا كالطود، وأقوى من كلّ شكٍّ وخوفٍ.

منجزاتٌ جسيمةٌ وُلدت من رحم المحبّة، بلا شيءٍ سوى الإيمان والمحبّة، وبإشارةٍ من العناية الإلهيّة التي ألهمتها، ورعتها، وكانت لها المرضعة، والمربّية، والمعلّمة، محقّقةً وعود الربّ للمؤمنين به، والمتّكلين عليه.

في أثناء عبوره على كوكبنا، كثّر يسوع الخبز مرّتين وأطعمَ به مستمعيه. ولكنّه، في مؤسّسة "كُتُّلِنغو" كثّره آلاف المرّات، ولم يدَع أحدًا جائعًا، يومًا.

وقد أثبت الأب "كُتُّلِنْغو" أنّ دعوة المسيحيّ هي السير فوق اللجّة المتموّجة، بلا سندٍ بشريٍّ، في صفاء الإيمان والرجاء والمحبّة، وبالتحديق الدائم إلى وجه الربّ، وأثبت، أيضًا، أنّ كلّ شيءٍ ممكنٌ لمن يؤمن، ويصلّي، ويحبّ.

وأكّد أنّ الربّ الذي يريد أن يُجزِل العطاء، يختار مَن لا يملكون شيئًا. كما أكّد أنّ النبع الحقيقيّ يرتقي مستواه، ويعذبُ ماؤه، بقدر ما يُستَقى منه.

يسوع أسّس مدرسة محبّةٍ خرّجت أفواجًا من الأبطال والقدّيسين، وما برحت تخرّج أروع التلاميذ ألَقًا، وأسماهم قداسةً.

المسيحيّون الأوّلون عملوا بتعليم الربّ، ومارسوا المحبّة الإنجيليّة، فتشاركوا، وتقاسموا الخيرات، وتضامنوا، وتحابّوا، إلى أن أفسدت الأنانيّات ذلك النظام المثاليّ. وحينئذٍ، انبروا للتذكير بدروس الربّ، وأعملوا سياط تنديدهم اللاّذعة بمن أعمتهم الأنانيّة عن واجباتهم المسيحيّة والإنسانيّة، وأطلقوا دعواتٍ، اتّسمت، أحيانًا، بعنف اللهجة وقسوتها، إلى الالتزام بتعاليم يسوع، وإلى احترام حقوق البشر أجمعين، وأعلنوا، بمثال حياتهم، وبأقوالهم، أنّ الله محبّةٌ، وأنّ الرحمة هي جوهر كيانه، وأنّ من خلا قلبُه من العطف، هو خائنٌ لله وللمسيحيّة.

من أبطال المحبّة، والذائدين عن حياض الفقراء والمظلومين، برز في القرن الرابع القدّيسون باسيليوس الكبير، وغريغوريُس النازيَنْزيّ، وغريغوريُس النيصيّ. ومن أقوال هذا الأخير:

« لا تزدروا الفقراء القابعين على الحضيض، وكأنّهم لا يستحقّون أيّ اعتبارٍ. بل اسألوا ذواتكم عن حقيقة هويّتهم. فهم قد لبسوا وجهَ مخلّصنا، إذ إنّ الله، في محبّته، قد أعطاهم وجهه الخاصّ، لكي يخجل قساةُ القلوب، أعداءُ الفقراء، عندما يشهدونهم ».

ولم يكتفِ أولئك الآباء القدّيسون بالقول، بل أقاموا مشافي، وأطعموا آلاف الجياع بانتظامٍ، ولبّوا، بكلّ طاقاقم، نداءات المحتاجين.

وفي القرن السابع أشرق وجه القدّيس يوحنّا الرحيم، بطريرك الإسكندريّة، الذي كان سليل أُسرةٍ راقيةٍ في قبرص. فقد بنى مستشفياتٍ، ومدارس، ودار توليدٍ، وحضَنَ الفقراء، وعالج مرضاهم، وأسّس مراكز اجتماعيّةً. كان يعدّ الفقراء سادته، وكان يبكي كلّما رأى فقيرًا، ولم يكن لعطائه حدودٌ، ولا لسخائه قيودٌ. فقد اتّفق، يومًا، أنّ مستعطيًا عاد إليه، ثلاث مرّاتٍ، متنكّرًا، كلّ مرّةٍ بزيٍّ مختلفٍ. فحذّره رفاق القدّيس من احتياله، ولكنّه طلب منهم أن يضاعفوا له العطاء، عندما يعود، فقد يكون هو يسوع متنكّرًا. ولامه، يومًا، أحد مرافقيه على إسرافه في العطاء، فقال له: "إخرس. ما عطائي، أنا، مقارنًا بعطاء من ضحّى بذاته من أجلنا؟". وكان قد أحصى فقراء الإسكندريّة، ونظّم إطعام ٧٥٠٠ فقيرٍ، يوميًّا.

وفي القرن الثالث عشر تألّق نجم القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، "الفقير الصغير"، الذي اعتنق الفقر، مادّيًّا وروحيًّا، متمثّلاً حتّى أسمى ذرى الكمال، بالمخلّص الذي افتقر من أجل إغنائنا، واتّضع من أجل ترقيتنا. ورُبّما كان أوّل من قبّل أبرص محطّمًا نفوره الفطريّ الحادّ من البرص، معبّدًا الطريق للأب القدّيس داميان دي ڤوستر، ولرسول البُرص "راوول فوليرو". وقد أسّس مدرسة زهدٍ، ومحبّةٍ شاملةٍ ما زالت تلد في كلّ جيلٍ أبطال قداسةٍ، وتلاميذ أوفياء ليسوع، غدوا مناراتٍ ساطعاتٍ بضياء المحبّة الإنجيليّة، وأشادوا بقدوة حياقم، وبإنجازاقم على الأرض، صروح قداسةٍ شامخاتٍ نحو السماء.

لقد كان الحدث الأسّيزيّ إنذارًا مدويًّا أيقظ الإكليرُس والمسيحيّين من ذهولهم عن هويّتهم الجوهريّة، وما انفكّ منهج الزهد والمحبّة الذي رسمه يقتاد زرافاتٍ من النفوس النبيلة المؤمنة على دروب القداسة والكمال.

ومع كرّ السنين والعقود، ما انفكّت كواكب محبّةٍ تنبلج وتنشر أضواءها الهادية إلى مرابع القداسة، وتضرم، بقدومها، نيران مواقد البطولة الخامدة.

ففي القرن السابع عشر طغى لألاء القدّيس ڤنسان دي پول على زيف عصره، الذي مع ازدهائه بعباقرة الأدب، ونجوم المسرح، وأرباب الفنون، مزّقته أنانيّات السياسيّين، وتناحرات الأمراء والطامحين، فأفقرت البشر، ودمّرت المنازل، وبوّرت الحقول، وعمّمت الجوع والآلام والمآسي. ولم يكن لهذه الكوارث من منقذٍ سوى قدّيسٍ رفع راية المحبّة المسيحيّة، وبها أطعم آلافَ الجياع، وبلسم أوجع الجراح، وآوى فلول المشرّدين، ونظّم عمل المحبّة، وزوّدها بطاقاتٍ هائلةٍ على الاستمرار والانتشار، وما زالت مفاعيل إنجازاته خصبةً بالثمار، في شتّى أرجاء المعمورة.

ولكَمْ خرّجت مدرسة القدّيس ڤنسان من تلاميذ نجباءَ في كلّ مكانٍ، وكلّ عصرٍ، وما زالت تنجب منهم قافلةً إثر قافلةٍ!

ومن أبرز تلاميذ القدّيس ڤنسان، في القرن التاسع عشر، الأب "كُتُّلِنْغو" الذي حين كان يبحث، حائرًا، عن رسالته، فهَدَته إليها سيرة القدّيس ڤنسان. ولّما أنشأ، بعد سنواتٍ، "بيت العناية الإلهيّة" العملاق، أوكله إلى رعاية القدّيس ڤنسان، عرفانًا بجميله، والتزامًا بروحه، فسمّى راهباته "ڤنسانيّات"، وأطلق على إخوته المساعدين اسم "إخوة القدّيس ڤنسان دي پول".

وما أثمن العِبَر والدروس التي أغنانا بها "الأب جوزيف بنوا كُتُّلِنْغو"! فقد أثبت، بمثال سلوكه وبإنجازاته:

- أنّ الفقر قد يكون ثروةً هائلةً، عندما لا يملك المرء لا مالاً ولا عتادًا، فيعطي ذاته، ويستعين بالعناية الإلهيّة بلا تحفّظٍ، ولا خوفٍ.
- وأنّ الكلمة الأخيرة ستكون، دائمًا للمحبّة، لأنّ المحبّة هي الحقيقة الوحيدة.

- وأنّ اسم الله محبّةٌ، لأنّ الله يسعى وراء كلّ مرتعدٍ عريًا، وخوفًا، وكلّ متضوّرٍ جوعًا وعطشًا، وكلّ متألّمٍ وحدةً وإهمالاً.
- وأنّ عظمة الحضارة تكمن في الخلق، عندما يعجز الموجود عن تلبية الحاجات المستجدّة. فهو عندما لم يجد طريقًا معبّدًا إلى غاياته، شقّ طريقًا وعبّده.
- وأنّ الرجاء هو منبع قوّةٍ هائلةٍ، عندما يسير، يدًا بيدٍ، مع أخَوَيه الإيمان والعطف.
- وأنّ العطف هو أجمل ما في الله من إنسانيّةٍ، وأسمى ما في الإنسان من أُلوهةٍ.

ولكَمْ أثبت سلوك كُتُّلِنْغو جدوى الالتزام بتعليم الإنجيل:

- أثبت قدرة المعجزات المذهلات التي تؤتيها الثقة المطلقة بالعناية الإلهيّة، وأنّ المال عندما يصبح الهمّ الأوّل، قد يفقد كلّ جدواه حيالَ أزمةٍ صحّيّةٍ أو اجتماعيّةٍ طارئةٍ، أو هزّةٍ ماليّةٍ غير متوقّعةٍ، في حين يصبح كلام الله خبزًا للفقير، وسقفًا للمشرّد.
- وأثبت أنّ القداسة غير مستحيلةٍ، وأنّ تحقيقها يتوقّف على معادلة:

أردتُ أن أصبح قدّيسًا، فصرت قدّيسًا.

طلبتُ النعمة بإصرارٍ ومثابرةٍ، فأغدق الله عليّ نعمَه.

نشدتُ، في المقام الأوّل، ملكوت الله، فأُعطيتُ كلّ ما سوى ذلك، علاوةً.

- وذكّر بتعليم يسوع الداعي إلى التغلّب على الظنّ والريبة بالثقة، والتغلّب على الكذب بالصدق، وقهر الحقد بالوداعة والمحبّة.

وأثبت أنّ هذا التعليم الذي يبدو للكثيرين وهمًا هو السلوك الأمثل والأنجح، وأنّه الحقيقة التي لا تخيب ولا تُخيّب، وأنّه يصلح لكلّ زمنٍ وكلّ محيطٍ، وما على المؤمن سوى العمل به، بلا وَجَلٍ ولا ريبةٍ، والالتزام المطلق به.

وما على مَن يشترط أن يرى كي يؤمن إلاّ المجيء إلى *البيت الصغير*، فيرى ويؤمن.

وما أجمل الشركة بين القدّيسين التي بها يتكاملون، ويتكاتفون، ويتوارثون القداسة!

وما أروع السلسلة التي توّجها يسوع وأُمّه، وتكوّنت حبّاتها، في كلّ عصرٍ، من كواكب الإيمان والشهادة وأبطال المحبّة والعطاء! وما انفكّت سبحتها تطول وتضمّ في سلكها وجوهًا فاتنةً تضيء حضارةً فقدت الروح، وتبثّ رجاءً في عالَمٍ مأفونٍ، يتبارى زعماؤه على التناهش والتناحر، والتدمير المتبادل! وكلٌّ منهم يتفاخر بأنّه الأقوى والأقدر على تحطيم الآخرين!

ومن أبهى صُوَر شراكة القدّيسين وتفاعلهم أنّ قدّيسَيْن فرنسيَّيْن، هما ڤنسان دي پول، وفرانسوا الساليزيّ، وكلاهما من مدرسة الصوفيّ الكردينال "بيرول" (Bérule)، قد أنجبا في القرن التاسع عشر ثلاثة قدّيسين إيطاليّين هم الآباء كُتُّلِنْغو، وجان بوسكو، وجوزيف كَفَسّو (Cafasso). وهؤلاء الستّة كانوا قد انتسبوا إلى الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة الثالثة، وقادهم جميعهم روحٌ إنجيليٌّ واحدٌ.

أفلا يلهمنا رجاءً وطيدًا أمثال باسيليوس وغريغوريُس، والأسّيزيّ، وڤنسان دي پول، وكُتُّلِنْغو، وهيلدر كامارا، والأب پيير، وجوزيف ڤريزنسكي، والأخت إيمانويل، و"كيارا لوبيك" (Chiara Lubich)، ودون بوسكو، و...، و...، و... وأخيرًا الوجهين المتألّقين يوحنّا بولس الثاني، وتيريزا الكلكتّاويّة؟

وأليست هذه السلسلة الثمينة ضمانةً لصمود الكنيسة الذي وعد به الربّ، في حومة ضجيج معاول التدمير المجنون المتبادل، ومبعثَ أملٍ في حفاظ البشريّة على إنسانيّتها وروحها، مع استشراء المادّيّة المتوحّشة؟

وألا يذكّرنا هؤلاء جميعًا بوعد الربّ: "لا تخافوا فأنا معكم!" ولا يخيفنّكم مجرمو الحروب، ومثيروها، وسماسرة السلاح، ودهاقنة نهب لقمة عيش الفقراء، وسارقو أرزاقهم، فبينكم قدّيسون، والربّ دائمًا معكم.

أديب مصلح

« لا تكرّم الكنيسة الكاثوليكيّة لا قادةَ الشعوب، ولا العلماء، ولا الفلاسفة. بل إنّ قدّيسيها هم الذين مارسوا الفضائل ممارسةً بطوليّةً »

الدكتور أليكسي كاريل

« المحبّة وحدَها تميّز بين أبناء اللّه وأبناء الشيطان. فجميعهم يستطيعون رسم إشارة الصليب، وقول "آمين"، وترتيل "هلّيلويا"، ونيل المعموديّة، ودخول الكنائس، وبناء جدران كاتدرائيّات.

ولكن ما يميّز أبناء اللّه عن أبناء إبليس هو المحبّة...

فمن افتقَر إلى المحبّة لا يُجديه نفعًا أيّ شيءٍ آخر »

القدّيس أوغسطينُس

« في كلّ ديانات العالم الإنسان يَبْحَث عن اللّه، أمّا في المسيحيّة فاللّه هو الذي يَبحَث عن الإنسان »

البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني

الفَصْلُ الأَوَّل

مسيرةٌ صوبَ الكهنوت

« في العالم، الفقراءُ خاضعون للأغنياء، وكأنّهم لم يولدوا إلاّ من أجل خدمتهم. وعلى نقيض ذلك، في الكنيسة المقدّسة، لا يُرحَّب بالأغنياء، إلاّ بقدر خدمتهم للفقراء »

"بوسُّويه"

- « **الإيمان هو ما يسمح للعقل أن يحيا في ما يفوق طاقاته** »

أندريه فروسّار

- « **إنّ إله المسيحيّين شديد القرب ممّن يحبّون، ولكنّه منحجبٌ عمّن لا يجيدون سِوى الفهم** »

الدكتور أليكسي كاريل

- « **سينفجر العالم، ما لم يتعلّم المحبّة... فمستقبل الأرض العاقلة مرتبطٌ ارتباطًا عضويًّا بتحوّل قوى الحقد إلى قوى محبّة...**
المحبّة هي القوّة الكونيّة الأوسع شمولاً، والأشدّ هولاً، والأعمق غوصًا في السرّ الإلهيّ »

تيار دي شاردان

- « **ليس، لدى ابن الله حالاتٌ ميؤوسٌ منها. وليس شيءٌ مغرقًا في الوضاعة بعد أن تواضع الله...** »

فرنسوا مورياك

بيت العنَاية الإلهيَّة الصغير

شماليّ مدينة تورينو الإيطاليّة، وفي ضاحيتها المدعوّة Valdocco، وفي ظلّ معبد سيّدة العزاء، وحيث كانت تنتشر قديمًا حاناتٌ ونزُلٌ سيّئة السمعة، تنتصب اليوم على مسافة مئتين وخمسين ألف مترٍ مربّعٍ مدينة تجمع إلى جانب شتّى أصناف البؤس البشريّ من فقرٍ، وحرمانٍ، ومرضٍ، ونبذٍ، وإعاقاتٍ بدنيّةٍ وذهنيّةٍ، وعاهاتٍ، وتشويهٍ خلقيٍّ، أبهى مظاهر التضحية والعبادة، والتأمّل، وسخاء البذل. ويحضن هذا المجمّع العديد من الأديرة والمدارس، والإكليريكيّات، ومراكز المعالجة والتأهيل، والمشافي المجهّزة أحدث تجهيزٍ وأكمله.

مجموعة مبانٍ متلاصقةٍ نهضت متوازيةً، على جانبي شارعٍ متناهي الطول، على وقع متطلّبات البؤس البشريّ واستجابةً للمحبّة الإنجيليّة. ربّما افتقرت مبانيها إلى بدائع الفنّ المعماريّ الإيطاليّ، فلا أعمدةٌ شاهقةٌ تتباهى بتيجانها الرائعة، ولا منحوتاتٌ ومبتكراتٌ فنّيّةٌ ولكنّها، بلا ريبٍ واحدةٌ من أجمل صفحات الإنجيل، وهي تضمّ، بين جدرانها زهاء ثمانية آلاف نسمةٍ بين نزيلٍ، وعاملٍ ومعالجٍ.

وقد استحقّ هذا المجمّع عن جدارةٍ لقب "بيتُ الله"، وسمّاه البابا بيّــوس التاســع "بيت المعجزة"، وعدّه الدكتور أليكسي كاريل "أكبر مستشفى في العالم"، فيما اكتفى مؤسّسه بتسميته "بيت العناية الإلهيّة الصغير، برعاية القدّيس ڤــنسان دي پــول".

إنّه بيت العناية الإلهيّة لأنّه رأى النور بإلهام الروح القدس، وبروح المحبّة الإنجيليّة، بلا رأسمالٍ، ولا دخلٍ مادّيٍّ ثابتٍ، وتنامى وازدهر على وقع احتياجات البؤس، واستمرّ في الازدهار والتنامي بفضل عنايةٍ إلهيّةٍ ساهرةٍ، قد تمهل ساعاتٍ وأيّامًا، ولكنّها لا تتخلّف أبدًا عن وفاء الديون، وتوفير مقوّمات العيش والعمل.

وهو برعاية القدّيس ڤنسان دي پول، لأنّ "عملاق المحبّة" هو الذي أنار درب مؤسّسه، وكان له القدوة والملهم.

وهو صغيرٌ لأنّ لا شيء كبيرٌ بمقياس حاجات البؤس، وبمعيار واجبات المحبّة التي تعلّمها وتقتضيها موعظة يسوع على الجبل.

وهو أكثر من مستشفًى، فساحاته مزيّنةٌ بالحدائق، وأبنيته المتعدّدة المتجاورة تضمّ محترفاتٍ، ومصانع، وأديرةً نسكيّةً، وأماكن عبادةٍ، وكنائس، كما تضمّ بيوت استراحةٍ للمسنّين، ومراكز تأهيلٍ لأصحاب عاهاتٍ، وإعاقاتٍ، ولصُمٍّ وبُكمٍ، ولمصابين بالصرع، ولمختلّين عقليًّا، وأيتامٍ. أمّا مشافيه الرحبة فتعالج كلّ أصناف العلل، وتُجري أخطر الجراحات، على يد أمهر الجرّاحين؛ وهي لا تغلق أبوابها في وجه أيّة عاهةٍ، مهما كانت منفّرةً، بل تولي الأولويّة لأشدّها بعثًا على النفور.

مجمّعٌ مجرّدٌ من كلّ ما يجتذب أبناء عصره. فلا متاجر، ولا مقاهٍ، ولا صالات سينما، ولا مراقص، ولا حاناتٌ، ومع ذلك يضجّ ساكنوه فرحًا صافيًا، وسعادةً لا يعكّرها قلقٌ ولا اضطرابٌ. والبهجة متجلّيةٌ على جميع الوجوه، فالأطفال الذين كانوا مرميّين وهم الآن لاطون بين سواعد من أضحوا لهم آباءً وأمّهاتٍ ومعيلين، والأيتام سعداء بإقامتهم في أحضانٍ دافئةٍ توفّر لهم العيش، والعلم، والمستقبل الآمن. والعميان يرون بعيون مرافقين لطفاء، والبُكم يتعلّمون النطق، والصمّ يتدرّبون على السمع بمساعدة مختصّين متطوّعين، والمسنّون يقضون أيّامهم الأخيرة، برفقة مجايلين لهم، في جوٍّ من الألفة العذبة والخدمة الرقيقة، قبل أن يرحلوا قريري العين، مطمئنّي النفس، وكلّ مبتلًى بعلّةٍ أو بإعاقةٍ يتعزّى بلمسة أيدٍ حانيةٍ، تمتدّ لمساعدته، وبعطف قلوبٍ سخيّةٍ تنعطف على علّته وتبلسمها، ومعظم المرضى ينالون الشفاء، والجميع سعداء، شاكرون.

ولكم من أنظارٍ حطّت على هذا البيت: أنظار فقراء، وجائعين، وقلقين، وقانطين آملين الخلاص، وأنظار فقراء مرضى العقول الواهية، وأنظار المتعطّشين إلى

فتات احترامٍ واعترافٍ، وأنظار مرضى يائسين توسّموا فيه بصيص رجاءٍ، وأمل شفاء؛ أنظار مسؤولين، كانت في البدء مرتابةً، فذُهلت حيال نتائج لا يستوعبها منطقٌ، وأنظار حيرةٍ ممّن لا يؤمنون إلاّ بالحسابات، حيال معجزةٍ تزري بكلّ منطقٍ، ولا تني تتكرّر، يومًا فيومًا.

جميع القاطنين في ذلك البيت يعملون ما يستطيعون إليه سبيلاً، فيسعدون بعملٍ يملأ ساعاهم، ويسهم في تأمين قسطٍ من مقوّمات عيش البيت. بيد أنّ العمل الأوفر جدوى للداخل والخارج هو صلاةٌ مستمرّةٌ، في كلّ دقيقةٍ من الليل والنهار، مكفّرةً عن معاصي البشر، ونكرانهم لجمائل الله، تسترحم السماء، وتصدّ مؤامرات الأرض، وتبني لأهل البيت المفتقرين إلى قاعدةٍ مادّيّةٍ، أساساتٍ سماويّةً منيعةً.

وفي جميع ساحات الأبنية والأجنحة المتعدّدة راهباتٌ صامتاتٌ، باسماتٌ، مردّداتٌ "التسبيح لله"، غادياتٌ راجعاتٌ، حاثّاتٌ الخطى، حاملاتٌ أطعمةً وأدويةً. وفي مواعيد محدّدةٍ تمرّ مواكب فتياتٍ مثقلاتٍ بحُزمِ الأغطية والأدثرة، وأخرياتٍ ناقلاتٍ قصع الحساء الساخن، وبين فينةٍ وفينةٍ يُشاهَد أصحاب عاهاتٍ يتساعدون، فهنا أعمى يحمل على منكبيه المتينَيْن مُقعَدًا صغيرًا.

وبين حينٍ وحينٍ يُقرع جرسُ الكنيسة فينطلق موكبٌ يتقدّمه صليبٌ، منشدًا تسابيح للعذراء، قاصدًا الكنيسة الصغيرة.

ويطوف فوق كلّ هذه التحرّكات نظامٌ محكمٌ، وسجوٌّ روحيٌّ، نابعٌ من وحدة القلوب.

ويسوس كلّ هذا العالم، المؤلّف من نحو ثلاثين أُسرةً مختلفةً، يحتلّ كلٌّ منها جناحًا خاصًّا، يلتزم بأنظمةٍ خاصّة، وخاضعًا لرئيس البيت، الذي رفض لقب الرئيس والزعيم، واكتفى بلقب "الأب"، أبي الأسرة، الذي يحدّث جميع أبنائه، ويباركهم في القدّاس اليوميّ الذي يجمعهم.

البيت يستهلك يوميًّا آلاف كيلوغراماتٍ من الطحين لصناعة الخبز، ومئات

كيلوغرامات من الملح. كلّ وجبة طعامٍ تستلزم بضع مئاتِ كيلوغراماتٍ من الأرزّ ومن البطاطا، للحساء. ويستهلك المطبخ طنًّا من الفحم يوميًّا، وأطنانًا من اللحم. وآلافًا من البيض وآلاف الليترات من الحليب للاستهلاك واستخراج الجبنة.

ويضاف إلى هذه النفقات ضرائب عن العقارات، وترميم الأبنية المتهالكة، وتحديثها وإنشاء أبنيةٍ حديثةٍ من أجل تلبية الاحتياجات المتجدّدة. كلّ ذلك يقتضي أموالاً طائلةً. وليس للبيت رأسمالٌ ولا موردٌ ثابتٌ، ولا دخلٌ سوى ما تغدقه العناية الإلهيّة، يومًا فيومًا، أو كلّما اشتدّت الحاجة، وتصاعدت ضغوط الدائنين. والمعونات الواردة تُنفَق بكاملها في الحال، ولا يُقتطَع منها شيءٌ، احتياطًا للغد تأكيدًا للاعتماد على العناية الإلهيّة، فهي المصرف الأمين، الذي لا يُخشى منه إفلاسٌ، ولا احتيالٌ، ولا نهبٌ للأموال، ولا حجزٌ لها بحججٍ شيطانيّةٍ، بل هي المصرف الذي يقدّم لك ما لم تودعه فيه، مجّانًا، ويغني عن الحيطة تأمينًا على غدر الزمان والبشر، ويسدّ كلّ ما يحتاج إليه المؤمن به.

عندما توفّي المؤسّس القدّيس عام ١٨٤٢، كان قد ورّث خلَفَه، مع المؤسّسات العملاقة دينًا بلغ مئتي ألف ليرٍ إيطاليٍّ، وتساءل كثيرون هل سيكون غياب المؤسّس إيذانًا بنهاية المؤسّسة. غير أنّ المؤسّسة ما انفكّت تنمو، وتتوسّع، حتّى غدت مدينةً كاملةً في قلب تورينو، بشوارعها وساحاتها، وأجنحتها، وحدائقها، ومحطّاتها الكهربائيّة، ومحطّاتها المائيّة المستقلّة، ومطحنتها، ومخبزها، ومغاسلها الجسيمة والحديثة، ودورٍ للمسنّين، ومدارس، ومركزٍ للشبيبة، وأمكنة عبادةٍ وكنائسَ، ومناسك، يصل بعضها ببعضها الآخر أنفاقٌ تحت الأرض، وممرّاتٌ في الجوّ.

وصباح كلّ يومٍ تضجّ تلك المدينة بحركة شاحناتٍ كثيفةٍ تجمع جبال نفاياتها، وتأتيها بأطنان لوازم عيشها، وبالمعدّات الطبّيّة، ومستلزمات الأطفال. فما زال يعيش داخل *البيت الصغير* نحو ألفي شخصٍ، ومن أجلهم يعمل مخبزٌ ضخمٌ، ومغسلٌ حديثٌ جسيمٌ.

والمركز يقدّم، مجّانًا، ستّة آلاف وجبةٍ طعامٍ، نصفها ظهرًا، ونصفها مساءً، وتستلزم أطنانًا من الطحين واللحم والبطاطا، والخضار والفواكه والسكّر، والمحروقات، ومبالغ طائلةً من المال. وكلّ ما يأتي إلى المركز من مالٍ يُنفق في اليوم عينه، لأنّ مستلزمات الغد موكلةٌ إلى العناية الإلهيّة، التي لم تتخلّف يومًا، ولن تتخلّف أبدًا، طالما ظلّ المركز يؤدّي كامل واجباته حيال المحتاجين، ممثّلي الربّ يسوع، وطالما استمرّت الصلاة متصاعدةً من كنائس البيت، ومعابده، ومناسكه، بلا انقطاعٍ ولا وهنٍ، وفي كلّ ثانيةٍ، إلى واهب كلّ شيءٍ، وطالما ظلّ إيمان القيّمين على المركز في العناية الإلهيّة صامدًا، راسخًا، وما ظلّوا يردّدون قول المؤسّس:

« الله وعنايتُه يعملان، هنا، كلّ شيءٍ ».

غير أنّ بيت العناية الإلهيّة الصغير، لم يعد محصورًا في تورينو، بل تشعّب، وبات له مئة فرعٍ في إيطاليا وعشرات فروعٍ في الخارج، منها سويسرا، وأفريقيا، والهند، وأميركا. وفي كلّ هذه الفروع ظلّت روح القدّيس كُتُّلِنْغو مهيمنةً، بحيث أمسى اسم تلك المراكز يُختَزَل باسم "الكُتُّلِنْغو". وما برح كلٌّ من تلك الفروع يؤدّي خدماته السخيّة المجّانيّة، بمثل المحبّة والتفاني اللتين غرسهما المؤسّس القدّيس في نفوس أبنائه "الكُتُّلِنْغيّين".

وعام ١٩٦٥ تألّف تلقائيًّا جيشٌ من المتطوّعين القادمين من مختلف الطبقات الاجتماعيّة والثقافية، منهم من يعمل مدى ساعاتٍ كلّ يومٍ، لفترةٍ محدّدةٍ، ومنهم من يكرّسون كلّ وقتهم للخدمة في الميادين التي يبرعون فيها، لعددٍ من الأشهر أو السنوات، قبل الانطلاق في مسيرهم المهنيّة. ومنهم من يستنكفون عن الخدمة العسكريّة برادع ضميرهم، ويستعيضون عنها بالخدمة الإنسانيّة في "الكُتُّلِنْغو".

وما زالت هناك ستّة أديرةٍ تضمّ ثلاث مئة راهبةٍ حبيساتٍ متأمّلاتٍ، يدعمنَ بصلواتهنّ المتّصلة ليل نهار، وبتضحياتهنّ السخيّة، استمرار بيت العناية.

وما برح مثال القدّيس كُتُّلِنْغو يستنفر أبطال خدمةٍ ومحبّةٍ، في كلّ مكانٍ، وأبرزهنّ الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، التي زارت بيت العناية في تورينو واستلهمت منه عِبَرًا وأساليب عملٍ.

وكان القدّيس جان بوسكو قد التقى عشيّة سيامته الكهنوتيّة الأب كُتُّلِنْغو، ثمّ أنشأ مؤسّساته على بعد أمتارٍ من بيت العناية الإلهيّة الصغير.

وما زال زهاء عشرين معاقًا يقضون نهارهم في المركز، ويتلقّون التأهيل الذي يحتاجون إليه، والتعليم الأساسيّ، ويتناولون وجبة غداء كافيةً، ثمّ يعودون، مساءً إلى بيوت ذويهم. ومن منهم يستطيع دفع أيّ مبلغٍ يُشكَر، ومن لا قدرة لهم على الدفع، يلقى الترحيب عينه، والعناية ذاتها، ويُشكَر أيضًا.

وفي المركز، أيضًا، "بيت مريم"، حيث تلقى النساء الجانحات أو الواقعات في مِحَنٍ، جوًّا مفعمًا عطفًا، وتُتاح لهنّ الإقامة فترةً تطول أو تقصر حسب ظروفهنّ واحتياجاتهنّ.

ولدى المركز، أيضًا، خدمة استقبالٍ للغرباء، وللذين لا مأوى لهم، وأبوابه مفتوحةٌ لكلّ بائسٍ ومُعانٍ.

وقد اعترف كاتبٌ فرنسيٌّ: "ما لم أشهده في أوروپا الوسطى، شاهدته في *البيت الصغير* في تورينو. إنّه موسوعة المحبّة الكاثوليكيّة".

المؤسّس

مؤسّس "بيت العناية الإلهيّة الصغير"، كاهنٌ آمن إيمانًا راسخًا ومطلقًا بالعناية الإلهيّة، وأقدم بدافع هذا الإيمان على مغامراتٍ عدّها القريبون منه حماقةً وجنونًا، غير أنّها أسفرت عن إنجازاتٍ تتخطّى كلّ منطقٍ وتوقّعٍ، وتعجز عن مثلها أوفر الجمعيّات والمؤسّسات عديدًا وموارد.

إنّه "جوزيف بنوا كُتُّلِنْغو" (Giuseppe Benedetto Cottolengo)، الذي عاش في حقبةٍ من القرن التاسع عشر، حفلت خلالها إيطاليا بالقدّيسين، نذكر منهم الملائكيّ "دومينيك ساڤيو"، و"كَفَسّو"، مرشد المساجين الذي استشهد ذودًا عنهم، وأوسعهم شهرةً، "دون بوسكو"، الذي امتدّت أعماله إلى أقاصي الأرض. وكان قدّيسنا قد تنبّأ لدون بوسكو بمستقبلٍ زاخرٍ بالنشاط، عندما زاره، وهو على عتبة الكهنوت، وأمسك الأب كُتُّلِنْغو، بكمّه، وقال له: "يا بنيّ إنّ نسيج ثوبك ناعمٌ جدًّا، وقد لا يكون عليه غبارٌ الآن، ولكن عندما ستصبح كاهنًا، فخيرٌ لك أن تلبس ثوبًا من نسيج أكثر خشونةً ومتانةً، فحينئذٍ سيشدّك هذا من هنا، وذاك من هناك، وقد يمزّقون ثوبك". وعندما تبيّن القدّيس جان بوسكو صدقَ نبوءة أخيه الأكبر كُتُّلِنْغو، كان هذا الأخير قد أمسى في ديار الحقّ.

وُلِد جوزيف كُتُّلِنْغو، يوم الثالث من شهر أيّار من عام ١٧٨٦ في قرية "بْرا"، الواقعة على بعد خمسين كيلومترًا جنوبيّ مدينة تورينو، والرابضة في منطقةٍ ريفيّةٍ، تحت رعاية معبد "سيّدة الزهور".

"*البيت الصغير*"... "مدينة كُتُّلِنغو"

والده، جوزيف أنطوان كُتُّلِنْغو كان جابي ضرائب، ميسور الحال، مشهودًا له بالاستقامة، ورسوخ الإيمان، وناعمًا باحترام مواطنيه وتقديرهم، وقد جاد الله عليه بزوجةٍ غنيّةٍ بالفضائل، وسموّ الشمائل، وبالورع، والعطف على الجميع، تُدعى "بينيديتّا كلاريتّي" (Benedetta Claretti)، التي عُهِد عنها تعاطفها مع الفقراء، وسخاؤها على كلّ سائلٍ، وسعادتها الكبرى في إغاثة كلّ محتاجٍ. وكانت حريصةً على واجباتها الدينيّة، مواظبةً على حضور القدّاس يوميًّا، مبرهنةً عن ورعٍ وتقوًى جعلاها قدوةً للآخرين. وقد أرضعت فضائلها وورعها لابنها البكر جوزيف مع حليبها. ولمّا ضمّته، وليدًا، بين ذراعيها للمرّة الأولى غمرها فرحٌ عارمٌ، وانتابتها

رغبةٌ حارقةٌ في تقديمه لله. وكان وليدها هذا، لّما رأى النور، هشّ البنية، وكانت تخشى فقدانه في كلّ لحظةٍ، ولكنّ قوّة الحياة ومشيئة الله الذي كان يُعِدّ ذلك الطفل لمهمّاتٍ ساميات تغلّبتا على هشاشته.

كان جوزيف بكرَ اثني عشر ولدًا، اختطفت المنيّة ستّةً منهم وهم، بعدُ، براعم لم تتفتّح. أمّا الستّة الذين كُتِبت لهم الحياة، فهم ثلاثة إخوةٍ لجوزيف وأُختان. اثنان من إخوته نهجا، نظيره، درب الكهنوت، فأحدهما "لويس" أصبح راعيًا روحيًّا لمدينة "كييري" (Chieri)، برتبة "شانوان"، وثانيهما "إينياسيو" انضمّ إلى جمعيّة القدّيس دومينيك، واعتنق اسم "الأخ ألبيرتو". أمّا الأخ الثالث "أُغستينو" فاستماله الفنّ، وأضحى رسّامًا، وأولى اهتمامًا خاصًّا بالرسومات الدينيّة.

أمّا شقيقتاه، ماريّا وتيريزا، فلم تتزوّجا، وقضتا حياة ورعٍ وقداسةٍ أُسوةً بوالدهما.

مذ تبيّنت الوالدة أنّ ذهن طفلها البكر أمسى قادرًا على الفهم شرعت تحدّثه عن الطفل يسوع، وعن أمّه العذراء، وتعلّمه أنّ على الطفل الصالح أن يكون، مثل يسوع، طيّب القلب، مطيعًا لوالديه، محبًّا للجميع. كانت تقيمه على ركبتيها، وتضمّ ذراعيه على صدره، وتلقّنه صلوات الصباح والمساء. ولّما حفظها غدا يبادر تلقائيًّا إلى تلاوتها. وكانت والدته قد ألِفت استصحابه إلى الكنيسة، وتدريبه على احترام الصمت والخشوع، فكان لا يملّ الإقامة الطويلة في الكنيسة، ويطرب للتراتيل الكنسيّة، وغدا يرتّل الصلوات التي تعلّمها على نغمات التراتيل التي يسمعها في الكنيسة، ومنذ نعومة أظفاره ألِف أن يدعو السيّدة العذراء "ماما".

ومثلما علّمته والدته الصلاة، غرست فيه العطف على الفقراء، فكانت كلّما قرع سائلٌ باب البيت تودع بين يدي صغيرها نقودًا، وخبزًا ومساعداتٍ أخرى، قائلةً له: "الفقراء هم إخوتنا، ومساعدتهم واجبٌ علينا، فامضِ إلى هذا الفقير، وأعطه بفرحٍ واحترامٍ، هذه الأشياء الضئيلة، حبًّا بالله". ومنذئذٍ غدا، كلّما صدف فقيرًا عند عتبة الباب، أو في الطريق، يهرع إلى والدته، ولا يعود إلاّ بما يُفرح به قلب الفقير.

وكانت والدته قد اعتادت زيارة المستشفيات، ومواساة المرضى فيهـا، ومـع أنّ كثيرين كانوا يحذّرون من زيارة الأطفال للمستشفيات، لم تتـورّع "بينيـديتّا" عـن استصحاب طفلها إلى موائل الوجع والأمل، فخلّفت هذه الزيارات في نفس جوزيف ابن السنوات الخمس أعمق أثرٍ، وألهبتها عطفًا على كلّ وجعٍ، ورغبةً في مواساة كلّ علّةٍ. وغداة إحدى الزيارات، فاجأته والدته وهو يقيس مساحات غرف المنـزل، لأنّه كان يحلم في تحويلها إلى غرف مستشفى، ويقدّر عدد الأسرّة التي يمكن وضـعها في كلّ غرفةٍ، كي يستقبل مرضى فقراء يخدمهم ويعالجهم فيها. وبذلك كان، على غير وعيٍ منه، يتأهّب للرسالة التي سيكرّس لها حياته، ويجترح فيها معجزاتٍ.

وقد غرست أمّه، في نفسه، إلى جانب الورع والمحبّة النأي عن كلّ قولٍ أو عملٍ من شأنهما خدشُ مشاعر الآخرين، والتزام الصدق والاستقامة في كلّ شيءٍ.

وقد اتّفق له، يومًا، أن لمح، تحت مقعدٍ في البيت، قطعة نقدٍ، فلمّها ودسّها في جيبه، ولكنّه، في الحال، تذكّر قول أُمّه إنّ الله يرى كلّ شيءٍ، حتّى ما خفي عن جميع العيون، وبهظه الشعور بأنّ تلك القطعة التافهة قد استدعت كلّ شياطين الدنيا كي تحطّ على ظهره، وحينئذٍ هرع إلى والدته وسلّمها ذلك النقد الملعون، وتنفّس الصعداء.

وفي نوبةٍ أخرى، كلّفته خالته بخدمةٍ، وأدّاها وهو يغمغم معبّرًا عن انزعاجـه، وسأمه. ولما أخلد إلى النوم انتابه شعورٌ بأنّه أساء السلوك وربّما أغـاظ خالتـه، فجفاه النوم، ونبا به الفراش، فهبّ وجاء خالته معتذرًا عن فظاظة سلوكه.

ومن ثمّ، استطاعت الوالدة الحكيمة الإعلان، في مناسباتٍ عديدةٍ، بثقةٍ وفخرٍ، أنّ ابنها البكر لم يسبّب لها قطّ، منغّصًا أو مكدّرًا، وأنّها تتوقّع لأسرتها خيرًا جمًّا، لأنّ "جوزيف" يتقدّم باطّرادٍ، وبخطواتٍ حثيثةٍ وواسعةٍ في مضمار الفضيلة. وكان أقرباء الأسرة يصفونه بالملاك.

كانت والدته، إذن، تدفعه على دروب الفضائل والقداسة، ولكن كان عليه الكفاح من أجل التغلّب على نقائص فطريّةٍ. فقد كان حادّ الطباع، ميّالاً إلى الغضب، ولدى أيّة معارضةٍ أو مقاومةٍ له، كان يجيش حنقًا، ويصطبغ جبينه ومحيّاه بالاحمرار، وتزدحم الدموع في مآقيه. وحينئذٍ كان حبّ والدته التي برعت في قرن الرقّة بالصرامة، أن تحدّق إليه، وأن تناديه باسمه حتى تسكن عاصفة ثورته.

هذه الخصال النادرة دفعت بخادم رعيّة "بْرا"، إلى ترشيح الفتى "جوزيف" لنيل سرّ التثبيت في سنّ الثامنة، يوم ١١/١٠/١٧٩٤. وكان هذا الراعي يحيط جميع أبناء رعيّته بحبٍّ خالصٍ رقيقٍ، ويلهبهم بنار مواعظه، فأحبّه جوزيف، ربّما أكثر من حبّه لأفراد أُسرته، وغدا يأتيه باكرًا إلى الكنيسة، ويخدم له القدّاس، ويواظب على تعاليمه الدينيّة. وعبّر الكاهن عن تقديره لسلوك هذا الفتى المميّز فور إشراكه في مأدبة الملائكة، ومنحه سرّ الإفخارستيّا، وهو في سنّ التاسعة، وكان هذا الامتياز في تلك الحقبة، استثنائيًّا... هذا النبأ أفعم قلب الفتى حبورًا، فأكبّ على الاستعداد للحدث السعيد خير استعدادٍ. وفي يوم عيد الفصح من عام ١٧٩٥، تلقّى الربَّ في قلبه فاعتراه شعورٌ أخّاذٌ بأنّه غدا ينمو طهرًا، وبراءةً، وسموًّا. ومنذئذٍ، ما انفكّ يُغذّي نفسه برغباتٍ مقدّسةٍ، بحيث رجا، في غروب حياته، أن يكون قد حافظ على براءة عماده. وألاّ يكون فَقَدَ، قطّ، لحظةً واحدةً، صداقة المخلّص ورضاه.

ومذ شرع يغشى المدرسة العامّة، تجلّت محبّته الإنجيليّة. ففي طريقه، غالبًا ما كان يصدف متسوّلين، أو أولادًا يبحثون عن كسرة خبزٍ. وكانت هذه المشاهد تستدرّ دموعه، وتنتزع منه هتافات عطفٍ، ويتمنّى لو يستطيع إغاثتهم. وراح يبحث عن وسيلةٍ لتحقيق شيءٍ من رغبته هذه. وشرع يوزّع على أولئك المساكين كلّ ما يهديه إيّاه والداه وأقرباؤه من مالٍ، غير محتفظٍ لنفسه بفلسٍ واحدٍ. بيد أنّ هذه اللفتة لم ترو كلّ ظمئه إلى المساعدة، فرجا والدته أن تضاعف كمّيّة الطعام

الذي كانت تزوّده به للمدرسة، وكان يكتفي منه بالزهيد. وفي ساعة الاستراحة الدراسيّة، كان يكوّن من معظم طعامه حصصًا صغيرةً، ويخرج بها إلى الشارع فيوزّعها على الجائعين والمتسوّلين. وما لبث أن شاع نبأ عمله هذا بين الفقراء المتسوّلين، فغدوا ينتظرون مجيئه إلى المدرسة، ويحصلون على حصصهم. وكم تمنّى أن يتكاثر زاده فلا يبقى فقيرٌ جائعًا.

ولحظت والدته حيلته هذه، فسعدت بها، وغدت تضاعف، يومًا فيومًا، كمّيّة زاده، وإثر انطلاقه إلى المدرسة كانت تراقبه من نافذة البيت، وتتمتّع بمشاهدة مبادراته الخيريّة، وتهرع لمشاركة زوجها فرحتها، هاتفةً: "شهدتُ جوزيف يوزّع طعامه على الفقراء. يا له من ملاكٍ! كم أنا فخورةٌ وسعيدةٌ به!".

ولم يتميّز "جوزيف" بمبادرات محبّته فحسب، بل كانت شفافيّة سلوكه، وصراحته، وصدقه، وطاعته لمرشديه الذين قدّروا، أرفع تقديرٍ، استقامته، وتواضعه، ومجموعة فضائله التي أهّلته ليكون لأترابه النموذج، القدوة، والمثال الأكمل. وكان هؤلاء كلّما استسلموا للبذاءة قولاً وفعلاً، بغيابه، يصمتون خجلاً، حالما يلمحونه قادمًا صوبهم. ولكن بقدر ما جلّى جوزيف في ميدان الفضائل، كان متخلّفًا في ميدان العلم، ومغلق الذهن دونه. وكان هذا الوهن يحزنه ويفعمه قلقًا. وكان يعترف لرفاقه، خجِلاً: "أنتم تفهمون الدروس بيُسرٍ، فيما ذهني مغلقٌ دونها". وكان أترابه يشاطرونه، غالبًا، حزنه، غير مدركين كيف أنّ زميلهم المتميّز أخلاقيًّا وسلوكيًّا، لا يستوعب أمورًا بالغة السهولة.

بيد أنّ "جوزيف" لم ييأس، وضاعف جهوده الدراسيّة. ولكن لّما تبيّن أنّ جهوده الشاقّة لم تُجدِ نفعًا في فتح نوافذ ذهنه على الاستنارة العلميّة، عمل بنصيحة والدته، واستغاث بالملفان الملائكيّ، القدّيس توما الأكوينيّ، متعهّدًا بأن يكون له أشدّ المكرّمين، ومن أكثرهم تمثّلاً بفضائله.

واستجاب اللاهوتيّ القدّيس لملتمسه، فتحسّنت طاقات استيعابه للدروس تحسّنًا مذهلاً. وبعد أن كان يلازم المرتبة الدنيا في الصفّين السادس والخامس، ارتقى إلى المراتب الأولى في الصفّين الرابع والثالث، ولم يتدنّ عن هذا المستوى حتّى نهاية دروسه. وظلّ يُقرّ بفضل الأكوينيّ عليه حتّى أيّامه الأخيرة، وعبّر عن عرفانه بجميله، لاحقًا، عندما أسّس إكليريكيّةً لتثقيف مرشّحين للكهنوت، وأطلق على المتخرّجين منها اسم "التوماويّين". وهو نفسه اعتزم احتذاء مثله على درب القداسة. وكانت خطوته الأولى، في هذا السبيل، ترسيخ يقينه بأنّ الله يراه في كلّ مكانٍ، وكلّ حينٍ، وبأنْ لا سبيل إلى التواري عن أنظار الله. وهو لم يقتصر على حفر هذا الإيمان في قلبه، بل توخّى إبقاءه، دائمًا، نصب عينيه، فدوّن على صفحات كتبه ودفاتره عبارة "الله يراني"، وكتبها بأحرفٍ بارزةٍ على لافتاتٍ كبيرةٍ احتلّت أماكن بارزةً من حجرته، ومكتبه. ولكي يشارك رفاقه هذه القناعة، دوّن ذلك الشعار بأحرفٍ جسيمةٍ على جدران ساحة المدرسة.

وإمعانًا في تصميمه على بلوغ القداسة، لم يكفّ عن إعلانه مردّدًا: "سأظلّ أعبّر عن رغبتي في أن أصبحَ قدّيسًا. ومع أنّي ما زلت بعيدًا عن هذه الغاية، فلن أتخلّى عنها أبدًا، وبمعونة الله، سأصبح قدّيسًا!". فالقداسة كانت حلم فتوّته، ومقصد مراهقته، وتصميم شبابه. وكانت وسائله إليها: إيمانًا متينًا، وسيطرةً على عيوبه الفطريّة، والتغلّب على الخوف، والغضب، والنزعة إلى العنف، واقتفاء خطى القدّيسين في ممارسة التضحيات، وإطاعة رؤسائه ومرشديه.

وقد أيقن، باكرًا، أنّ خير معينٍ له على بلوغ هدفه هو "ملكة القدّيسين" العذراء مريم، التي أوكل لها كلّ ذاته، وأودعها قلبه كي تحفظه نقيًّا، بريئًا، والتمس عونها على بلوغ القداسة. فكانت كلّ أحاديثه تدور حول "الأمّ العطوف"، و"السيّدة القدّيسة". لها كان يرفع الأناشيد. وقد صمد لها إيقونةً رائعةً في غرفةٍ

هادئةٍ في المنـــزل، غدت هي الواحة التي يحجّ إليها باطّرادٍ، مستمدًّا السكون والقوّة. ولطالما شاهده ذووه راكعًا عند قدميها، مستغرقًا في الصلاة.

وكانت أعذب ساعات نهاره، موعد اجتماع أفراد الأُسرة من أجل الاشـــتراك في تلاوة المسبحة. وعندما انتسب جوزيف، لاحقًا، إلى جماعة الورديّة المقدّسة، آلى على نفسه ألاّ يتخلّف، يومًا، عن أداء طقوس الورديّة، كاملةً، لا بل كان يستأذن والده أن يدعو مَن يريدون من الجيران كي يشاركوه تكريم الأُمّ السماويّة.

وتوغّلاً في تكريمها، كان يسترسل في ممارسة تضحياتٍ، حارمًا نفسه من طيّبات الطعام والفواكه، والحلويّات والنبيذ، جاهدًا في إخفاء هذه التضحيات عن عيـــون الآخرين. فكلّما شكا إخوته من طعامٍ لم يستسيغوه أو أُسيء طهوُه، كان يتنـــاول منه قدرًا وافيًا، جاهدًا في إخفاء نفوره منه.

ومنذ أيّام فتوّته اعتاد الصيام قبل أعياد السيّدة العذراء، ويوم السبت من كلّ أسبوعٍ، وما لبث أن أضاف إليه صيام يوم الأربعاء.

بلغ السابعة عشرة من سنواته، وكان، بفضل إرشاد معرّفه، قد تغلّـــب علـــى نقائصه، وتحوّل من مراهقٍ جموحٍ، مشاكسٍ، إلى مطيعٍ، سلس القياد. وقد تجلّـــت سيطرته على الغضب، ذات يومٍ، إذ كان يتلو صلواته اليوميّـــة، وشـــرع أخـــوه الأصغر "إينياسيو" يراوده، ويزعجه، جاهدًا في صـــرف انتباهـــه عـــن كتـــاب الصلوات، ورجاه جوزيف برقّةٍ أن يكفّ عن عبثه ويدعه وشأنه، ويبعد عنه حتّى ينهي فروضه الروحيّة بسكونٍ وتركيزٍ، ولكن الفتى لم يرعوِ وواصـــل محاولاتـــه المزعجة، ودفع طبع الإكليريكيّ الفطريّ إلى تلقين أخيه الطائش درسًا، فهاجمـــه، ولكنّ الفتى فرّ، ولاحقه "جوزيف" حتّى قبض عليه بقوّةٍ. وما هي إلاّ ثوانٍ حتّـــى تحوّلت القبضة إلى عناقٍ رقيقٍ، ودعوةٍ رقيقةٍ إلى احترام مشاعر الآخرين. وكـــان لهذه الخطوة أعمق أثرٍ على الفتى، الذي جرى نحو إخوته، كي يروي لهم ما جرى مع الأخ الكبير وحثّهم على التمثّل به.

وفي تلك المرحلة انضمّ جوزيف إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة الثالثة.

وما انفكّ شغفه بغوث المرضى ينمو يومًا فيومًا، وكان، في هذه الأثناء، قد برع في فنّ فتح قلوب ومحافظ الأصدقاء والأقرباء الميسورين وخزائنهم، وامتصاص أموالٍ منها، تسهم في غوث المحتاجين، ولوحظ أنّ الذين كانوا يلبّون طلباته لهذا الغرض، يلبّونها بسخاءٍ مغلّفٍ بالبشاشة والبسمة، وكأنّ لظرفه، ودماثته، ونصاعة نفسه، سحرًا.

وكانت خطواته نحو القداسة تتسارع، وقناعته بأنّ الكهنوت هو سبيله إلى القداسة تزداد نضوجًا.

الكاهن

كان جوزيف قد بلغ السابعة عشرة، وتلقّى كلّ الدروس التي كان بوسع المدراس المحلّيّة تزويده بها، وآن له أن يرسم درب مستقبله. ودفعه جوّ الورع والمحبّة الذي ربّته عليه والدته نحو الكهنوت، وزاده اندفاعًا في هذا الاتّجاه اعتزامُه بلوغ القداسة، الذي أثلج قلب أُمّه فرحًا وأسعد مرشدَه الروحيّ، الذي طالما توسّم في ذلك الشابّ خادمًا مميّزًا للكنيسة. ولكنّ والده كان أقلّ حماسًا، لأنّه كان يؤثر أن يكرّس ابنُه البكر خصالَه الحميدة، وامتيازاتِه بصفته بكر الأبناء، على تأسيس أُسرةٍ مرموقةٍ. وجهد في إقناعه وثَنْيه عن درب الكهنوت. غير أنّ صمود ابنه وزوجته أقنعاه، بعد لأيٍ، بأنّ تقديمه بكرَ أبنائه لله، سيستمطر على الأُسرة جمعاء وابلاً من البركة.

وبقي على الشابّ، في سبيل المضيّ نحو غايته، مصارعة مراودات عدوّ الله والبشر، والمخاوف التي كان يحاول الشرّير زرعها في قلبه، مثلما كان قد حاول، آنفًا، إعاقته عن طريق المائدة المقدّسة. فإذ كان، ذات يومٍ، يتقدّم للمناولة شاهد يدًا منيعةً، مهدّدةً، تسدّ طريقه بقسوةٍ. فذُعر، وكاد يعود القهقرى، لو لم يلحظ مرشده الروحيّ تردّده وحيرته، فدعاه بحزمٍ إلى التقدّم، وحينئذٍ توارت اليد الآثمة. وكرّر الشرّير محاولاتٍ مماثلةً، ولكنّه ظهر فيها بشكلٍ بشعٍ مقزّزٍ، حتّى خيّل إلى الشابّ البريء أنّ ذلك المظهر يعني ارتكابه، بلا وعيٍ، أخطاءً جسيمةً، وشكا الأمر لمعرّفه الذي أوصاه بألاّ يعير بالاً لهذه الظواهر الإبليسيّة، التي تستهدف صرفه عن مائدة الخلاص.

في الخامس من شهر كانون الأوّل ١٨٠٢، خطا جوزيف خطوته الأولى صوب غايته، وارتدى الثوب الإكليريكيّ، فاشتعل قلبه حبورًا، بحيث اعترف ذووه، لمّا

عاد إلى البيت بزيّه الجديد، أنّ محيّاه كان يشعّ سجوًّا، وفرحًا، وجمالاً، حتّى بدا ملاكًا أكثر مما بدا إكليريكيًّا.

وبما أنّ جامعة تورينو كانت قد أُغلقت بقرارٍ من الثورة الملحدة، فقد بدأ جوزيف دراسة الفلسفة واللاهوت على يد اثنين من أساتذة تلك الجامعة، كانا قد عادا إلى مسقط رأسهما "بْرا". وبذلك استهلّ كُتُّلِنْغو، مع ثلّةٍ من أترابه، الدراسة المؤهّلة للكهنوت، في مسقط رأسه. وكان مرشده الروحيّ قد نظّم لهم برنامجًا يوميًّا مستوحًى من حياة الإكليريكيّات، يقوم على نهوضٍ باكرٍ، فتأمّلٍ وصلاةٍ، وحضور القدّاس، ثمّ متابعة الدروس على أن تتمّ مراجعتها في البيت، والقيام بنزهةٍ قصيرةٍ، مساءً، برفقة رفاق الدراسة، وزيارة هيكل القربان، ثمّ العودة إلى البيت، والإكباب على قراءاتٍ روحيّةٍ، وتلاوة المسبحة.

وقد التزم جوزيف بهذا البرنامج التزامًا أمينًا، دقيقًا، وأضاف إليه الانقطاع عن تناول الخمر، والقطاعة، يومين في الأسبوع، إكرامًا للسيّدة العذراء. وقصر مطالعاته، إلى جانب دروسه، على الكتب المقدّسة، وسيَر القدّيسين، التي كانت توفّر له متعةً كبرى. وقلّما كان يخرج من البيت، إلاّ لدواعٍ ملحّةٍ. وإذا ابتغى التنزّه، ترويحًا عن ذهنه المتعَب، فكان يختار المكان الأكثر عزلةً، متجنّبًا التحدّث إلى أيٍّ كان ما خلا الكهنة والإكليريكيّين، وكانت أحاديثه تتّسم بالحشمة الصارمة وباللطف العذب. وكان إيمانه العميق بسموّ دعوته يحدوه إلى إيثار التحدّث عن الكرامة الكهنوتيّة، وعن فوائد ممارسة الأسرار المقدّسة، ونتائج الصلاة والتأمّل، وثمار المطالعات الروحيّة.

وغالبًا ما كان يراجع مع رفاق الدراسة، ما تلقّوه من دروسٍ. وأثناء العطلة الأسبوعيّة كانوا يتحلّقون ويتحاورون حول ما تلقّوه من دروسٍ. وكان جوزيف شديد الحرص على التحاشي حتّى عن التسليات البريئة مضحّيًا بها طوعًا، إكرامًا للسيّدة العذراء. وبالإجمال كانت حياته، آنذاك، لا تختلف، في شيءٍ، عن حياة الأديرة.

ولم يكن له من ملكٍ خاصٍّ سوى محتويات غرفته، وكتبه. لم يكن يطلب لنفسه شيئًا خاصًّا، ويرتضي كلّ ما يقدّم له، غير مفضّلٍ ثيابًا على ثيابٍ أُخرى، ولا طعامًا على الطعام المقدَّم، حتّى إذا كان لا يستسيغه.

وكان يلبّي، بطيبة خاطرٍ، رغبة إخوته التنــزّه معه، وحينئذٍ كان يحدّثهم عن سِيَر القدّيسين، وعن آخر العظات التي سمعها في الكنيسة. وكان، كلّ مساء، عقب العشاء يجمعهم للصلاة المشتركة. وإذا لحظ لدى أحدهم نقيصةً، أو خللاً، أو عثرةً، كان يأتيه، خفيةً، في غرفته، فيلفت نظره إلى حيث أخطأ أو قصّر، ومعه يسأل غفران الله، ويؤكّد نيّة الاصطلاح. بهذا السهر الحازم المقترن بالرقّة العذبة، اكتسب جوزيف احترام جميع أفراد أُسرته ومحبّتهم، واستحقّ ثناء معلّمه، الأب "فرّيرو" الذي صرّح: "إنّ جوزيف هو نعمةٌ لأُسرته، ونموذجٌ لرفاقه، وهو للجميع ثمينٌ مثل جوهرةٍ نادرةٍ".

وفيما كان يدنو، يومًا فيومًا، من هيكل الربّ، غدا يشهد بمزيدٍ من الوضوح والشغف الربَّ يسوع في كلّ فقيرٍ، ومعذّبٍ، وبائسٍ، ويتنامى عطفه الفطريّ عليهم، فيزداد اندفاعًا في العطاء بلا حساب، باذلاً كلّ ما تطاله يده، غير مفرّقٍ بين ذهبٍ ونحاسٍ، أو بين مبلغٍ طائلٍ، ومبلغٍ زهيدٍ. وإذا تنامت إليه أنباء أُسرٍ منكودةٍ، ولم تتيسّر له المعونات الكافية، فكان يلجأ إلى النبع الذي لا ينضب: إلى قلب أُمّه. ويقدّم ما يحصل عليه بواسطة إحدى شقيقتَيْه، أو ابن عمٍّ له، لكي يظلّ هو مُغفَلاً.

ولم يقتصر على المعونات المادّيّة، بل كان يُغدِق أيضًا المعونات الروحيّة، من خلال التعليم الدينيّ، كلّ يوم أحدٍ، وفي جميع أيّام الصوم الكبير. وكان يطيبُ له أن يروي للصغار سيرة نسّاك الصحارى. ولكم تمنّى أن يتمثّل بهم! وبما أنّ هذا التمثّل، واقعيًّا، كان متعذّرًا، فقد توغّل في اقتفاء خطاهم في الزهد والتضحيات.

ومن أساليب الزهد التي انتهجها، استعطاءً لمزيدٍ من معونة الأُمّ السماويّة له على بلوغ الكهنوت، كان اقتصاره على وجبة طعامٍ واحدةٍ، يوميًّا، واستعاضته عن النبيذ الذي يرافق وجبات الطعام، عمومًا، بماءٍ ملوّنٍ ببضع قطراتٍ من الخمر. وسرعان ما ظهرت عليه نتائج هذا النظام المتقشّف، وهنًا وهزالاً، فاضطرّ طبيبه ومرشده إلى ردعه، وثنيه عن هذه التضحيات التي لن تؤدّي، في نهاية المطاف، إلاّ إلى إعاقته عن تحقيق رسالته. وما إن استعاد قواه، بعودته إلى نظامٍ غذائيٍّ طبيعيٍّ، حتّى وعد السيّدة العذراء بتكريس كامل طاقاته على تمجيد ابنها وتمجيدها.

كانت قد انقضت أربع سنواتٍ على انتهاجه المسلك الإكليريكيّ، وخطا شأوًا واسعًا في دروسه، وفي اقتفاء خطى القدّيسين، عندما قامت في دربه عقبةٌ كأداء، كادت تطيح بمسيرته، ففي عام ١٨٠٥ استُدعي إلى الخدمة العسكريّة، التي كانت كفيلةً بصرفه، بلا رحمةٍ، عن دروسه، وبالتالي عن غايته: الكهنوت. وذلك فضلاً عن تهديدها إيّاه بفقدان حياته.

فنصحه والده بالزواج الكفيل بإعفائه من الخدمة العسكريّة، ولكنّه أبى، مبديًا عدم خشيته من تقديم ذاته لحماية الوطن، وفي الآن عينه موقنًا أنّ العناية الإلهيّة هي التي ترسم طريقه، وأنّ الله يريده خادمًا له، في الحياة المكرّسة. واستشار في الأمر مرشده الروحيّ، فبدّد كلّ ما كان يتنازعه من تردّدٍ وهواجس، وأكّد له ما كان هو موقنًا به، أي أنّ الوسيلة التي أوحى بها والده، نافلةٌ، ولا حاجة إليها، فالله الذي سيتولّى أمره، قد أعدّ له أبوّةً خصبةً تشمل أجيالاً عديدةً.

وفيما كان أُسقف "أستي" (Asti)، الذي كانت رعيّة "بْرا" خاضعةً لسلطته، يسعى إلى إعفائه من الخدمة العسكريّة بصفته إكليريكيًّا، تطوّع شابٌّ للحلول مكانه في خدمة الجيش، لقاء مبلغٍ وافٍ، دفعه له والد جوزيف. وحينئذٍ انضمّ كُتُّلِنْغو الإكليريكيّ إلى إكليريكيّة "أستي"، حيث ضرب أروع مثالٍ في الطاعة،

والتواضع، والمحبّة، والإكباب على الدراسة والصلاة. وبما أنّ هذه الإكليريكيّة ضمّت، حينذاك، طلاّبًا قادمين من عدّة إكليريكيّاتٍ، ومختلفين عقليّاتٍ وتقاليد، وكانت هذه الاختلافات مصدر صداماتٍ متلاحقةٍ، فقد كان الشابّ كُتُّلِنْغو هو ملاك سلامٍ بينهم.

ومع جهده في توخّي العزلة والامّحاء، لفتت فضائله المتألّقة أنظار الجميع، مثلما يستلفت إلى الوردة أريجُها الفوّاح، حتّى إذا كانت متواريةً عن الأنظار. ونصّبه مسؤولو الإكليريكيّة نموذجًا جديرًا بالاحتذاء. واعترف له أترابه بالتفوّق جهدًا، وعلمًا، وفضيلةً، وأحبّوه، وقدّروه، ولقّبوه "شيشرون" الإكليريكيّة، وأجمعوا على تكليفه بأن يكون لسان حالهم، في شتّى المناسبات، وأقرّوا: "لقد رأينا فيه، دائمًا، المثال الأكمل للإكليركيّ، ونفسًا مختارةً تسير بخطًى حثيثةٍ وثابتةٍ على درب القداسة".

ولّما قضى الإكليريكيّ كُتُّلِنْغو عطلته الصيفيّة في مسقط رأسه، لم يتخلّ عن شيءٍ ممّا ألِفه في الإكليريكيّة من سلوكٍ ناصعٍ، وورعٍ، وحشمةٍ. ولم يبدّل شيئًا من زيّه، فاحتفظ بجلبابه الأسود في عزّ الحرّ، منفقًا وقته في الصلاة والتأمّل، والمطالعات الروحيّة. وكان خشوعه يضفي عليه مظهرًا ملائكيًّا. وكان إيمانه الوطيد المتجلّي على كلّ كيانه وسلوكه، والتزامه الثابت بالإنجيل دليلاً أكيدًا على قداسةٍ راسخةٍ، ودعوةٍ محقّقةٍ.

بعد بضعة أشهرٍ، عقب عودته إلى "أستي"، واستئنافه دروسه اللاهوتيّة، أُغلقت الجامعة، ثانيةً، فاضطرّ جوزيف إلى استئناف دراسته على أيدي الأستاذين اللذين بدآ بإعداده للكهنوت في "بْرا"، حيث أثبت أهليّته للكهنوت، فمُنِح الدرجات الصغرى، بدءًا بقصّ شعره على شكل إكليلٍ يوم ١٨٠٦/٥/٣، واستمرّ في ارتقاء الدرجات الإكليريكيّة، حاصلاً في جميعها على أرفع تقدير أساتذته ورؤسائه. وسيمَ شمّاسًا إنجيليًّا يوم ١٨١١/٣/١٣، ثمّ سيمَ كاهنًا، في كاپيلاّ إكليركيّة تورينو، يوم ١٨١١/٦/٨.

لدى احتفاله بقدّاسه الأوّل، بدا في شبه الخطافٍ، عندما أمسك بيديه جسد مخلّص العالم، وكان تأثّره سحيقًا، حارقًا، مُعديًا، حتّى اعترى الحاضرين شعورٌ بأنّهم يشهدون قدّيسًا على الهيكل، وسرى فرحٌ يتعذّر وصفه في قلوب مواطنيه، وغمرت نفوسَ ذويه، سعادةٌ، بلغت ذروتها عندما ركعوا أمام الهيكل لتناول جسد الربّ من يده، ثمّ عندما قبّلوا يديه المكرّستين. وفي مساء ذلك اليوم صرّح أمام الجميع: "لقد جعلني الربّ يسوع خادمه وممثّله، يا للحبّ!... يا للعظمة!... كلّ شيءٍ يدعوني إلى الاحتفال اليوميّ بالقدّاس احتفالاً قدسيًّا، وإلى فعْل الخير...".

ومنذئذٍ، قرّر أن يحتفل بالقدّاس، كلّ يومٍ، أبهى احتفالٍ وأكثره ورعًا، لكي يضمن مواصلة مسيرته صوبَ القداسة. ونادرًا ما أخلّ، من بعد، بهذا القرار، عندما كانت تحول دونه ظروفٌ قاهرةٌ. وقد ألِف الامتناع عن محادثة أيّ إنسانٍ، قبل إقامته القدّاس، لكي لا يحيد فكره، ولا قيد شعرةٍ، عن سموّ الفعل المقدّس الذي كان يؤدّيه، ولكي لا يفقد ذرّةً من تركيزه عليه. وآنَ خروجِه من الكنيسة، عقب القدّاس كان يتجلّى على محيّاه جلالٌ رائعٌ يتعانق فيه الوقار والمحبّة.

على الهيكل كان يتلفّظ بعبارات القدّاس، بتأنٍّ، ووضوحٍ، وإجلالٍ. وكانت والدته تدفع أخاه الأصغر إلى خدمة قدّاس أخيه الكاهن، فيتأثّر الصغير حتّى أعماقه. ولطالما شاهد، أثناء تكريسه القربان، وأثناء المناولة، التهاب محيّاه واحمراره، وخفقان صدره، واهتزاز جسده، واغْرِيراق عينيه بالدموع. وطالما استوضح الفتى أُمّه عن أسباب هذا الانفعال والدموع، فتجيب: "إنّ أخاك عليمٌ بالأسباب، فدعه يسكب الدموع، واعلم أنّ في عيلتنا قدّيسًا".

كان الأب "كُتُّلِنْغو" يدرك دوره المزدوج بصفته كاهنًا: الذهاب إلى الله باسم البشر، والذهاب إلى البشر باسم الله. وتأديةً لهذا الواجب استخدم مواهبه الفطريّة: اتّصالاً بالآخرين حافلاً بالمودّة، وعطفًا على الفقراء والمفجوعين. ورغبةً

لاهبةً في غوثهم ومواساهم، وأسلوبًا يتّسم ببساطةٍ فرِحةٍ ومحبّةٍ سمحاء. فكان مجرّد حضوره أو لقائه يشيع بلسمًا وقوّةً.

ثمّ إنّه، إثر خضوعه لاختبارٍ أجراه عددٌ من الكهنة القدامى، أُذِن له بسماع الاعترافات. وسُرَّ، بادئ الأمر، بهذه المهمّة الخلاصيّة الدقيقة والمرهقة، ووضع نفسه بخدمة التائبين، في كلّ لحظةٍ، بلا تحفّظٍ ولا تلكّؤٍ، حريصًا على كونه، في كرسيّ الاعتراف، مخلّصًا أكثر من كونه قاضيًا، مع أنّه ما برح، شديد الاستنكار لكلّ شرٍّ يُرتَكب، وكانت براءته الطفوليّة ما زالت غضّةً نديّةً. ولكم كان رائعًا ذلك الكاهن الشابّ النقيّ، مادًّا ذراعي الرحمة الإلهيّة للذين غاصوا في الآثام حتّى هاماتهم وكادوا يختنقون بها!

وكلّما استشعر أنّ حياءً بشريًّا يُمسك تائبين عن الظهور في كرسيّ الاعتراف، كان يمضي إلى منازلهم، خفيةً، ليلاً، كي يفيض عليهم نعمة الغفران، جاعلاً سرّ التوبة فعل محبّةٍ. ولكي يحرّر الجميع من الحياء البشريّ، كان يؤثر، هو نفسه، الركوع أمام كرسيّ اعتراف كاهنٍ آخر، عندما تكون الكنيسة مكتظّةً بالحاضرين. ولم يكن يتحرّج من التصريح على مسمع حشود المؤمنين: "أنا آتٍ من الاعتراف"، أو "أنا ماضٍ لأعترف".

بيد أنّ ممارسته لذلك السرّ الخلاصيّ لم يكن له، دائمًا، مصدرَ راحةٍ نفسيّةٍ، بل طالما سرّب إلى نفسه النفور، والاضطراب والرعدة، إذ كان يتخيّله سيفًا مسلّطًا فوق رأسه، مثبتًا قول القدّيس فرانسوا الساليزيّ: "إنّه لاستشهادٌ ليس فقط الاعتراف لله أمام البشر، بل أيضًا سماع اعتراف البشر أمام الله". ولكان عَزَف عن سماع الاعترافات عزوفًا كاملاً وقاطعًا، لو لم يشهده مرشده الروحيّ، ذات يومٍ، خارجًا من كرسيّ الاعتراف مرهقًا، رازحًا تحت وقرٍ باهظٍ. فأمسكه من ذراعه، ومن غير التلفّظ بكلمةٍ، أعاده إلى كرسيّ الاعتراف. وفي نوبةٍ أخرى، رآه المرشد يخرج مثقَلاً بالهمّ والحيرة، إذ كان، بعد إعماله الفكر طويلاً بالكفّارة التي عليه

فرضها على معترفٍ، فرض ما استقرّ عليه رأيه، وفي الحال اجتاحه الشكّ في صحّة ما فرضه. وقرأ المرشد على محيّاه سبب تجهّمه، وقال له بثقةٍ: "أوَتظنّ أنّ قدّيسَيْنا: "فيليـــپ دي نيري" و"فرانسوا الساليزيّ" لم يرتكبا قطّ أخطاء تقديرٍ؟". وكانت هذه العبارة كافيةً لتسكين روعه، وإقناعه بمواصلة مهمّة التعريف.

وقد حرص مرشده على تمرّسه بكلّ المهامّ الكهنوتيّة، وأوعز إليه أن يشرع بالوعظ في كنيسة رعيّته. وكان جوزيف كَلِفًا بهذه المهمّة منذ صباه. وأُعجب أبناء الرعيّة، أشدّ إعجابٍ بقداسة الواعظ، واستساغوا أسلوب وعظه، وتأثّروا بمحتواه. وسرعان ما أمست مواعظه مدار أحاديث الناس، وغدوا يتقاطرون لاستماعها، فجهد هو في جعلها أسهل فهمًا، وأوفر قدرةً على تحريك النفوس، وتمجيد الله، والدعوة إلى المحبّة. وبات كهنة الرعايا المجاورة يتنافسون على دعوته إلى الوعظ في رعاياهم في المناسبات الهامّة.

وأولى الأب كُتُّلِنْغو اهتمامًا خاصًّا بالتعليم الدينيّ، الذي مارسه بغيرةٍ وذكـــاءٍ. ومن جانبٍ آخر، ذاع صيت انفتاح قلبه ويديه على الفقراء الذين غدوا ينتظرون دخوله وخروجه من الكنيسة، كي ينالوا منه ما يسدّ عوزَهم. فكان يجود علـــيهم بكلّ ما يملك. ولكنّه انتهج نحو الأولاد أُسلوبًا آخر، فكان يمضي بهم إلى مخبـــزٍ، ويبتاع لهم خبزًا وحلوى، وبهذا الأُسلوب كان يشبع معـــدهم، ويحمـــيهم مـــن استعمال المال استعمالاً ضارًّا.

وإذا صادف مسنّين أو بائسين محتاجين، كان يرفع لهم قبّعته، احترامًا، ويستوضحهم عن أوجاعهم واحتياجاتهم، ويجهد في غوثهم بكلّ ما يستطيع إلى غوثهم سبيلاً، ويُسمِعهم عباراتٍ تبلسم قلوبهم، وكان كثيرون منهم يذرّفون الدموع تأثّرًا.

واتّفق، ذات يومٍ، كان واقفًا على شرفة البيت، وإلى جانبه شقيقه الأصغر، يتلذّذ بالتهام حبّات كستنةٍ ملأ بها جيوبه. ومرّ متسوّلٌ، وسأل الكاهن إحسانًا،

وبما أنّ الكاهن لم يكن يملك حينئذٍ ما يعطيه، فقد طلب من أخيه أن يقتسم مع الفقير شيئًا من مأكوله الشهيّ. وشقّت التضحية على الأخ الأصغر، فادّعى أنّه لم يبقَ معه شيءٌ من طعامه الأثير. وأدرك الكاهن أنّ أخاه الصغير يكذب، فتلمّس جيوبه فإذا بها ما زالت شبه مليئةٍ، فأمسك بذراعه، وشدّه إلى فناء الدار، إلى حيث كان المستعطي واقفًا، ودعاه إلى أخذ ما يطيب له من محتويات جيوب أخيه. وحيال خجل الفتى لم يجرؤ المستعطي على مدّ يده، وحاول تبرير سلوك الصبيّ المذنب، ولكنّ الكاهن أمره، حازمًا، بإفراغ جيوب أخيه، ثمّ حدّق في أخيه، وأنّبه قائلاً: "ألا تخجل من الكذب؟ ألا تعلم أنّك لم تكذب فقط على الفقير المسكين، بل إنّك كذبت، أيضًا، على من هو يمثّله، أي على يسوع المسيح ذاته؟". وأشار إلى أخيه أن يركع ويستغفر المتسوّل، الذي أُعجب أبلغ إعجابٍ بسلوك الأخوَين. وحينئذٍ استعاد الأب وداعته وحنانه، ووضع يده برقّةٍ على كتف أخيه، وأوصاه بأن يقابل البائسين، دائمًا بالعطف والرحمة.

وذاعت شهرة شغَف الكاهن الجديد المتميّز بعمل الخير، وبحبّه الشديد للنفوس. ورغب كهنة رعايا كثيرون في اتّخاذه معاونًا، ولكنّه أبى ألاّ يكون سوى أداةٍ طيّعةٍ بين يد الله، وألاّ يخدم إلاّ حيث يأمره رؤساؤه الروحيّون بالخدمة. وشاءت العناية الإلهيّة أن يخدم رعيّة "كورنيليانو" (Cornéliano) التي كان خادمها الأصيل يفيض تقوًى وورعًا. ولكنّ السنين ومواكبها من الأوهان والعِلل حالت دون قدرته على مواصلته أداء واجبات الخدمة مثلما كان يؤدّيها، ومثلما كان لا يزال يطمح في تأديتها. وحالما تبلّغ الأب كُتُّلِنْغو تعيينه، هبّ لمباشرة رسالته الجديدة، فبكى ذووه بعاده عنهم، وانسحبَت غمامةٌ من الكآبة على نفس مرشده الروحيّ، إلاّ أنّه شدّ عضده، وزوّده بتوصياته ونصائحه. ورحّب الكاهن المسنّ بمن جاءه معاونًا ونائبًا، ترحيب أبٍ بابنه، ولا سيّما أنّه كان مطّلعًا على قداسة سلوكه. وسرعان ما تبيّن أبناء الرعيّة التي جاءها خادمًا أنّه، حقًّا، رجل الله، وقدّيسٌ جديرٌ بأرفع تقديرٍ، وبأخلص حبٍّ.

فقد كان كَلِفًا بالخشوع والمطالعات التقويّة، ولم يكن يخرج إلاّ لأداء واجباته الراعويّة. وكان من لا يلقاه في مكتبه يجده راكعًا خاشعًا أمام مخبأ القربان مستغرقًا في الدعاء والتأمّل. وظلّ أبناء الرعيّة، قرونًا طويلةً، يُشيدون بفضائله، ويشبّهونه بالملاك.

وكان شديد التكريم للذبيحة الإلهيّة، وتوّاقًا إلى رؤية أكبر عددٍ من أبناء الرعيّة يشاركون بها، فظلّ يؤكّد لهم أنّها كفيلةٌ باستمطار البركات على أُسرهم، ويرسّخ في روعهم أنّ الوقت الذي يكرّسونه للقدّاس سيُضفي على أحوالهم المادّيّة خيرًا وازدهارًا. ولكي لا يؤخّرهم عن أعمالهم في الحقول شرع يحتفل بقدّاسٍ منذ الفجر، في أيّام الأسبوع، وبذلك استقدم إلى هذا القدّاس الباكر حضورًا ما انفكّ يتكثّف. وإلى جانب ذلك أولى اهتمامًا شديدًا بالتعليم الدينيّ الذي كان يَعُدّه العنصر الأساسيّ في تأسيس حياةٍ أخلاقيّةٍ سليمةٍ.

وأفلح في تسريب ترسيخ اليقين بعظمة شأن الإفخارستيّا في حياة المؤمنين، وشيئًا فشيئًا، تنامى عدد المقبلين إلى المائدة المقدّسة.

واعتمد أُسلوبًا في الوعظ بسيطًا، بمتناول جميع المستمعين، خاليًا إلاّ من تعليم الإنجيل، وعاكسًا ممارسةً وفيّةً لذلك التعليم، ونابعًا من إيمانه الراسخ، فأقرّ أبناء الرعيّة بتفرُّده في هذا المضمار.

ولم يكن ينتظر أن يُستدعى إلى فراش المرضى، بل كان حالما يتنامى إلى سمعه نبأ اعتلال أحدهم يهرع إليه، فيشدّ من عضده ويواسيه. وقد أُشيع أنّ مجرّد حضوره كان يُحدث تحسّنًا في حال المريض الصحّيّة، وأحيانًا شفاءً، وأنّ المرض كان يخافه ويفرّ منه، فقد كانت صلاته لهم تتفجّر من قلبه، أكثر ممّا تنطلق من شفتيه.

وكان يغدق الإحسان بلا حسابٍ، ولا يتردّد عن بيع ثيابه، أو إهدائها لمن لا يملك ما يعطيهم شيئًا آخر.

وحرص على النأي عن كلّ ما ليس من شأنه أو من واجبه، في أُمور الرعيّة. وعقد مع كاهن الرعيّة الشيخ أجمل العلاقات دفئًا، ومودّةً، وتوافقًا، وتوثّقت

بينهما أواصر تناغمٍ ومحبّةٍ، وسلامٍ، انعكست خيرًا على الرعيّة جمعاء، وفاضت عزاءً على نفس الراعي المسنّ، ودواءً لصحّته المنهارة.

ولكن لم يُكتب لهذا الفردوس أن يطول. فقد ارتأى كلٌّ من مرشده الروحيّ وأُستاذه الذي زوّده بعلم اللاهوت، اللذين واكبا مسيرته نحو الكهنوت أنّ دراسته الكهنوتيّة كانت غير منتظمةٍ، من جرّاء الظروف السياسيّة، فأوصياه بالحصول على دپلوم دكتورا في اللاهوت من جامعة تورينو، واستشفّ، هو، في نصحهما مشيئة الله. ولكنّ قراره هذا أشرع جرحًا في قلب الراعي الشيخ، وكان فاجعةً للرعيّة، التي توسّلت إليه ألاّ يغادرها، فردّ على أبنائها، مازحًا: "دعوني أمضِ، وإلاّ فستصبح أذناي أطول من أذني حمار". وغادرهم خلسةً، ليلاً، تفاديًا للفراق الموجع.

رحيله إلى تورينو أدمى قلب أُمّه التي كانت تؤثر بقاءه على مقربةٍ منها، وأحرج والده الذي كان ما زال عليه إعالة ثلاثة شبّانٍ آخرين وفتاتين، وليس له من الدخل أو المدّخرات ما يتيح له، فضلاً عن هذه النفقات، تمويل دراسة ابنه الكاهن في تورينو، حتّى حصوله على الدكتورا. غير أنّ العناية الإلهيّة بادرت إلى حلّ ذلك الإشكال، إذ تطوّعت قريبةٌ للأُسرة، مسنّةٌ، لتمويل كامل نفقات الكاهن الشابّ، الدراسيّة والشخصيّة، حتّى حصوله على الدكتورا.

وفي الجامعة كان ينتظره عزاءٌ منعشٌ، تمثّل في انتخاب أُستاذه السابق في "بْرا"، صديقه اللاهوتيّ الأب "فرّيرو" (Ferrero) نائبًا لعميد الجامعة، التي اجتاز فيها شأوًا رحبًا في ميدانَيِ الفضيلة والعلم.

في تورينو تميّز الأب كُتُّلِنْغو بالإكباب الدؤوب على التعلّم، وعلى الإبحار في خضمّ القداسة والتعبّد لأُمّ الله. فمنذ الفجر كان يدعو ثلّةً من أترابه لمرافقته إلى معبد سيّدة العزاء (La Consolata)، حيث يقدّمون ذواهم لها. وقد تفوّق في ميدان الزهد والتضحية.

ولطالما شهده رفاقه جاريًا، محمحمًا، منتفضًا بعنفٍ، وتبيّن لهم أنّ سبب هــذا السلوك كون غرفته أشبه ببيتٍ من جليدٍ، خاليةً من كلّ وسائل التدفئة. وكانــت والدته كلّما زارته متفقّدةً أحواله، تجدُ خزانة ثيابه خاويةً من كــلّ شــيءٍ، فــلا جوارب، ولا قمصان، ولا أدثرة، ولا ثيابًا داخليّةً، ولا شراشف، ولا أغطية، لأنّه تخلّى عن جميعها لفقراء لم يتوفّر له ما يغيثهم به سوى أمتعته الخاصّة. وكان هــذا الإسراف في التضحية يسرّب إلى نفس أُمّه القلق والرعدة. ومع أنّها، في كلّ زيارةٍ كانت تأتيه بمجموعةٍ جديدةٍ من احتياجاته الأساسيّة، تعويضًا عمّا تصدّق بــه، إلاّ أنّها كانت تدعوه إلى الاعتدال والحيطة، لأنّ مضيّه قدُمًا على هذا المنوال سيُفضي به إلى شيخوخةٍ حافلةٍ بالإملاق والتسوّل.

ولم يكن الأب كُتُّلِنْغو يستحيي من استجداء ما يغيث به المحتاجين. فإذا قُدّم له فنجان قهوةٍ أو كأس نبيذٍ، كان يعلن: "أنا أعرف فقيرًا قد ينعشه هذا الفنجان أو هذه الكأس، وإذا شهد امرأةً تحيك بمهارةٍ، يسألها: "عندما تنهين هذا العمل، هل يسعك حياكة شيءٍ يدفئ فقيرًا؟". وغالبًا ما كانت اقتراحاته تتحقّق، مُسعدةً المعطي والمتلقّي على السواء. وبالإجمال كان ذلك الكاهن، يملك فنًّا نادرًا في توجيه الأحاديث نحو الفقراء، لأنّه كان يدرك كم يُبعِد الحرمان البشر عن الله. وكان يتلقّى بيدٍ كي يغدق بالأخرى.

وذاع بين الناس أمر تضحياته ومساعيه من أجل الفقراء، فصار، كلّما مرّ في السوق، يُدعى من كلّ جانبٍ، فهذا يتبرّع له بسلّة فواكه. وهذا بسلّة خضارٍ، وآخر يعطيه علب أسماكٍ وسردين، وكلّ بائعٍ يحمّله شيئًا من بضاعته، فيعود بها ضاجًّا فرحًا، كي يطرد القنوط من نفوسٍ بائسةٍ، وكي يشبع بطونًا جائعةً، أو يدفئ أجسادًا ترتجف بردًا.

وإذا وجد لديه أحذيةً مزيّنةً بأقراطٍ فضّيّةٍ، كان يبيعها وينفق ثمنها على

المحتاجين، مكتفيًا بأحذيةٍ عتيقةٍ، بسيطةٍ، زهيدة الثمن. وإذا أهدته أُسرته ساعةً من ذهبٍ كان يسارع إلى بيعها، مكتفيًا بساعةٍ من حديدٍ، رخيصةٍ... ولم يتردّد، أحيانًا، عن بيع كتبه، من أجل غوث محتاجٍ.

ويومًا فيومًا، كان يتوغّل تمثّلاً بالفقير الصغير، القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ. ولم يستبقِ إلاّ ما يكرّم به الأُمّ السماويّة، محتفظًا بمصباحٍ فضّيٍّ مضاءٍ، دائمًا، أمام إيقونتها، وبزهورٍ نديّةٍ تقدّم لها أريجها الفوّاح، وبقفصٍ يحتوي كناريّين يغرّدان، بدلاً منه، بأناشيد تكريمها.

على هذا النحو أمضى الأب كُتُّلِنْغو سنوات دراسته في تورينو، مكتنـــزًا، كلّ يومٍ، كنوزًا من علمٍ وقداسةٍ. وأخيرًا عُيّن موعد دفاعه عن أطروحته، وحصوله على شهادة الدكتورا، يوم ١٨١٦/٣/١٤.

وحرصًا منه على تلقّي إكليله الأوّل من يد السيّدة العذراء، صرّح لصديقٍ، صبيحة ذلك اليوم: "أظنّ أنّني سأُعلَن، اليوم، دكتورًا. وإنّي حريصٌ على تلقّي هذه النعمة الجديدة من يد الأُمّ السماويّة. فتعالَ معي إلى معبد سيّدة العزاء، واخدم القدّاس الذي سأحتفل به هناك. وبعد صلاة الشكر سأقدّم لك وجبة إفطارٍ شهيّةً".

وفي الموعد المحدّد دخل الأب كُتُّلِنْغو قاعة الجامعة الكبرى الغاصّة بالحضور، ودافع عن أطروحاته، التي كان قد وزّع نسخًا منها على أعضاء اللجنة الفاحصة. وخضع لأسئلة اللجنة عن شتّى القضايا اللاهوتيّة والكهنوتيّة، داحضًا الاعتراضات، بعباراتٍ لاتينيّةٍ لا غبار عليها، وببلاغةٍ مدهشةٍ، وأحكامٍ سديدةٍ، مفجّرًا عاصفة تصفيقٍ مدوّيةً، وثناءً حارًّا من اللجنة الفاحصة.

بانتظار إشارة السماء

لم يصرفه نجاحه الباهر في تحصيل الدكتورا عن نهج القداسة الذي كان، هو، حلمه ومقصده. كانت القداسة تدعوه، وهو يحثّ الخطى صوبها، ولا ينشد إلاّ ما يوصله إليها، متقيّدًا بإشارات الروح القدس. وكان أساتذته، إثر حصوله على الدپلوم، قد نصحوه بمتابعة دروسه حتّى الحصول على أهليّة التعليم الجامعيّ. ولكن لم يكن التعليم الجامعيّ هو هدفه ومطمعه، وقد سكنه اليقين بأنّ ما حصّله من علمٍ هو كافٍ لقيامه برسالته الكهنوتيّة خير قيامٍ.

وكان أحد أعضاء اللجنة التي ناقشت أُطروحته، وأكثرهم إعجابًا بدفاع الأب كُتُّلِنْغو وبخصاله، عضوًا في جمعيّة "جسد الربّ" (Corpus Domini)، وهي جماعةٌ مؤلّفةٌ من ستّة كهنةٍ، برتبة "شنوان"، من مواليد تورينو، يعيشون جماعيًّا، غير مرتبطين بنذورٍ ولا بنظامٍ أساسيٍّ، ويتولّون تقديم الخدمات الروحيّة لكاتدرائيّة القربان المقدّس، ولرعيّتها، ولرعيّة الثالوث الأقدس في المدينة. وقد تمنّى ذلك الكاهن ضمّ الأب كُتُّلِنْغو إلى تلك الجمعيّة، للاستفادة من مواهبه وفضائله، ولكنّ عدد أعضاء الجمعيّة، المحدّد بستّةٍ، كان، حينذاك مكتملاً، فأرجأ تحقيق رغبته إلى أوّل سانحةٍ.

وعاد الأب كُتُّلِنْغو إلى مسقط رأسه، "بْرا"، حيث تولّى معاونة خادم الرعيّة في المهامّ الراعويّة، وفقًا للأسلوب الذي انتهجه، من قبل، في "كورنيليانو"، من دأبٍ على التعليم المسيحيّ، والوعظ النابع من إيمانٍ راسخٍ، وقلبٍ ملتهبٍ، والذي يدعمه مثالُ سلوكٍ ناصعٍ، والسعي الدائم إلى إغاثة المحتاجين، ومواساة المرضى ومواكبتهم، باذلاً نشاطًا راعويًّا واجتماعيًّا خصبًا، تخطّى حدود رعيّة "بْرا" إلى الرعايا المجاورة، حيث كان يلبّي دعوات رعاتها المتطلّعين إلى الاستفادة من علمه، ومن مثال قداسته.

وفي عام ١٨١٧ نشبت آفة الطاعون في منطقة "بْرا" وجوارها، فهبّ الأب كُتُّلِنْغو لمواجهتها، مُخَاطِرًا بصحّته وبحياته من أجل إنقاذ المصابين، فاخترع للمعالجة دواءً، سمّاه "خلّ اللصوص الأربعة"، وانكبّ على تزويد المحتضرين بالأسرار، وإعداد الموتى للدفن. وإذا نُصِح بتوخّي الحيطة والاعتدال، كان يجيب أنّه جنديٌّ، وبسالة الجنديّ تتجلّى في الحرب. وولّت آفة الطاعون، ولم تمسّه بشرٌّ، وذاعت أنباء بطولته، وعُرض عليه ملء شغور إدارة مستشفى تورينو الكبير. ولكن، مع أنّه كان، منذ صباه، كلِفًا بخدمة المرضى، ويحلم بإنشاء مستشفياتٍ، رفض العرض، رفضًا يصعب تفسيره بشريًّا، إلاّ بحرصه على ألاّ يقوم إلاّ بالعمل الذي تدعوه إليه العناية الإلهيّة.

واتّفق، أيضًا، في تلك الآونة، أنّ أُسقفًا أطلق مسابقةً لاختيار خادم رعيّةٍ، فتقدّم لها الأب كُتُّلِنْغو وكاهنٌ آخر. وقُبَيْل بدء المسابقة رجا كُتُّلِنْغو منافسه أن يبري له ريشته، ولما استعادها منه، شكره قائلاً: "أسأل الله أن تكون خدمة هذه الرعيّة من نصيبك". كان جادًّا في تمنّيه، واستجاب الربّ لدعائه.

ويومًا فيومًا، كان يتجلّى أنّ الله لا يريد حصر قدّيسه في نطاقٍ ضيّقٍ، وأنّه كان يُعدّه لإنجازاتٍ أوسع وأشمل، تشيد بعظمة رحمته ومحبّته. ومكث الأب كُتُّلِنْغو في "بْرا"، مترقّبًا إشارة السماء.

وعام ١٨١٨ ظهرت الإشارة الأولى إلى ما يدعوه إليه الله، عندما عُيّن أحد أعضاء جمعيّة "جسد الربّ"، خارج تورينو، وشغر مكان عضويّته. وأيقظ هذا الشغور، أُمْنيّة اللاهوتيّ الذي كان عضوًا في اللجنة التي منحت الأب كُتُّلِنْغو دكتورا في اللاهوت، بضمّ ذلك الكاهن إلى جمعيّة "جسد الربّ" رغبةً في الاستفادة من علمه، وفضائله، ونباهته، فخاطب، مجدّدًا، زملاءه قائلاً: "لا ريب أنّ عندنا كهنةً متميّزين بورعهم، وعلمهم، وغيرهم. ومع ذلك أنا موقنٌ أنّ الأب كُتُّلِنْغو سيكون لجمعيّتنا الحجر الكريم والجوهرة. فالفضائل التي أظهرها في ممارسة

كهنوته، واندفاعه إلى العمل، وفوق كلّ ذلك تواضعه الجمّ، كلّ تلك المزايا تسمح لي بالتأكيد أنّكم إذا نجحتم في ضمّه إلى جماعتكم فسيكون ذلك هديّةً حقيقيّةً، ومأدبةً فاخرةً يمنّ بها الربّ عليكم، وأرجوكم ألاّ تبالوا بعدم كونه من مواليد تورينو".

ونفذ خطاب ذلك اللاهوتيّ إلى قلوب زملائه وأذهانهم، فسارعوا إلى طلب موافقة مجلس تورينو البلديّ على ضمّ الأب كُتُّلِنْغو إلى جمعيّتهم، للاستفادة من مواهبه وخصاله الفريدة النادرة.

واستشار الأب مرشده في "بْرا"، فنصحه، والغصّة تخنقه، بالانضمام إلى جمعيّة "جسد الرب" مدفوعًا بحدسه أنّ تورينو هي الساحة المثلى لإبراز مواهب كُتُّلِنْغو وفضائله، فالمدينة الكبيرة تتيح له، أكثر من القرى، الاطّلاع على أسرار البشر، وخفايا قلوبهم، وعلى هواجس الجماعات الأوسع شمولاً وتنوّعًا من الأوضاع الاجتماعيّة، وعلى عللها واحتياجاتها، وتفسح له ساحةً رحبةً لتحقيق أهداف كهنوته الطموح، ولا سيّما أنّ طيف القدّيس ڤنسان دي پول كان يحاصره، بلا هوادةٍ، ويسائله: "ألا تستطيع فعل ما فعله القدّيس ڤنسان؟!".

وفي ١٨١٨/١٠/٣١، رُقِّي الأب إلى رتبة شانوان، وعُدّ العضو السادس في جمعيّة "جسد الربّ"، ووضع قدميه في الحقل الذي سيحصد فيه أروع الغلال وأوفرها. وكان عليه، خلال أيّام إقامته الأولى، في محيطه الجديد، تحمّل وابل المدائح التي كالها عليه رفاقه الجدُد. وقد سأله أحدهم هل راودته، إثر حصوله على الدكتورا، فكرة الاستقرار في مدينة تورينو، والإعداد لمستقبلٍ زاهرٍ، فأكّد له أنّ هذه الفكرة لم تراوده حتّى في أحلامه، لأنّه لم يكن يحلم إلاّ بزراعة الملفوف في قريته، أُسوةً بأفراد أُسرته".

وتأكيدًا لصدق تواضعه، أخذ على عاتقه، منذ اليوم الأوّل، تولّي كلّ المهامّ الشاقّة والوضيعة في الجمعيّة التي ينفر منها الآخرون، وحتّى المهامّ الكهنوتيّة التي لا

يتّسع لزملائه الوقت للاضطلاع بها. وأوعز إلى خدّام كنيسة الجمعيّة أن يدعوه لتلبية طلب أيّ مؤمنٍ، لا يكون زملاؤه قادرين على القيام بها، بسبب أيّ عائقٍ. أمّا المهامّ التي كانت موكلةً إليه فكان يضطلع بها بغيرةٍ، واندفاعٍ، وفرحٍ، ومحبّةٍ، كما يليق بكاهنٍ قدّيسٍ.

كان قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر، وتمرّس بالخدمة الكنسيّة، ولكنّ الإطار تبدّل، من قريةٍ بسيطةٍ إلى مدينةٍ كبرى، أكثر امتلاءً بأصناف البؤس. ومظاهر الإبهار. وكان عليه التعامل مع كليهما، غير أنّ البؤس كان أشدّ اجتذابًا لاهتمامه، وكان غوث الفقراء هو همّه الطاغي والمقيم.

وكان منذ انضمامه إلى جمعيّة "جسد الربّ"، قد اصطنع كيسًا من جلدٍ، يملأه، كلّ صباحٍ، خبزًا وخضارًا وفاكهةً ويطوف يوزّعها على بيوت الفقراء. وكان يتزوّد بقطعِ نقدٍ، يودعها في أيدي المتسوّلين.

وكان أخوه الراهب يزوره، بين فينةٍ وفينةٍ، ويستغرب توقّفه المتكرّر في الطريق أمام كلّ سائلٍ، متسائلاً عن عطائه كلّ سائلٍ بلا تمييزٍ، فيجيبه: "المتسوّل هو يسوع المسيح". وجميع الفقراء يمثّلون لنا المخلّص، فعلينا ألاّ نميّز بينهم. وحسبنا أنّنا نعطي مخلّصنا!".

وكان من البدَهيّ أن يُفضي هذا السخاء إلى جفاف موارده السريع، وإلى تحويله متسوّلاً يستعطي الميسورين من أجل مواصلة غوث المحتاجين. وقد امتلك براعةً في فتح الخزائن والجيوب والقلوب، في هذا السبيل. وكان، أحيانًا، يطلب عونًا بمثابة قرضٍ أو دَينٍ، وعندما يحين أوان السداد يأتي للاعتذار عن عجزه في الوفاء، مؤكّدًا حاجته الحارقة إلى المزيد من المال لغوث حالات بؤسٍ موجعةٍ، فكان كثيرون من الدائنين يسارعون إلى تزويده بمبالغ أُخرى. وغالبًا ما كان مجرّد حضوره إلى بيت أحدهم يدفع صاحب البيت إلى منحه مبلغًا وافيًا، أو حقيبة ثيابٍ، مُرفقَةً ببسمةٍ عريضةٍ.

وكان ضنينًا بكلّ فلسٍ يحصل عليه، ويستطيع به غوث محتاجٍ، فضحّى حتّى بأعذب وأقدس رغباته، وامتنع عن زيارة ذويه وأخويه الكاهنين، تفاديًا لإنفاق ما كان يعدّه مال الفقراء.

ولم يقتصر على تقديم مساعداتٍ مادّيّةٍ للمحتاجين، بل كان يزور العجزة منهم في بيوتهم، ويساعدهم على تدبّر أُمور معيشتهم اليوميّة، ويواسيهم، ويشدّ من عضدهم، ويُعدّهم لتقبّل الأسرار، ويبرع في استقدام ممرّضاتٍ متطوّعاتٍ لخدمتهم، ويحرّض الآخرين على مثل سلوكه حيالهم.

وتجلّى، حينذاك، مدى تجرّده، ومحبّته، وتكريمه للأُمّ السماويّة. فقد كانت غرفته خاويةً من كلّ وسائل الرفاه والتدفئة. ولكنّه كان دائم الحرص على تزيين تلك الغرفة النسكيّة بتمثالٍ جميلٍ للسيّدة العذراء، محاطًا بإناء زهورٍ دائمة النداوة، وبمصباحٍ فضّيٍّ دائم الاشتعال، وبقفصٍ يحتوي كناريّين يُنشدان، في كلّ ساعات النهار، مدائح أُمّ الله. وكان، كلّ صباحٍ، يذكّرهما بهذا الواجب، قائلاً: "إنّي أُطعمكما طيّباتٍ لقاء احتفالكما بتكريم أُمّنا وملكتنا. عندما أكون هنا، لا بأس إن صمتُّما، لأنّني أكون مشغولاً، ولكن في غيابي عليكما الاهتمام، منذ الصباح حتّى المساء، بالإنشاد للسيّدة العذراء، ملء حناجركما. فقد عيّنتُكما خادمَي هذا المعبد".

وكلّما اضطرّ إلى غياب بضعة أيّامٍ، كان يكلّف سيّدةً مسنّةً، يثق بها، بتجديد الزهور أمام تمثال العذراء، وبتجديد زيت المصباح المضاء قدّامه، وبإطعام الكناريّين لكي لا يتوقّفا عن إمتاع العذراء بأنغامهما، وبإشعال شموعٍ أمام لوحةٍ ترمز إلى القربان المقدّس، كلّ يوم خميسٍ.

وكان قد خُيِّل إليه، في مستهلّ عهد خدمته الكهنوتيّة في تورينو أنّ تنميق عظاته بالاستشهادات اللاتينيّة، وبأساليب البيان والبلاغة كفيلٌ باجتذاب مستمعي مدينةٍ كبرى، في زمنٍ حفل بأرباب البلاغة أمثال بوسّويه، وفرانسوا الساليزيّ ولاكوردير... غير أنّ هذا النمط من الوعظ لم يلِقْ بقدّيسٍ بسيطٍ متواضعٍ، مثله. ونصحه صديقٌ بالعزوف عن هذا الأُسلوب الذي لا يتناغم مع حقيقة ذاته، وبالعودة إلى أُسلوبه المألوف، البسيط، المتدفّق من قلبه، المنطلق من سجيّته، المعبّر عن نفسه الناصعة، الأُسلوب الذي كان كُتُّلِنْغو يؤثره على كلّ أُسلوبٍ آخر. ومنذئذٍ لقي وعظه إقبالاً كثيفًا. وأحدث تأثيرًا عميقًا، حتّى غدا يُدعى من عدّة رعايا أُخرى للوعظ فيها.

وفي كرسيّ الاعتراف، كان الفقراء هم الأقرب إلى قلبه، وكان يستمع إليهم باهتمامٍ، كي يتبيّن أسرار نفس الفقراء، والاطّلاع على همومهم وهواجسهم، ويزوّدهم بالسكينة النفسيّة، وبالغوث المادّيّ والروحيّ، ويحرّرهم من كلّ ما يبعدهم عن الله.

وذاعت عذوبة علاقته بالتائبين، وسداد نصائحه لهم، وكأنّها مفصّلةٌ على قياس كلٍّ منهم، فتقاطروا، بكثافةٍ، على كرسيّ اعترافه. وغدا، هو، يقف معظم ساعات قبل الظهر، من كلّ يومٍ، على سماع اعترافات التائبين، وكانت الكنيسة، في تلك الفترة من النهار تغصّ بعمّالٍ ومزارعين قادمين من القرى لبيع منتجاتهم في المدينة. وكان يؤكّد للجميع أنّ الحياة الروحيّة تحتاج إلى الغذاء المناسب، أي الإفخارستيّا.

كان يعترف أمام كاهنٍ من "نُسَّاك القدّيس أُوغسطينُس". وعقب وفاة هذا الأخير، اختار كاهنًا قدّيسًا يُدعى "فونتانا" (Fontana)، أضحى له المعرّف، والمرشد، والصديق. وتوثّقت بينهما أواصر زادت كليهما قداسةً، وتناغمًا، فأمسيا كأنّهما وَتَران في قيثارةٍ واحدةٍ.

ومع كلّ نشاطه الدائب، لم يكن يخبو له مرحٌ مُعدٍ، فكان على المائدة يشيع جوًّا

لطيفًا من الأنس والانشراح، وبأحاديثه الطريفة، ومبادرات محبّته، كان يجمع رفاقه على الأُلفة والتناغم. فإذا لمح أحدهم ساهمًا، متجهّمًا، رازحًا تحت وقر الهموم يظلّ عليه ممازحًا حتّى يزيل غمّته، وحتّى تفترّ شفتاه عن بسمةٍ. وبدماثة محبّته كان يبدّد خلافاتهم، ويحول دون صداماتٍ محتملةٍ. فأحبّه جميعهم، وانتظم بعضٌ منهم في صفوف الراكعين أمام كرسيّ اعترافه. وكان يتعمّد الحضور إلى العشاء متأخّرًا، بعد أن تكون أطباق الطعام قد رُفعت، فكان الرئيس يلومه، ويذكّره بالتزام المواعيد، فيدّعي أنّ مشاغل طارئةً قد أخّرته وأنّه هو غير جائعٍ، في حين كان يُخفي اعتزامه الصوم، والنوم على الطوى.

وحينئذٍ أخذت تتجلّى عليه كراماتٌ خاصّةٌ، مثل قراءة خفايا النفوس، وخبايا المستقبل، وغدا عددٌ من زملائه، ومن أبناء الرعايا يضمّون اسمه إلى لائحة قدّيسيهم المحبوبين، أمثال فيليپ دي نيري، وڤنسان دي پول...

كان الأب كُتُّلِنْغو، إذن، يسوق حياةً ملأى بالنشاط والرضى، ويلقى من رفاقه في الجمعيّة المحبّة والترحيب، ومن أبناء رعيّته الوفاء والتقدير. ومع ذلك كان يلازمه شعورٌ مُتعِبٌ بأنّه لم يستجلِ بعدُ دعوته الحقيقيّة، ولم يلبِّ الدعوة التي وجّهها إليه الله. واستقرّ في روعه شعورٌ بفراغٍ مبهمٍ. وهو الذي كان يسعد بتبديد غمّ الآخرين، واقتياد نفوسٍ على دروب الخلاص، فقَدَ طعم الرضى العميق الذي طالما صبا إليه، وأرهقه الشعور بأنّ البَوْن ما زال شاسعًا بينه وبين القمّة التي أودع عندها أحلامه، وناء تحت عبء الظنّ بأنّه مع كلّ ما بذله وما حقّقه، ما زال مقصّرًا دون تحقيق ما يطلبه الله منه. وكان يقرّ لأخيه الراهب وللمقرّبين منه: "يساورني إحساسٌ بأنّ الله يقتضي منّي أمرًا، ولكنّي لم أتبيّنه بعدُ". وكان يطلب من أخيه ومن أصدقائه أن يصلّوا من أجله كي يرشده الله إلى مبتغاه.

وتجاذبته نزعتان، إحداهما أوحت إليه الاستغراق في الزهد والتضحيات، وأُخرى زيّنت له وقف حياته كلّها على الصلاة والتأمّل في منسكٍ. وفاتح مرشده

بما كان يثقل نفسه، وبرغبته في الترهّب، ولكنّ مرشده نصحه بالتريّث، واعدًا إيّاه بصلاةٍ حارّةٍ يستطلع بها مشيئة الله، ويبلّغه إيّاها في غضون شهرٍ.

في هذه الأثناء غاضت بسمة الأب كُتُّلِنْغو، وتراخى اندفاعه، وبدا عليه الوجوم، والتحفّظ، والنزعة إلى الصمت، واتّضح للمحيطين به أنّ فكرةً خطيرةً كانت تراوده، وأنّ سحابةً من الكآبة كانت تنسحب على نفسه. فتنافس رفاقه في التسرية عنه، وأهداه رئيس الجمعيّة سيرة القدّيس ڤنسان دي پول، ونصحه بمطالعتها، على أن يروي لرفاقه ما يستوقفه منها.

وأحسّ الأب كُتُّلِنْغو بأنّ الله هو الذي يكلّمه ويبلّغه دعوته من خلال نصيحة رئيسه. ولم يلبث أن اتّضح له أنّ الربّ كان يرشده إلى انتهاج درب الثقة المطلقة بالعناية الإلهيّة، وإلى اقتفاء خطى "عملاق المحبّة" الفرنسيّ. ومع كلّ صفحةٍ كان يطالعها من سيرة ذلك القدّيس، كان السكون يغمر قلبه، ونور الله يضيء نفسه وذهنه، ويبدّد غيوم حيرته، ويطلق لسان شكره، ويعيد إليه بهجته واندفاعه. فقد استشفّ في شخصيّة ڤنسان دي پول تجسّد المحبّة، متعدّدة الوجوه، التي طالما ضجّت بها نفسه منذ صغره، وأدرك كم هو رائعٌ، وعظيمٌ، وخيّرٌ أن يكرّس الإنسان ذاته لخدمة إخوته البائسين، وأن يضحّي ذاته في سبيلهم. وتبيّن القدرات الهائلة التي تساعد الإنسان المتّكل على الله وحده، على مواجهة الآلام، والحرمان، والإهانات، والأمراض، والمِحَن، والموت، والتغلّب على جميعها، والمنجزات الرائعة التي يُتاح له تحقيقها تمجيدًا لله.

هذه الرؤية المتألّقة أشاعت في صدره العزاء والبهجة، وبدّدت غيوم نفسه، وأعادت إليه اندفاعه، ورغبته في العمل المنتج، والاعتماد الكلّيّ على العناية الإلهيّة. ومنذئذٍ اتّخذ موقف ترقُّبٍ يقظٍ لمشيئة الله وإيحاءاته، متأهّبًا في سبيل تلبيتها لركوب أعتى المخاطر والمشاقّ. وقد أمسى ڤنسان دي پول مدار أحاديثه، والقدوة التي وطّن العزم على اقتفائها، والتمثّل بها.

وما لبث أن دعته العناية الإلهيّة إلى المهامّ الموكلة إليه، فانبرى لتلبيتها.

الفَصْلُ الثَّانِي

على خطى القدّيس ڤنسان دي پول

« كونوا آلهةً حيال الفقراء، مقتدين برحمة الله.
ولتكمِلْ حرارة عطفكم ما نقص من جزالة عطائكم »

"القدّيس غريغوريُس النازينزيّ"

ومضــات

- « **كلّ ما تأبى منحه يتعفّن فيك** »

موريس بلوندِل

- « **ثمّـة حياةٌ واحـدةٌ هي التي تتجلّى في البطولة. وسرّ كـلّ عظمةٍ هـو القـدرة على تخطّي الذات** »

جورج برنانُس

- « **الإيمان المسيحيّ مغامرةٌ عقليّةٌ تبدأ بقفزةٍ هائلةٍ إلى اللانهائيّ** »

أندريه فروسّار

- « **لا حاجة إلى الرجاء من أجل المبادرة، ولا إلى النجاح من أجل المثابرة** »

غيّوم دورانج

الشرارة التي أضرَمت حَريقًا

يومُ الثاني من أيلول ١٨٢٧ أشعل الشرارة التي أضرمت حريقًا هائلاً، وحقّقت معجزة العناية الإلهيّة بواسطة خادمها البارّ الأب جوزيف كُتُّلِنْغو.

ففي ذلك اليوم، كانت امرأةٌ فرنسيّةٌ حاملٌ، متزوّجةٌ من شابٍّ إيطاليٍّ، قادمةً من مدينة ميلانو إلى مسقط رأسها في جوار مدينة ليون الفرنسيّة، حيث تعتزم وضع طفلها الرابع، يرافقها زوجها وأطفالها الثلاثة، الذين لم يكن كبيرُهم يتخطّى السابعة من سنواته. وبعد استراحةٍ قصيرةٍ في تورينو، وفيما كانت الأُسرة تتأهّب لاستئناف رحلتها، أُصيبت المرأة بسكتةٍ دماغيّةٍ ألقتها أرضًا، وألقت الذعر في روع زوجها، وفي قلوب أطفالها الذين أطلقوا صيحات خوفٍ وحزنٍ حادّةً، استقدمت جيرانًا تطوّعوا للغوث، ونقلوا المرأة إلى مستشفى القدّيس يوحنّا، أكبر مستشفيات تورينو. ولكنّ هذا المستشفى رفض استقبالها، لأنّها غريبةٌ، ولأنّها حاملٌ، وحوّلها إلى مستشفى التوليد الذي أبى، بدوره، قبولها، بسبب إصابتها بسكتةٍ دماغيّةٍ، والمستشفى غير مؤهّلٍ لمعالجتها، وهو لا يستقبل سوى حالات الولادة الطبيعيّة. وكان الرفض هو موقف العديد من المستشفيات والمصحّات، والمستوصفات، ولم يبقَ للمسعفين سوى اللجوء إلى مستودعٍ، ترمي فيه شرطة البلديّة السكارى والمرضى المقطوعين الملقّين على قارعة الطرقات. وهناك أُلقيت المرأة الغريبة، المدعوّة "جانّ ماري غونّيه" (Jeanne-Marie Gonnet)، على حضيضٍ عارٍ باردٍ. ولمّا يئس الزوج من أيّ غوثٍ قد ينقذ حياة زوجته، طلب استدعاء كاهنٍ يواكب لحظاتها الأخيرة. وكانت رعيّة الثالوث الأقدس هي الأقرب إلى المكان، وإذ برجلٍ يقتحمها مسرعًا، ملهوفًا، وفي فمه لهب نارٍ، راجيًا الكاهن مرافقته إلى مستودعٍ في شارعٍ مجاورٍ من أجل مساعدة امرأةٍ محتضرةٍ. وهبّ الأب

"جوزيف كُتُّلِنْغو"، ملبّيًا نداء الواجب. وفي المستودع المذكور وقعت عيناه على أشدّ مآسي البؤس إيجاعًا، حيث يعانق الفقر طيفَ المرض الذي لا يرحم، والموتَ المحتّم، وذُعرَ أطفالٍ ملتصقين بأُمٍّ تلفظ أنفاسها الأخيرة، في غربةٍ مظلمةٍ قاسيةٍ، وانهيار زوجٍ مفجوعٍ يتجرّع ذلّ النبذ والغربة، في مستودعٍ لحثالة المجتمع، ومرارةَ فقدان زوجةٍ شابّةٍ محبوبةٍ، وتيتّم أطفالٍ ما زالوا على عتبة الوجود.

واسى الأب المرأة المحتضرة، وأعدّها للرحلة الأخيرة، وزوّدها بالأسرار المقدّسة، وشدّ من عضد زوجها المفجوع الذي كان يمطر شتائمه على مدينةٍ تدّعي أنّها مسيحيّةٌ، وتزخر بالمؤسّسات الخيريّة، ومع ذلك عجزت عن توفير سرير مستشفًى، ولا حتّى سرير موتٍ كريمٍ لزوجته الشابّة المحبوبة. وكفكف الكاهن دموع الأطفال الذين أطاح الحزن بروعهم، ثمّ دعاهم وأباهم إلى العشاء استكمالاً للترويح عنهم.

قد يخبر كهنةٌ كثيرون حالاتٍ مماثلةً، ولكنّهم، شيئًا فشيئًا، يألفونها ويعتادون مشاهدة المآسي، فتتحطّم النصال على النصال، ويطرد المسمار الجديد المسمار العتيق. غير أنّ هذه المأساة أدمت قلب الأب كُتُّلِنْغو، وأحدثت فيه جرحًا لم يندمل قطّ، وأضحت كابوسًا يطارده بلا هوادةٍ، ووسواسًا يؤرّقه، ويقضّ مضجعه.

وشاهده المارّة عائدًا، مطأطئ الرأس، دامع العينين، متعب الخطى، رازحًا تحت وقر أسًى طاحنٍ. وعلى غرار كلّ إنسانٍ يرهقه الحزن، تمنّى الارتماء بين ذراعين حانيتين، فاندفع إلى الكنيسة، وركع أمام مخبأ القربان المقدّس. وطار به التوق إلى قلب الأُمّ السماويّة، التي خبرت النبذ، والرفض، وأُغلقت دونها جميع أبواب بيت لحم حيث تمنّت وضع وليدها الإلهيّ، فاضطرّت إلى وضعه في زريبةٍ، وإضجاعه في مذود بهائم.

وبعد لحظات خشوعٍ، وتلاوة المسبحة، أوعز الأب إلى خادم الكنيسة أن يقرع

الأجراس. وبما أنّ جميع طقوس اليوم كانت قد أُقيمت، وبما أنّ لكلّ قرع جرسٍ نغمةً خاصّةً، تشير إلى مناسبةٍ محدّدةٍ، سأل عن النغمة التي يريد الكاهن قرع جرسها، فأجابه: "اقرع ما يحلو لك".

وكان أوّل القادمين إلى الكنيسة إكليريكيٌّ أوعز إليه الكاهن أن ينزع الغطاء عن تمثال "سيّدة النعم"، وإشعال الشموع أمامه. ولمّا تجمّعت ثلّةٌ من المؤمنين دعاهم إلى مشاركته في إنشاد تراتيل لأُمّ الله، عن نيّةٍ لم يُفصح عنها، وكان، هو، في الواقع يلتمس أن ترشده العذراء، معزّية الحزانى، وشافية المرضى، إلى وسيلةٍ تمنع تكرار المأساة التي كان شاهدًا عليها، في ذلك اليوم.

وما إن صمت المنشدون حتّى هبّ الأب مشرقًا، مشعًّا، محرّرًا من الغمّ، وانطلق يردّد: "لقد حلّت النعمة، المجد للعذراء مريم القدّيسة". نورٌ ساطعٌ أضاء نفسه، ورسم له طريق دعوته.

وفي ذلك المساء روى الأب كُتُّلِنْغو، بلهجةٍ ناريّةٍ، وهو ينبض تأثّرًا، أحداث ذلك اليوم المفجعة، وشدّد على رفاقه واجب إعداد بضعة أسرّةٍ لاستقبال الغرباء المارّين بالمدينة، الذين قد يقعون في علّةٍ، أو يرتطمون بأزمةٍ، وختم بقوله: "أعلم أنّ مدينة تورينو مشهورةٌ بحضارتها وغناها، وأنّ الشعور الدينيّ مترسّخٌ في قلوب سكّانها، وأنّ محبّتهم المسيحيّة قد أسهمت في إشادة العديد من المؤسّسات الرائعة. ولكن ألا يحسن توسيع مجرى نهر الغوث كي يشمل جميع البائسين، وإعداد ملجأٍ لهم، لكي لا يُنبذ أو يُرفَض أيّ مُعدَمٍ أو مريضٍ طالب مأوًى؟ وألا يمكننا إعداد بضع غرفٍ من أجل القادمين من مدنٍ أخرى أو من بلدانٍ مجاورةٍ، وتقطّعت بهم السبُل، على ألاّ يخضع هذا الإيواء لأيّة أنظمةٍ تحظر استقبال أيٍّ منهم؟ ولكَمْ سيبارك الربّ رعيّتنا وأشخاصنا، إذا فعلنا ذلك!". وأجمع أعضاء جمعيّة "جسد الربّ" على الترحيب بهذا الاقتراح، وصفّقوا له، على أن يكون الأب هو المسؤول الوحيد عن تنفيذه وتمويله.

ولم يخطر ببال أعضاء الجمعيّة، حينذاك، أنّهم في اندفاعهم إلى تأييد مشروع الأب كُتُّلِنْغو، قد انخرطوا، على غير قصدٍ، في مغامرةٍ لم يحسبوا لها حسابًا، ستقضّ، أحيانًا، مضاجعهم، وتقطّر من جباههم عرقًا باردًا، وتخيفهم حتّى على مستقبل جمعيّتهم، إلاّ أنها، في نهاية المطاف، ستكافئهم بإنجازاتٍ منقطعة النظير، ستُذهلهم هم أنفسهم.

وقضى الأب كُتُّلِنْغو ليلته تلك ساهرًا، شاكرًا الأُمّ السماويّة التي أنارت دربه، وغرست في قلبه غيرةً رسوليّةً، لا يلجمها حسابٌ، ولا يحدّها تحفّظٌ، وستثمر معجزاتٍ.

مشَاريع جريئةٌ تموّلها العنَايَة الإلهيّة

قضى الأب، إذن، ليلته شبهَ ثمِلٍ، تطوف في مخيّلته مشاريع جريئةٌ، وتتراقص فيها أحلامٌ متألّقةٌ توفّر للمشرّدين أَسقفًا تظلّلهم، وللمعوزين مقوّمات عيشٍ وكرامةٍ، وللمرضى وللمهملين علاجًا وعنايةً. وتخيّل أرتال النفوس الخيّرة التي ستنضمّ إلى مشاريعه، وكواكب مبادرات المحبّة التي ستفرّخها مشاريعه، والتي ستنحني على كلّ بؤسٍ، وتملأ كلّ نقصٍ، والروافد التي ستتفرّع عن النهر الذي سيطلقه، والحرائق التي ستوري نيرانها شرارة أحلامه، التي ما زالت ضئيلةً نائسةً.

في الصباح أدّى مهامّه في الجمعيّة وفي الرعيّة، بورعٍ مقدّسٍ، ومضى يبحث، باندفاعٍ حارقٍ، عن مكانٍ يطلق منه مشروع الرسالة التي أُوكلت إليه، ويحقّق الحلم المتلألئ الذي أفعم نفسه اندفاعًا، وعزيمةً فولاذيّةً.

وكان أوّل ما أوصله إليه بحثه غرفًا شاغرةً في فندقٍ، فاستأجرها في الحال. ولكن ما إن تنامى إلى علم سكّان البناء الغرض من استئجارها، أي تحويلها إلى ما يشبه مستوصفًا يؤوي شتّى أنواع العلل الكفيلة بنقل عدواها إليهم، حتّى ثارت ثائرتهم. فقاوموا بشراسةٍ تنفيذ ذلك المشروع، وأكرهوا المالك على فسخ عقده مع الكاهن.

خيبة الأمل هذه لم تثبّط عزيمة الأب، الذي ادّعى أنّ ذلك المكان لم يكن هو الأنسب، ولم يكن يلبّي كلّ مقتضياته، فقرّر نصب خيمته في مكانٍ آخر. واستأنف البحث حتّى اهتدى إلى ضالّته في بيتٍ يواجه كنيسة "جسد الربّ"، يدعى "القنطرة الحمراء"، لأنّ قوس مدخل البناء كان مطليًّا باللون الأحمر. ولكنّ ذلك البيت لم يلبِّ كلّ تطلّعات الأب. فقد كان يحتوي غرفتين فقط تتّسعان لأربعة أسرّةٍ. ومع ذلك، أوصى على أربعة أسرّةٍ خشبيّةٍ، جاءه بها معاونه الأمين

"رولاندو"، عندما جهزت؛ ودأب الأب يشتري كلّ بيتٍ مجاورٍ يرتضي صاحبه بيعه، حتّى أصبح له تسع غرفٍ تتّسع لخمسةٍ وثلاثين سريرًا.

والمدهش في الأمر أنّ الأب كُتُّلِنْغو، الذي لم يكن يملك فلسًا، لم يتردّد لحظةً في شراء بيتٍ يجده مناسبًا لخدمة الفقراء، غير مبالٍ بالمال الذي يتعيّن عليه دفعه، والذي كانت توفّره العناية الإلهيّة في حينه، بطرقٍ تستبهم على الأذهان التي لا تتقن إلاّ الحساب. وربّما عدّ حكماءُ العالم، جنونًا صرفًا، إقدام الأب على بناء مشاريع، بلا مالٍ متوفّرٍ، وعلى البناء بلا موادّ جاهزةٍ، وعلى معالجة مرضى بلا طبيبٍ ولا دواءٍ متيسّرين، وعلى مهامّ جسامٍ، تضاف إلى مشاقّ يوميّةٍ مرهقةٍ، لا تتيح سانحةً لالتقاط الأنفاس. ولكنّ الجنون أثبت، في نهاية المطاف، أنّه حكمةٌ فائقةٌ، تتخطّى مفاهيم البشر.

إنّ القوّة التي كان ينبض بها ذلك القلب الكهنوتيّ، ذلك الرسول النشيط، كانت تزوّده، فضلاً عن ثقةٍ راسخةٍ، وصلابةٍ لا يمكن الشكّ بأنّها منحةٌ سماويّةٌ فائقةٌ، بطاقةٍ تعجز أوفر الموارد المادّيّة عن تزويده بها، ولكأنّه كان تأكيدًا حيًّا لوصيّة يسوع لتلاميذه: "لا تهتمّوا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإنّ هذا كلّه يطلبه الفرّيسيّون دائبين. وإنّ أباكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى ذلك كلّه. فاطلبوا، أوّلاً، ملكوت الله وبرّه، وكلّ هذا يُزاد لكم. فلا تهتمّوا، إذن، للغد، فالغد يهتمّ لنفسه، وحسب كلّ يومٍ همّه".

وسأل يسوع، يومًا، تلاميذه: "لمّا أرسلتكم بلا كيسٍ، ولا مزودٍ، ولا أحذيةٍ، هل أعوزكم شيءٌ؟ قالوا: لا!".

هذه الوصايا الإلهيّة كانت للأب كُتُّلِنْغو نبراسًا وخريطة طريقٍ. وعليها أقام مشاريعه وفضائله، ولها ظلّ وفيًّا، حتّى في غمرة المقاومة، والاعتراضات، والمعاكسات، والمخاطر. وواكبت المعجزات مخاطراته، وأنقذته دائمًا. كانت تتلكّأ، أحيانًا، إمعانًا في امتحانه، فكانت تنصبّ عليه الملامة والشماتة، حتّى من أقرب المقرّبين، وتهديدات الدائنين وشتائمهم. ولكنّ العناية الإلهيّة لم تُحجم، يومًا، عن

إنقاذه، لأنّ ثقته المطلقة بها لم تَهِنْ أبدًا. ولطالما حَمَلته هذه الثقة على تصرّفاتٍ، تستهجنها الفطنة البشريّة. فقد جاءته راهبةٌ، ذات مساء، وبيدها دريهماتٌ، شاكيةً بأنّ هذه الفلوس هي كلّ ما تبقّى لها من أجل ابتياعٍ لوازم عيش الغد. فما كان منه إلاّ أن أخذ تلك الدريهمات، ورمى بها من النافذة. وفي صباح الغد، باكرًا، قُرِع باب الدير، وجاء من قدّم مبلغًا مجزيًا وانصرف. فاستدعى الأب الراهبة، وأعطاها إيّاه قائلاً: "هذه هي فائدة المال الذي أعطيناه لله مساء أمس".

ما كاد الأب يفرغ من تأثيث الغرف التسع، حتّى امتلأت بالمرضى. ولمّا اطّلع أبناء رعيّته على ما كان يقوم به حتّى هبّوا لتزويده بما قد يساعده على تحقيق رغبته، من أثاثٍ قديمٍ، وأغطيةٍ صوفيّةٍ وقطنيّةٍ، وألبسةٍ. تقادم تدفّقت بسخاءٍ وفرحٍ.

ويوم عيد القدّيس أنطونيوس، الواقع في ١٨٢٨/١/١٧، تعزّى قلب الأب باستقبال النزيلة الأولى، في مأواه. وقد وصف الأب هذه المريضة الأولى بأنّها حجر أساس مركزه، مؤكّدًا أنّها قدّسته بتحمّلها آلامها بصبرٍ وتسليمٍ تامٍّ للمشيئة الإلهيّة. فقد كانت مشلولةً شللاً كلّيًّا، وعاجزةً عن الحركة، وتحتاج، في كلّ لحظةٍ، إلى مساعدةٍ.

وتوالى تقاطر المرضى والمريضات حتّى بلغ المأوى أقصى قدرته على الاستيعاب وامتلأت، بالكامل، الغرف التسع، والأسرّة الخمسة والثلاثون.

بعد عشر سنواتٍ، إذ كان الأب ومساعده الوفيّ، بطل المهامّ الشاقّة، "رولاندو" يتفقّدان مشافي *البيت الصغير* المترامي الأطراف، سأل الكاهن مساعده: "هل تذكر، يا رولاندو، الأسرّة الأربعة التي جئت بها إلى "القنطرة الحمراء"؟ وهل خطر، حينذاك، ببالك، أنّ تلك الأسرّة ستليها مئات الأسرّة وتملأ هذا المجمّع حيث يتدافع الناس اليوم؟ هذه هي العناية الإلهيّة التي يجب الاعتماد عليها".

وبقدر ما كان المشروع ينمو، كانت الهبات والتبرّعات تزداد انهمارًا وتدفّقًا، ويتنامى تقاطر متطوّعين للخدمة، ويطفح قلب الأب رضًى. وتتألّق، في مخيّلته، أحلام مستقبلٍ زاخرٍ بالخدمات.

في الصباح الباكر، كان يقيم القدّاس مع جميع الممرّضين والمتطوّعين، ويقدّمون المرضى لله، ثمّ ينصرف كلٌّ إلى مهمّته. ويطوف الأب بالمستشفى برفقة الطبيب، ويتوقّف أمام كلّ سريرٍ، محادثًا، مواسيًا المرضى، مزوّدًا إيّاهم بما يقوى عليه من غوثٍ، ومبلسمًا نفوسهم برقّته، وإرشاداته الروحيّة، ويدوّن الأدوية التي يطلبها الأطبّاء، ويتعهّد "رولاندو" بجلبها من الصيدليّ المتطوّع.

ثمّ، إثر إكمال خدماته لرعيّته، وزيارة مرضاها وفقرائها، يقصد السوق ويبتاع الطعام لنـــزلاء مأواه. وقد لوحظ حرصه على انتقاء أفضل المأكولات لهم. واتّفق أن نصحه أصدقاؤه بالاقتصاد والتقتير، والاكتفاء بما هو مقبولٌ، وإن لم يرقَ إلى مستوى النخب الممتاز، فكان يجيبهم: "لا يجوز التقتير بطعام الفقراء، فكلّ مالِنا يخصّهم؛ هم سادتنا، ونحن بأكملنا لهم".

ثمّ كان يقصد المطبخ ويساعد سيّدات المحبّة المتطوّعات في إعداد وجبة الإفطار لنـــزلائه، مقطّعًا شرائح خبزٍ كبيرةً، ومالئًا أكواب الحليب. وبعد توزيع الطعام كان يناشد المرضى: "والآن، يا أبنائي، فلنصلِّ للسيّدة العذراء"، فتشرع الأصابع بكرّ حبّات المسابح. ثمّ كان يعود ظهرًا فيبارك الغداء، ويضيف إليه، كلّما استطاع، حلوياتٍ. وكذلك كان يفعل وقت العشاء الذي يُتبعه بتلاوة المسبحة الجماعيّة.

وكم كان ذلك الجوّ متباينًا عن جوّ المشافي، حيث يدفع المريض ثمن علاجه عزلةً روحيّةً، وصرامة نظامٍ!

وغالبًا ما وجَدَتْه سيّدات المحبّة، عاكفًا على كنس المستشفى، وغسل أرضيّته. وإذا حاولنَ تولّي الأمر عنه، كان يجيبهنّ، مازحًا: "أيّتها الحمقاوات الصغيرات، دعنَني أقمْ، أنا أيضًا، بعمل خيرٍ!".

واستمرّ الأب يزوّد نزلاء مستشفاه بكلّ مقوّمات العيش الكريم، وفي سبيلهم كان يتحدّى كلّ التقاليد السائدة. فذات يومٍ، إذ كان واقفًا في الشارع، مرتديًا زيّه الكهنوتيّ، منتظرًا رسميّين قادمين لحضور احتفالٍ دينيٍّ، لمح صواني إجّاصٍ

مشويٍّ تخرج من مخبزٍ قريبٍ، وجال بخاطره كم سيتمتّع مرضاه بهذه الحلوى، فهرع إلى المخبز، وابتاعها كلّها، ساهيًا عن كونه في الزيّ الكنسيّ، وأوصى بإرسال تلك الحلوى إلى مشفاه.

ولّما بلغ المأوى ذروة استيعابه، خطر للأب أن يستبدل اسم "مأوى" باسم "مستشفى"، فسمّاه، أوّلاً، "مستشفى القنطرة الحمراء الصغير"، ولكن شقّ عليه أن يُقصى أيّ نزيلٍ قسرًا، وحرص على أن يحتفظ مشروعه بطابعه الإنسانيّ المختلف عن آليّة المستشفيات العامّة الجافّة. وكان قد ناقش الأمر مع أخيه الراهب، الذي استوضحه:

- "هل تنوي، حقًّا، تأسيس مستشفًى؟ وهل لديك القدرة على ذلك؟
- "هل نسيتَ أنّ مستشفى القدّيس يوحنّا، الكبير، في تورينو بدأ بسريرين تحت قبّة الجرس؟
- "أتعتزم، إذن، إقامة مستشفًى؟
- "لستُ أنا مَن يدّعي القدرة والعزيمة على إقامة مستشفًى. ولكن من يعرف ما هي مشيئة العناية الإلهيّة؟"

وفي الواقع حقّقت العناية الإلهيّة، بواسطة الكاهن الذي وثق بها ثقةً بلا حدودٍ، ما لم يكن بوسع أحدٍ مجرّد تخيّله.

بيد أنّ النموّ المدهش الذي أحرزه "مستشفى القنطرة الحمراء الصغير"، وأفعم قلب الأب رضًى وشكرًا لله، أثار تحفّظ من كانوا الأجدر بمقاسمة الأب فرحه، وبدعم أحلامه. فزملاؤه في الجمعيّة، الذين كانوا قد ارتضوا إقامة ملجأٍ رعويٍّ صغيرٍ، يوفّر مأوًى مؤقّتًا لواقعين في أزمةٍ من أبناء الرعيّة، أو من الغرباء، عابري السبيل، ريثما تتوفّر لهم إقامةٌ في مستشفًى رسميٍّ، أو ملجأٍ ثابتٍ، هالهم اندفاع الأب كُتُّلِنْغو، الذي لا يقيم حسابًا لأيّ منطقٍ أو حيطةٍ. وتوجّسوا خشيةً من أن

تجرّهم الأحلام المجنونة التي تراود زميلهم اللاواقعيّ إلى مغامراتٍ كفيلةٍ بالإطاحة بجمعيّتهم. فالبوْن شاسعٌ بين مأوًى تابعٍ للرعيّة، تسهل السيطرة عليه، ومستشفًى مشرعٍ لكلّ الأسقام البشريّة، يتخطّى حدود الرعيّة، وطاقاتها، ولا سيّما أن لا ضابط حذرٍ يلجم اندفاع "كُتُّلِنْغو"، أو يردعه عن استداناتٍ جسيمةٍ، لا تستند على أيّ موردٍ ماليٍّ مؤكّدٍ.

كان المستشفى الصغير بركةً للمرضى المعوزين، وكان لمؤسّسه ساحة تمرّسٍ مطّردٍ بالمحبّة والتفاني والتواضع. فهو لم يتباهَ، يومًا، بكونه المؤسّس، والمدير.

واستمرّ يتفقّد، يوميًّا، أحوال كلّ مريضٍ، ويحدّثه عن روعة سِيَر القدّيسين، مفجّرًا الضحكات بنكاته البريئة، مدلّلاً مرضاه بالحلوى والفواكه. مقدّما لهم أشدّ الخدمات مشقّةً، ووضاعةً، عاكفًا على ذلك، كلّ ساعات النهار. وهو كان للمؤسّسة المدبّر الماليّ، ومورّد اللوازم، والمرشد الروحيّ، والممرّض، وخادم الفقراء، مثيرًا تقدير مشاهديه وذهولهم.

بيد أنّ ما كان يتمتّع به الأب كُتُّلِنْغو من شهرةٍ ومحبّةٍ، وما كانت تحقّقه مشاريعه من خيرٍ ونموٍّ، أثار حفيظة إبليس وزبانيّته، وسعّر غيظ وهواجس رفاقه في الجمعيّة، فأمسوا يتحاشون عن التحدّث إليه. غير أنّ رئيس الجمعيّة كان أشدّ صراحةً، وخروجًا عن صمته وتحفّظه، وغدا يسترسل في لومه بقسوةٍ، ودعوته إلى التعقّل، والاعتدال، والتواضع، وممّا قاله له: "إنّك تؤدّي، يا أخي، أعمالاً رائعةً، ولكنّك لم تتعلّم وفاء ديونك في مواعيد استحقاقها. وتخلّفك هذا يجعلني في وضعٍ لا أحتمله، فأنا لا أُطيق أن أظلّ محاصَرًا بدائنيك".

وكان الأب يُصغي إلى لوم رئيسه بسكونٍ، ويواجهه بطرفةٍ تبدّد توتّر الجوّ السائد، وغالبًا ما كان يُقفل السجال بقولٍ غدا لازمةً يردّدها: "ستتولّى العناية الإلهيّة إصلاح كلّ كسرٍ. فلا تقلقوا!".

واستنجد رئيس الجمعيّة بأخوَي الأب الكاهنين، وبشقيقته تيريزا لعلّهم يُفلحون حيث فشل هو. فزاره، أوّلاً، أخوه الراهب الدومينيكيّ، ألبيرتو، فوجده يتلو المسبحة بسكونٍ،

وطافا معًا بغرف المستشفى الصغير. ثمّ بلّغه الراهب حدّة غضب رئيسه، فأجابه: "يحزنني أن أكون سبب إقلاقٍ لرئيسي. وأنا موقنٌ أنّه لم يقلْ ما قاله، إلاّ لظنّه بأنّ واجبه يفرض عليه ذلك، وإنّي أسأل الله ألاّ أكون له ولك حجر عثرةٍ. والآن سأصلّي لهذه الغاية. وفي هذه الأثناء أرجوك أن تعود إلى صومعتك، وأن تخلد إلى نومٍ مطمئنٍّ".

أمّا أخوه الآخر، فكاد يتقيّأ اشمئزازًا، وهو يشهد حشراتٍ تسرح على أكمام أخيه الأكبر، لأنّه كان يستقبل للتوّ مرضى جاء بهم رولاندو، ولم يُغسلوا بعد، فانتقل قملهم إلى رأسه، وسرت حشراتهم على ثيابه. وحينئذٍ ناشده أخوه الشنوان لويس أن يعزف عن هذه الأعمال القذرة، والاكتفاء بكونه كاهن رعيّةٍ نظيفًا، مكرَّمًا، متطلّعًا إلى سيرةٍ أشدّ نظافةً، ومستقبلٍ أكثر إشراقًا، ونفعًا مادّيًّا. فأجابه: "حتّى لو أثقلوني بالذهب، فلن أتخلّى، أبدًا، عن هذه المجموعة من المرضى والفقراء التي أنعم الله بها عليّ". لقد أذهلت إخوتَه جسامةُ المغامرة التي كان أخوهم الأكبر يخوض غمارها، ولمّا سألوه عن طريقة تأمين المبالغ الطائلة التي تستلزمها نفقات علاج عشرات المرضى ومعيشتهم، أجابهم بهدوءٍ: "المال يأتي تلقائيًّا، بلا دعوةٍ". وروى لهم أمثلةً عن احتياجاتٍ ملحّةٍ وخانقةٍ تقتضي مالاً وفيرًا، أكرهته على الاستدانة، ثمّ سُدِّدت الديون، من حيث لم يحتسب، ولم يعلم".

وبالإجمال، استقبل الأب جوزيف إخوته بكياسةٍ، وأصغى إلى ملامتهم، وانتقاداتهم، وتحذيراتهم بتواضعٍ مشوبٍ بشيءٍ من السخريّة، وحاول أن يبثّهم شيئًا من عدوى إيمانه، وثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة.

وبعد أن باءت بالفشل جميع محاولات ثنيه عن مشاريعه لجأ زملاؤه إلى معرّفه البارّ، الأب "فونتانا"، الذي كان أوثق الناس اطّلاعًا على دخيلة نفس الأب جوزيف، وربّما الأبلغ تأثيرًا عليه. ولكنّ ذلك الكاهن الصادق والجريء، أجاب الكهنة الذين أتوه شاكين مغامرات الأب كُتُّلِنْغو، ومخاطرها: "هل تؤمنون أم لا أنّ كلّ شيءٍ ممكنٌ للإيمان؟ وأنا أُؤكّد لكم أنّ الأب جوزيف يمتلك، بمفرده، من الإيمان، أكثر ممّا في تورينو جمعاء. إذن، إذا كان هو لا يخاف، فعلينا، نحن أيضًا، ألاّ نخاف".

وحينئذٍ، شَهَر أعوان الشرّير سلاح الافتراء، وأبلغوا أُسقفه أنّه استخدم تقادم الرعيّة من أجل مشاريعه. وأمر الأُسقف بتحقيقٍ أثبت نزاهة الأب من كلّ ما نُسِب إليه كذبًا وافتئاتًا. ومع أنّه شقّ على الأب أن يصدّق الأُسقفُ الفرية الحَقيرة، وأن يضع استقامة الكاهن موضعَ شبهةٍ، إلاّ أنّه صفح عن مختلقي التهمة، حتّى قبل أن يُثبت التحقيق زيفها وبطلانها.

وكان قد سبق للأُسقف أن أخذ عليه استغراقه في الاستدانة، واستهانته في سدادها في موعد استحقاقها. وبيّن له الأب أنّ السجلّ الوحيد في *البيت الصغير* هو سجلّ الديون، وأنّه تحقّق، من مراجعة هذا السجلّ، أنّ ما من دينٍ تأخّر سداده أكثر من ثلاثة أشهرٍ، وهذه مهلةٌ شائعةٌ ومقبولةٌ في التعامل التجاريّ. وأنّ *البيت الصغير* هو من العملاء الذين يتبارى الدائنون على الاستئثار به، بسبب ضخامة مشترياته، وانتظام دفع ديونه في آجالها المحدّدة. وهل يسوغ لأحدٍ أن يشكو من كونه دائنًا للعناية الإلهيّة؟ بل أليس هذا مبعث فخرٍ لكلّ دائنٍ؟

وحدهم الذين لا يثقون بملاءة العناية الإلهيّة وبقدراتها، كانت ترتعد فرائصهم قلقًا على مصير ديونهم. أمّا الذين وثقوا بها، بلا تحفّظٍ، فقد شهدوا معجزاتها بذهولٍ. وخير مثالٍ لهؤلاء، البنّاء "كوپاسّو"، الذي لم يقتصر على تنفيذ معظم أعمال بناء *البيت الصغير*، مرتضيًا استيفاء أجوره ونفقاته، عندما تتوفّر للأب الأموال، ومع ذلك كان يسلّف الأب، من ماله الخاصّ كلّ ما كان يحتاج إليه من أجل شراء عقاراتٍ جديدةٍ، أو من أجل إسكات دائنين ملحاحين، حتّى غدت كلّ مدّخرات حياته، البالغة سبعين ألف ليرٍ ذهبيٍّ في ذمّة الأب. ومع ذلك، لم يقلق، ولم يخسر من ماله فلسًا.

ولجأ الشرّير وأعوانه، في نهاية المطاف، إلى العنف الجسديّ. فذات يومٍ، إذ كان الأب قادمًا إلى كرسيّ اعترافه، هبّ شابٌّ كان مختبئًا بالقرب منه، وأمسك بخناقه، وكاد يخمد أنفاسه، لو لم يتّفق مرور رولاندو، ملاك الأب الحارس، فانقضّ على المعتدي، ولكان قضى عليه لو لم يأمره الأب بإفلاته، وتركه يلوذ بالفرار. وكان

ذلك الشابّ الأحمق يبتغي الانتقام من الأب، لأنّه كان يهوى فتاةً، تركته، وانضمّت إلى خدمة مستشفى الأب كُتُّلِنْغو.

وفي نوبةٍ أُخرى، كان الأب ينحدر سلّم بيت إنسانٍ فقيرٍ جاءه متفقّدًا أحواله، فأمسكه من الخلف مجرمٌ مختبئٌ، وأوسعه لكمًا وشتائم، وإهاناتٍ، فالتفت إليه الأب، وسأله برقّةٍ، عن سبب هذا العنف، وهذا الغضب. وحيال هذه الوداعة غير المألوفة ارتمى المعتدي على قدميه، مستغفرًا، ومقرًّا: "يبدو أنّني أخطأت الهدف. فقد كنت أقصد الشنوان "كُتُّلِنْغو". ولم يخشَ الشنوان الاعترافَ بأنّه هو حقًّا المقصود. ولكنّه أكّد أنّه لا يستحقّ هذا الاعتداء، وهدّأ روح المعتدي، الذي انصرف بهدوءٍ.

هذه الاعتداءات العابرة والمتكرّرة، كان الأب يتوقّعها، ويتخطّاها سريعًا. ولكنّ ما أحزنه هو انقلاب فئةٍ من أصدقائه والمحسنين عليه، أدّى إلى تضاؤل مبالغ المساعدات، وإلى انكماش أيدي المورّدين الذين انتابهم القلق، وألّحوا في مطالبته بسداد ديونهم، في الحال، معربين عن خشيتهم من عجزه عن الوفاء، وضياع الأموال التي أسعفوا مشاريعه بها. ولكنّه، بكلّ هدوءٍ، كان يصارحهم أن ليس لديه ما يدفعه لهم فورًا. ولكن عليهم نبذ كلّ خوفٍ، لأنّه واثقٌ بأنّ مصرفه لن يخذله، ولن يعلن إفلاسه. وكان يردّد: "لم أَستدِنْ من أجلي، بل من أجل أعمال الله، ولم أَنشد مصلحتي، بل مصلحته. ويستحيل ألاّ ينجدني الله، أو أن يرفع يده الأبويّة عنّي، وعن فقرائه". ولكنّ المصرفيّ الإلهيّ، لم يكن يحظى بثقة الجميع، ولم يكن جميع الدائنين يعتبرون الله مالاً سائلاً.

غير أنّ الأب كُتُّلِنْغو، مع كلّ هذه الحملات الخبيثة، المندّدة به، والمناوئة، ورغم الافتراءات، والاعتداءات، ورغم شماتة رفاقه به، وتنكّر المحسنين له، وانقلاب بعضهم عليه، لم تفتُرْ، ولو قيد شعرةٍ، ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، وظلّ يسبح في نشوة الخير الذي حقّقه مأواه، في فترةٍ وجيزةٍ. ولم يكفّ خياله يطير به إلى مستقبلٍ متلألئٍ، زاخرٍ بأعمال محبّةٍ كُبرى، تعزّي قلب المخلّص، مستقبلٍ يكاد يراه رؤية العين.

ولم يتخلَّ، لحظةً عن المرح، رفيقه الملازم، الذي كان ينشره حيثما حلّ. ومن أطرف ما يمكن سرده في هذا المجال، أنّه اعتاد مجالسة رجلٍ أعمى، في المأوى، والتحدّث إليه. وذات يومٍ، سأله الرجل:

- "من أنت، يا من يزورني باطّرادٍ، ويمتعني بأعذب حديثٍ عن الله؟
- "أنا إسكافيٌّ، أُقيم في "ساحة الأعشاب"، وأقضي نهاري طارقًا النعل، وعاملاً بالإبرة، كي أكسب لقمة عيشي.
- هذا غير ممكنٍ. فإذا كان إسكافيٌّ يتقن القول مثلك، فكيف عساه يتحدّث رئيس هذه الدار الذي يُقال إنّه قدّيسٌ؟".

وبعد أيّامٍ، عاد الأب إلى الرجل الكفيف، وحدّثه عن واجب الاعتراف. فقال الكفيف:

- "أريد أن أعترف. ولكنّني لن أعترف إلاّ لرئيس هذا المأوى.
- "أنا هو الرئيس!
- كلاّ! لن أعترف لإسكافيٍّ يعمل في ساحة الأعشاب، حتّى إذا كان يجيد الحديث مثلك. أنا لن أعترف إلاّ للرئيس".

وكان لا بدّ من الاستعانة بالعديد من مرضى المأوى، ومن العاملين فيه، من أجل إقناع الكفيف بأنّ محدّثه هو، حقًّا، رئيس المأوى. وحينئذٍ قال:

- "الآن أُدرك لماذا كان إسكافيّ ساحة الأعشاب يجيد الحديث عن الله".

لا ملامة، إذن، ثبّطت عزيمة الأب كُتُلِنْغو، ولا مقاومة قيّدت اندفاع غيرته الرسوليّة، وما انفكّت رعاية الفقراء، وإرادة إنعاش نفوسهم، خمرةً تسكره، وظلّ حدْسه يلوّح له بمشروع محبّةٍ جسيمٍ يُثلج قلب المخلّص. وشرعت العناية الإلهيّة تعبّد له الطريق بتؤدةٍ وصمتٍ، وكتمانٍ. وهو، بإلهامٍ منها، بدا يعدّ لذلك المشروع عدّته، بدءًا بجهدٍ بشريٍّ متكاملٍ، يوفّر كلّ مستلزمات إدارة مشروعٍ طبّيٍّ وروحيٍّ فريدٍ.

أصدقَاء ومعَاونون ومتطوّعون ومتطوّعَاتٌ

منذ شروعه بتأسيس "مستشفى القنطرة الحمراء الصغير" أُحيط الأب "كُتُّلِنْغو" بثلّةٍ رائعةٍ ومتفانيةٍ، من أصدقاء ومعاونين، ومتطوّعين ومحسنين. وما انفكّت روافد عناصر جديدةٍ تنضمّ إلى جماعتهم، مع كرّ السنين، وتنامي مشاريع المؤسّس القدّيس.

أوّلهم كان الخبّاز "رولاندو"، مفتول العضلات، ودائم التأهّب لأعتى المشاقّ، والذي تطوّع لخدمة الأب، منذ اللحظة الأولى، بلا تحفّظٍ، وفي كلّ ساعةٍ من الليل والنهار. وكان الأب عليمًا بكلَف رولاندو بالنبيذ، وكان، كلّما، كلّفه بمهمّةٍ شاقّةٍ، يعِده بزجاجة نبيذٍ يرتشفاها معًا. وعندما يعود رولاندو منهكًا، جافّ اللسان، يتبيّن أنّ النبيذ الذي يحمل ماركة "كُتُّلِنْغو" ليس، في مفهوم الأب، سوى بركاتٍ وصلواتٍ يغدقها عليه، وليست لرولاندو سوى سواقي عرقٍ تقطّرها كلّ مسامّ جسمه. وكان عزاؤه الوحيد أنّ نبيذ الأب لا يُسكر، ولا يذهب بالعقل، وكان أحيانًا، يتنهّد، مازحًا، باسمًا: "يحدّثني الأب، دائمًا عن نبيذٍ فاخرٍ، ولكنّني لم أذقْ طعمه قطّ". ومع ذلك، لم يحجم ولم يتلكّأ، يومًا، عن مواصلة خدماته، بمزيدٍ من الفرح والاندفاع، وكان مستعدًّا، دائمًا، لخوض غمار المخاطر، واقتحام النار، دفاعًا عن الأب، وخدمةً له. كان رفيقه الدائم، وحامل مصباحه ليلاً، أثناء بحثهما عن مرضى مجهولين مهملين، محتاجين إلى من يسهر على خدمتهم. وكان يرافق الأخوات والممرّضات، كلّما اضطررنَ إلى تلبية نداءات إسعافٍ ليليّةٍ، موفّرًا لهنّ العون والأمان.

وبما أنّ الأب لم يكن يملك خزنةً يودع فيها ما يأتيه من تبرّعاتٍ ومساعداتٍ، فقد وضع رولاندو بتصرّفه خزانة مخبزه، فكان يودع فيها ما يرده ريثما ينفقه أو

يسدّد به ديونه. وقد لحظ أحدهم، بدهشةٍ، أنّ رولاندو لا يقفل الخزانة أبدًا، ولا يعرف ما فيها، فنصحه بإغلاقها، منعًا للسرقة، ولكنّه لم يستجب لتلك النصيحة لأنّ تلك كانت رغبة الأب، ولأنّ جميع مَن يرتادون مخبزه يصلّون، ويعترفون، ويتناولون، ولا يسرقون.

منذ تحويل المأوى إلى مستشفًى اتّضحت للأب الحاجة إلى جسمٍ طبّيٍّ متكاملٍ، وإلى هيئة خدماتٍ شاملةٍ، من أجل أداء ما يطمح إليه قلبه الكبير، في شتّى مجالات العناية الطبّيّة، الأداء المثاليّ. كان يحتاج، أوّلاً، إلى طبيبٍ، يكون، في آنٍ واحدٍ، جرّاحًا ماهرًا، وطبيب صحّةٍ متمرّسًا، قارنًا هذه الكفاءات بسخاء النفس، والرغبة في تقديم كلّ الخدمات الطبّيّة مجّانًا. وقدّمت له العناية الإلهيّة الإنسان الكفيل بتحقيق هذه المقتضيات كلّها، في شخص الدكتور "غرانيتّي" (Granetti)، الذي منذ استقراره في تورينو أَولى الفقراء أرقّ عنايةٍ. وعندما قرع باب الكاهن كي يقدّم خدماته، سمع الأب كُتُّلِنْغو يقول له: "ادخل إلى هذه الحديقة، واقتطف زهور المحبّة". وأدرك الطبيب مقصد الكاهن الذي كان يسمّي الفقراء "إخوتنا المحبوبين". وقد صرّح لاحقًا، أنّ الأب قد "سلب قلبه". وهو منذ لقائهما الأوّل، ومنذ استماعه إلى مشاريع الأب وأحلامه، قدّم ذاته له وللفقراء، متأهّبًا لتنفيذ كلّ ما يُطلَب منه بطيبة خاطرٍ. فقد جمعهما هوًى واحدٌ: خدمة الله في إخوته المتألّمين والمحتاجين، ببساطةٍ وسخاءٍ. ثمّ اجتذب الدكتور "غرانيتّي" إلى ملجأ القنطرة الحمراء ستّة أطبّاء وجرّاحين، وشيئًا فشيئًا، ارتقى عددهم إلى ثلاثين. وكان ذلك الطبيب الشهم قد كرّس حياته حتّى مماته لخدمة مشافي الأب مجّانًا. ومع تراكم أعبائه لم يحجم عن إعطاء دروسٍ في الطبّ والصيدلة والتمريض لرعيلٍ من الأخوات "الـڤنسانيّات" أو "المنصوريّات"، (والاسمان ينتسبان الى القديس ڤنسان دي پول المعروف عندنا بالقدّيس منصور)، اللائي أهّلهنّ للقيام بكلّ هذه المهمّات، وأعدّهنّ لنيل شهاداتٍ جامعيّةٍ، في هذه المضامير.

ومنذ لقائهما الأوّل واكب الطبيب صديقه الكاهن مواكبة ظلّه له، ولم يفترقا حتّى حظي الطبيب بإطباق جفنَي صديقه القدّيس.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأب "كُتُّلِنْغو" كان يدعو الجرّاحين، قبل الإقدام على إجراء عمليّةٍ، إلى حضور القدّاس، مؤكّدًا أنّ الطبّ، مع جدواه والحاجة إليه، يرتقي ويُبدع عندما يقترن ويستنير بعون يسوع، الطبيب الأقدر.

وإلى جانب الطبيب "غرانيتّي" وضعت العناية الإلهيّة في خدمة مشاريع الأب "كُتُّلِنْغو" رجل إيمانٍ واستقامةٍ، وصديقًا وفيًّا، صيدليّ البلاط، "پـاولو أنكليزيو" الذي أكّد للأب: "لن ينقصك أيّ دواءٍ. فأنا أريد الإسهام في عملك الخيريّ. ولكنّ لي شرطًا: ألاّ تخبر أحدًا بأنّني أهبك الأدوية مجّانًا". وعُقدت بهذا الشأن، معاهدة شرفٍ، التزم بها كلٌّ من الكاهن والصيدليّ حتّى الممات. وجديرٌ بالتنويه أنّ نجل الصيدليّ المذكور نال سرّ الكهنوت، وانتمى إلى جمعيّة "كُتُّلِنْغو"، وأصبح خليفته الأوّل في رئاستها.

وكانت الصيدليّة هاجسًا دائمًا للأب، فكان يتوجّس خشية الأخطاء، أو النقص في الأدوية. فوضع في صيدليّة مشفاه الصغير تمثالاً للسيّدة العذراء، كي تسهر على الأخوات الصيدلانيّات، وتقيهنّ من الخطأ، وتيسّر عملهنّ الذي كان، هو، يواكبه بصلواته.

وجاءه أخوه الراهب، يومًا، بمحامٍ لامعٍ، يدعى "بيونــــدرا" (Biondra)، كـــان ضحيّة وساوس تحاصره، بلا هوادةٍ، وتكاد تودي به إلى الجنون، وأصبح من أكثر أصدقائه التصاقًا به. لقاؤهما الأوّل كان طريفًا. فقد تركه الأب ينتظره طويلاً، مع أخيه الراهب قبل أن يقابله، ثمّ وضع يده على رأسه، وبادره بالسؤال:

« – هل تعرف قيادة عربةٍ يجرّها حصانٌ؟

– قليلاً.

– حسنٌ، إذن، أسرج الحصان واربطه بالعربة، واقتدني إلى هدفي! ».

كانت العربة مهلهلةً، والحصان كان مثقلاً بسنوات الجهد، ومتعثّر المشية. وكاد الخجل يُخمد أنفاس المحامي، وهو يقود هذه العربة المزرية، وازداد خجله، بعد أن أوصل الأب، وقبع في الطريق ينتظره، مدى أكثر من ساعتَيْن، وهو محطّ أنظارٍ مستهجنةٍ، مستهزئةٍ بالعربة وبسائقها. ولّما عادا، طلب الكاهن من المحامي أن يبقى إلى جانبه، واقتضى منه التناول اليوميّ، من غير حاجةٍ إلى اعترافٍ، تبديدًا لوساوسه. وكلّفه بالعزف على الأُرغن، أثناء القدّاس، مع أنّه لم يكن له بالعزف معرفةٌ ولا خبرةٌ. وكان المحامي ينفّذ رغبات الكاهن الغريبة، مستهجنًا، ولكن مطمئنًّا لكونه بين يدَيْ قدّيسٍ.

وانتابت المحامي رغبةٌ في اعتناق الكهنوت، ولكـــن ســـرعان مـــا حاصـــرته الوساوس، وكانت تتكثّف كلّما دنا من اتّخاذ القرار، وحينئذٍ كان يهـــبّ الأب مندّدًا، مهدّدًا، وآمرًا إيّاه بطرد الهواجس، وباتّخاذ الخطوة الحاسمة، ومؤكّدًا له أنّه سيمارس كهنوته على امتداد أربعين سنةً. وأخيرًا سِيمَ المحامي كاهنًا، بعـــد وفـــاة الأب كُتُّلِنْغو، وصرّح: "من كلّ المعجزات التي جرت على يد هـــذا القـــدّيس، كبراها هي ما أحدثه فيّ".

وحوّل الأب رجلاً آخر، رفيع الثقافة والمركز السياسيّ، هو المحامي "كوســـتا"

(Costa)، الذي شنّ على الأب، في بدء عمله، حربًا ضروسًا، وقاوم مشاريعه بشراسةٍ وعنادٍ، وتذوّق متعةً كبرى، عندما نفّذ أمر إغلاق مستشفى القنطرة الحمراء. ثم راقبه عن كثبٍ، وفهمه، وقدّره، وأُعجبَ به وبعمله، واتّخذه صديقًا، وأبًا روحيًّا، وأغدق على مشاريعه المساعدات، وانتهى بهجر وظيفته، وأنهى حياته في بيت العناية الإلهيّة الصغير.

وفي لائحة أصدقاء الأب ومعاونيه الأوفياء والمتفانين، لا يمكن إغفال معلّم البناء "كوپاسّو" (Copasso)، المتدفّق عزيمةً وسخاءً، والذي، مع براعته في فنّه ومهنته، كان ينفّذ، بتواضعٍ، إرشادات الكاهن، وغالبًا ما كانا يعملان معًا، يدًا بيدٍ، من أجل تلبية الاحتياجات الملحّة، وكان كلّ ما يفعلانه يستقيم على أروع نسقٍ، مثيرًا دهشة العمّال وبهجتهم، فكانوا ينشدون: "من كلّ الأغاني الإيطاليّة لا يعرف الشنوان نغمةً واحدةً، ولكنّه يجيد كلّ ما يعمله. وأرباب المهنة الذين يأمروننا يسعدون بإطاعته".

وكان الأب يدفع لكوپاسّو أجور عمله بالتقسيط، وغالبًا ما كان يتلكّأ. وإذا ضاقت به ذات اليد لا يتحرّج من الاستدانة منه، كما أسلفنا القول. وقد طمأنه ذات يومٍ، قائلاً: "يسمّيك الناس "كوپاسّو كُتُّلِنْغو" لأنّنا نذلان نعمل معًا. صحيحٌ أنّنا، اليوم، نواجه مصاعب، ولكن لا تخشَ شيئًا، فديونك ستُسدّد بالكامل، والآتون من بعدنا سيرقدون على حريرٍ".

وتضامنت مع الأب مؤسّساتٌ خيريّةٌ عديدةٌ. وزوّده الفارس "فرّيرو" (Ferrero) بدعمٍ سخيٍّ. فبقدر ما كان عدد المرضى يتنامى كان ذلك الفارس الشهم يفتح لمشاريع الأب قلبه وخزائنه. ولّما شعر بدنوّ أجله، أوصى لمؤسّسات كُتُّلِنْغو، بكامل ثروته التي كانت تربو على ما يعادل مئة ألف فرنكٍ، فضلاً عن أثاثٍ فاخرٍ، وكمّياتٍ وفيرةٍ من الألبسة، والأغطية.

واستلفتت ضخامةُ هذا الميراث أنظار الحكومة وآذاها، فطلبت من الأب التصريح عن مشاريعه وحساباته، واستدعاه وزير الداخليّة لهذا الغرض، واستوضحه:

« – ما هي وسائل عيش مستشفاك ومشاريعك؟

– العناية الإلهيّة هي التي تعيلنا!

– وكيف تعيلكم؟ من حقّ الملك أن يعرف ذلك.

– العناية الإلهيّة هي التي تفعل كلّ شيءٍ. فالدولة لم تُعنَ بنا، ولا أحد أزعج نفسه من أجلنا، قطّ. »

وقد أغدق محسنون كثُرٌ عطاياهم بسخاءٍ، دعمًا لمشاريع "كُتُّلِنْغو"، وظلّت أسماؤهم مُغفلةً، وكان الأب يردّد: "الله يعرفهم وهذا يكفيهم".

وإلى جانب المحسنين والأصدقاء، كان العديد من الكهنة يقصدون الأب "كُتُّلِنْغو"، نشدانًا لنقاهةٍ روحيّةٍ تشدّد عزائمهم، وتدعم إيمانهم. وكان رئيس أساقفة تورينو ينحني أمام ذلك الكاهن القدّيس، ولا يعارضه في أمرٍ، حتّى إنّه صرّح: "إذا طلب منّي الأب رسم إكليريكيّين لا أعرفهم، كهنةً، فسأفعل بناءً على طلبه، فقط".

وقد زار، يومًا، الكردينال "لاڤيچري" (Lavigerie)، بيت العناية الإلهيّة الصغير"، وكان الكردينال، حينذاك، رازحًا تحت عبء متاعب ماليّةٍ، وذُهل حيال ما أنجز كاهنٌ لا يملك فلسًا. ومنذئذٍ غالبًا ما باح: "إنّ مجرّد إعمالي الفكر في *البيت الصغير* ينعش نفسي، في غمرة همومي".

وحتّى رفاقه في جمعيّة "جسد الربّ" الذين استبحروا في مقاومته، في مستهلّ انطلاقة مشاريعه، باتوا يفخرون بانتمائه إليهم. ولّما حالت جسامة أعماله، وسعة آفاقها دون قدرته على أداء مهامّه في تلك الجمعيّة، طلب استقالته منها، فرُفض طلبه بالإجماع، وكُلِّف آخرون بأداء مهامّه في الرعيّة وداخل الجمعيّة.

وجاءت المبادرة الأفصح تعبيرًا عن تقدير هجه من قبل رئيس الجمعيّة، الذي طالما ارتعدت فرائصه خوفًا من عواقب جرأة الأب "كُتُّلِنْغو". ولكنّه لمّا تبيّن يد الله في كلّ أعماله، انقلب إلى أشدّ مؤيّديه اندفاعًا وإشادةً. وعندما استشعر دنوّ أجله، أوصى له بكلّ ماله، البالغ ثلاثين ألف ليرٍ. وبهذا المبلغ أشاد الأب جناحًا جديدًا إلى مجمّعه الطبّيّ. ولمّا أُحيط الحبر الأعظم علمًا بذلك هتف: "هذه هي، حقًّا، العناية الإلهيّة!".

وفي غروب حياة الأب "كُتُّلِنْغو" انضمّ إلى لائحة أبرز أصدقائه ومساعديه الوزير الشهير "كافــور" (Cavour)، موحّد إيطاليا، الذي هيمنت الشؤون الاجتماعيّة على اهتمامه، وهو صاحب القول الشهير: "لولا شعوري بأنّ كلّ قضايا الوطن ثاويةٌ بين يديّ، لاخترت الانصراف إلى شؤون عمّال الحقول والمصانع، إذ لا حرّيّة بمعزلٍ عن العدالة الاجتماعيّة". وكان الكونت كافور يتابع، بإعجابٍ، أعمال الأب "كُتُّلِنْغو" من أجل المحرومين والمهمّشين. ولمّا تنامى إلى علمه، عام ١٨٣٨، أنّ الأب مكبٌّ على بناء مستشفًى كبيرٍ، في تورينو، هتف: "يا له من رجلٍ! فلأمضِ لأراه!". وكان معروفًا عن الوزير أنّه نادرًا ما يغادر روما. فقدم إلى تورينو وزار بيت العناية الإلهيّة، فدُهشَ، وقبل مغادرته وعد الأب بإرسال كمّيّةٍ وفيرةٍ من النبيذ، من أجل الاحتفال بعيد القدّيس ڤنسان دي پول. وأدخلت هذه التقدمة الحبور إلى قلب الأب، الذي كان يعتزم إمتاع نزلاء مستشفاه بيومٍ مبهجٍ، احتفالاً بذكرى شفيعه القدّيس. وكانت سيّدةٌ كريمةٌ قد اعتادت أن تقدّم، بهذه المناسبة وجبة طعامٍ لذيذٍ، وترفقها بفرقةٍ موسيقيّةٍ تشيع أكبر قدرٍ من البهجة. وعشيّة ذلك العيد، تفقّد الأب المعبد، المزيّن أبهى زينةٍ، ولكنّه فوجئ بافتقاره إلى شموعٍ، فركع أمام إيقونة السيّدة العذراء ملتمسًا منها لفتةً أموميّةً. وما هي إلاّ بضع ساعاتٍ حتّى دخلت باحة "البيت" شاحنةٌ ملأى بالشموع، يقودها ضبّاط جمارك، كانوا قد صادروها، لأنّ تجّارًا حاولوا إدخالها تهريبًا، وأمر الوزير كافور بإرسالها إلى "بيت العناية الإلهيّة".

وكان الملك "شارل ألبير" أوثق علاقةً بالأب من وزيره، وكانت تجمعهما روحانيّةٌ متماثلةٌ، وكانا يسوقان سيرةً متشابهةً. فكان الملك راسخ الإيمان وصادِقَه، وصارم الزهد ومدمنَه، ودائبًا على الجهد والعمل، مكرّسًا له كلّ ساعات نهاره وجلّ ساعات ليله. كان يحضر قدّاسًا منذ الفجر، ويتناول كسرة خبزٍ مصحوبةً بجرعة ماء، ويكبّ على العمل، فيما الرعيّة ما زالت غافيةً. وفي منتصف النهار يتناول غداءً مفرطًا في التقشّف، خلافًا لسائر أفراد أُسرته وبلاطه. ويستأنف العمل. وكان يمارس تقشّفًا غير معهودٍ لدى الملوك والرؤساء، فكان يرقد على سريرٍ عسكريٍّ، ويرتدي مسحًا تحت زيّه، ويستغرق في الصلاة المتمادية، وأنظاره شاخصةٌ إلى الحياة الأخرى السابحة في حضور الله، والمنـــزّهة من نكران الجميل، والغدر، والدسائس، والمؤامرات، والخيانة، وحيث لا شيء سوى المحبّة، والجمال والسعادة.

كلّ هذه الخصال والفضائل والممارسات قرّبت الملك من الكاهن، فاتّخذه نجيًّا ومرشدًا، وحرّره من مضايقات السلطات المدنيّة، ولكنّه عجز عن وضع مشـــاريع "كُتُّلِنْغو" تحت حمايته، لأنّ الأب لم يكن يرضى حمايةً إلاّ من العناية الإلهيّة، ومـــن السيّدة العذراء.

وبلغت الأُلفة بينهما أنّ الأب لم يكن يمسك نفسه عن معانقة الملك، كلّما جاد عليه بمكرمةٍ، معبّرًا عن فرحه وشكره بقوله: "أُقدّر مكرمتَك، وأتمنّى تكرارها".

لقد نمت بين الملك والأب كُتُّلِنْغو صداقةٌ متينةٌ، مقدّسةٌ، وخصـــبةٌ. فتخطّـــى الملك مظهر الكاهن الفلاّحيّ، وزيّه المهلهل، ونأيه عن الأمجاد. وكان يفخر بإعلان صداقته له، ويستطيب لقاءه، وبكياسةٍ جمّةٍ، واهتمامٍ متعاظمٍ كان يستمع إلى رواية مشاريعه، وسخاء مصرف العناية الإلهيّة، ويترسّخ شعوره بأنّه في حضرة قـــدّيسٍ. وقد قال له، يومًا: "أيّها الأب العزيز، أعتقد أنّ العناية الإلهيّة تواكبـــك في كـــلّ مكانٍ، وفي كلّ حينٍ. فاعمل بما يلهمك الله، ولن نتعرّض لك".

وكان التقليد يقضي بأن يزور الملك المؤسّسات الخيريّة، في مناسباتٍ معيّنـــةٍ. وفي

إحدى تلك المناسبات أنبأ الأب أنّه سيزور *البيت الصغير* تعبيرًا عن عميق تقديره له. وجاء جواب الأب زاخرًا بالعزّة: "فلتتأكّد جلالتكم أنّ *البيت الصغير* شديد الامتنان للشرف الذي تنوون إسباغه عليه. ولكنّه سيكون أشدّ امتنانًا إذا عدلتم عن هذه الزيارة، خشية أن تهين العنايةُ البشريّةُ العنايةَ الإلهيّةَ".

وعلى هذا النهج، رفض الأب، دائمًا، إحاطة الملك للبيت الصغير برعايته، موضحًا أنّ البيت ينعم برعاية السيّدة العذراء والعناية الإلهيّة. فلا يسوغ أن تُنتزَع منهما، وتُمنَح للدولة.

ورغب الملك، بمناسبة زواج ابنه، أن يُهدي مدعوّيه صليبًا من ذهب، كان تحفةً فنّيّةً، وذا قيمةٍ نفيسةٍ، ولكنّه، رغبةً منه في زيادة قيمته، حَرِصَ على إعلان أنّ الصليب مكلّلٌ ببركة الأب كُتُّلِنْغو. فاعترض الأب قائلاً إنّ الأفضل أن يُمهر ببركة أُسقفٍ أو كردينال، غير أنّ الملك لم يستسلم.

ومعروفٌ أنّ الملكَ هتف، باكيًا، لدى سماعه نبأ رحيل الأب: "فقدت صديقي المفضّل".

وذات يومٍ جاء الأبَ موفدٌ من الملك يدعوه. وكان الأب يتأهّب لإقامة القدّاس، فقال للموفد الملكيّ: "إنّني الآن أقابل جلالةً أسمى من جلالة الملك. إنّي أقابل الجلالة الإلهيّة".

وكان الأب قد أُهديَ لوحةً رائعةً للسيّدة العذراء، أُعجب بها الملك، ورغب في شرائها، من أجل وضعها في متحف القصر. فاعترض الأب قائلاً: "في *البيت الصغير* ستتلقّى السيّدة العذراء صلواتٍ لن تتلقّاها في المتحف. فاشتراها الملك لنفسه، واعدًا بالصلاة أمامها. ومنذئذٍ بات يؤكّد للأب، كلّما التقاه، أنّه وفيٌّ لوعده.

ومرّةً إثر مرّةٍ رفض الأب شارات التكريم. ومع ذلك أصرّ الملك على تعيينه "فارس منظّمة القدّيسَيْن موريس ولعازر". وأُقيم لهذه المناسبة احتفالٌ، في

البيت الصغير . وحاول الأب التواري، لو لم يقنعه رفاقه أنّ في تواريه إهانةً للملك.

وفي نوبةٍ أُخرى، حاول الأب الهروب من الأمير "ڤيكتور إيمّانويل" الذي جاء كي يعلّق على صدر الأب وسامًا، ومعه شهادة تقديرٍ تحمل توقيع الملك.

واختارته الجمعيّة الفرنسيّة "منتيون وفرانكلين" (Mantyon & Franklin)، التي تكرّم كبار المحسنين وأبطال عمل المحبّة، وقدّمت له ميداليّةً كبيرةً من ذهبٍ. هذه المبادرة أحرجت الأب، بادئ الأمر، ولكنّه لمّا شاهد الميداليّة أشعّ محيّاه، فرحًا، وهتف: "بهذه الميداليّة، أستطيع الحصول على ما يحتاجه أبنائي!".

منذ تأسيس القنطرة الحمراء، كانت قد تطوّعت للخدمة فيه، ثلّةٌ من النساء الورعات، على غرار سيّدات المحبّة، اللائي أحطنَ القدّيس ڤنسان دي پول بمساعدتهنّ، وبدعمهنّ الماديّ؛ غير أنّ واجبات أولئك النسوة المنـــزليّة، والأُموميّة والزوجيّة، لم تكن تتيح لهنّ الانقطاع الكلّيّ لهذه المهمّة التطوّعيّة. فاستنهض الأب ثلاثين فتاةً، ارتضت كلٌّ منهنّ السهر، ليلةً واحدةً، كلّ شهرٍ، على النساء المريضات، واستنفر ثلّةً من الشبّان للسهر على الرجال المرضى.

وكان الأب كُتُّلِنْغو يتطلّع إلى إقامة هيئة خدمةٍ ثابتةٍ، متكاملةٍ. وأُسوةً بالقدّيس ڤنسان دي پول، ركع أمام إيقونة السيّدة العذراء، مسترشدًا، وسألها أن تهب مرضاه وفقراءه خادماتٍ يعتنينَ بهم، وأُمّهاتٍ يحببنَهم، ويكرّسنَ كلّ ذواتهنّ ووقتهنّ لخدمتهم؛ ويلقّنّ مبادئ الدين والأخلاق للأولاد الذين يهملهم والدوهم، ويوكلون إلى الشارع تربيتهم؛ ويلتزمنَ، لهذه الغاية، بنذورٍ كنسيّةٍ؛ ويؤازرنَ الأب على تحقيق مشاريع المحبّة الطموح التي كانت تنضج في قلبه، وفي قلب الله؛ وبذلك كلّه يقدّمنَ لذواتهنّ أعظم خدمةٍ وأقدسها، وللمجتمع مساعدةً كبرى.

ولكنّ الأب كان يطمح إلى أكثر من ذلك، ويتطلّع إلى إنشاء جمعيّة راهباتٍ يقدّسنَ نفوسهنّ ونفوس الآخرين، ويقفنَ حياتهنّ كلّها على خدمة المرضى والمعوزين، وعلى تربية الفتيات، ويتكاتفنَ معه على توسيع أعمال المحبّة إلى أقصى الحدود.

ولكنّ تنفيذ هذا الحلم كان يقتضي سيّدةً تقرن إلى صفات الأُمّ العطوف مَلَكات المديرة، والمؤسِّسة، وتتمتّع بقدرٍ وافٍ من الثقافة، والقدرة على تثقيف راهباتٍ ورعاتٍ، وفتيات مجتمعٍ مستقيماتٍ؛ وتجمع إلى وداعة القلب والفكر، سدادَ التمييز، كي تَهدي كلّ فردٍ إلى الطريق الأكثر ملاءمةً له. وبما أنّ للعمل اليدويّ دورًا أساسيًّا في المؤسّسات العتيدة، كان على المديرة أن تكون عملانيّةً،

ومثل ربّة أُسرةٍ كبيرةٍ، مطّلعةً على حسن إدارة شؤون المنـــزل، وعلى ممارسة الخياطة، وصون الأثاث. وعليها أن تتحلّى بروح اقتصادٍ بمنأًى عن التقتير، وبصحّةٍ متينةٍ، وبسهرٍ يقظٍ، وبالقدرة على تلبية كلّ نداء، وسدّ كلّ نقصٍ، وأن توحي للجميع ثقةً واحترامًا، وأن تلتزم بواجباها التزامًا يصون المؤسّسة من كلّ خطرٍ أو انزلاقٍ.

ومثلما جادت العناية الإلهيّة على القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ بالقدّيسة كيارا، وعلى القدّيس فرانسوا الساليزيّ بالقدّيسة جانّ دي شانتال، وعلى القدّيس ڤنسان دي پول بالقدّيسة لويز دي ماريّاك، وضعت إلى جانب القدّيس كُتُّلِنْغو سيّدةً فريدةً، غنيّةً بالفضائل، سخيّةً بالتضحية والبذل، احتلّت المرتبة الثانية، بعد المؤسّس في تطوير "بيت العناية الإلهيّة الصغير"، وازدهاره.

وكان اسمها "ماريّا أنّا نازي پُلّيني".

"ماريّـا أنّا نازي پُلّيني" *Maria Anna Nazi Pullini*

« المحبّة هي التي تصون حياتنا. إنّها أُمّ الفقير، ومرشدة الغنيّ، ومرضعة الصغار، وخادمة المسنّين، وكنز المُعدَم، وملاذ البؤس الشامل، الذي يذود عن حياض جميع الضعفاء، ويعزّي جميع الأجيال »

"القدّيس غريغوريُس النيصيّ"

رأت "ماريّا أنّا پُلّيني" النور يوم ١٧٩١/٧/٦. وكان والداها، مع هشاشة وضعهما المادّيّ، غنيّين بالفضائل، ووطيدَي الاستقامة. وقد وقفا حبّهما وعنايتهما على طفلتهما الوحيدة، هديّة السماء، وكنزهما الوحيد، ولا سيّما أنّ جمال محيّاها كان يعكس صورة نفسٍ ملائكيّةٍ. وفي كنف والديها الفاضلين نشأت الفتاة على الورع، والتقوى، وكياسة السلوك، ورفعة الأخلاق.

حصلت من العلم على ما كان يتعلّمه أبناء جيلها ومحيطها من مبادئ قراءةٍ وكتابةٍ وحسابٍ، ثمّ كلّف والداها شقيقتيْن فاضلتين بتلقينها أعمال الإبرة، من خياطةٍ وتطريزٍ، فعقدت مع تيْنك الفتاتيْن علاقات صداقةٍ صافيةٍ لم ينلْ منها الزمن أو البعاد.

ومنذئذٍ تجلّت لديها شمائل نادرةٌ، جمعت الرقّة، والتوازن، والسكينة، فلا شيء يثير غضبها أو نفاد صبرها، ولا كآبة تتملّكها، ولا فرحًا طاغيًا يضعضع اعتدالها. ومنذ طفولتها دأبت على ممارسة الأسرار المقدّسة، والتزمت بحضور القدّاس،

يوميًّا، والتناول كلّما أُتيح لها، وبتلاوة المسبحة. وفي كلّ يوم جمعةٍ، كانت تؤدّي رُتبة درب الصليب.

كانت تعيش في العالم، وكأنّها خارج العالم. ومنذئذٍ التهب فيها التوق إلى تكريس ذاها كلّيّةً لله وحده. غير أنّ رغبتها هذه لم تتوافق، حينذاك، مع تدبير الله الذي شاء أن تقدّم تلك النفس النقيّة للحياة في العالم، مثالاً للخشوع والمحبّة. ولّما أقنعها والداها بالزواج من شابٍّ يعرفانه، توسّمت في رغبتهما مشيئة الله. وضحّت برغباها، واثقةً أنّها، بذلك، تنفّذ مشيئة الله.

الزوج الذي قدّمه لها والداها، كان يُدعى "شارل نازي"، ويتحلّى بأروع الصفات. تزوّجا يوم ١٨١٢/٧/٤، وحافظا، كلاهما، على السيرة الحميدة، والفاضلة التي كانا يسوقالها من قبل. فكان شارل لها خير زوجٍ، وهي أحاطته بأنقى حبٍّ، وخير عنايةٍ. كان "شارل نازي" مثالاً للاستقامة والصدق، وعمل الخير. وكان يكرّس كلّ يوم أحدٍ لزيارة المستشفيات، وللمساعدة على خدمة المرضى. وكانت ماريّا أنّا أثمن هديّةٍ يمنحها الله لرجلٍ.

وساقا حياةً هادئةً هانئةً، تنافسا فيها على تبادل المحبّة والتفاني والإخلاص. ورزقا ولدَيْن، أوّلهما عاد إلى السماء فور عماده، أمّا ثانيهما، المدعوّ جوڤانّي، الذي رأى النور عام ١٨١٥، فكان متين البنية، وعاش طويلاً.

وبعد سنتين، انتشر وباء الجدريّ الأسود، واندفع شارل إلى العناية بالمصابين في المستشفيات، وكان من أولى ضحايا الوباء. وتوفّي يوم ١٨١٧/٢/٢٧. ولّما يتخطّ الستّة والعشرين ربيعًا.

سحقت الفاجعة قلب ماريّا أنّا، ولكنّها لم تنتزع منها كلمة شكوى، بل تقبّلت صليب مصاها بصبرٍ جميلٍ، وبسموّ نفسٍ مدهشٍ، وبتسليمٍ صامتٍ لمشيئة الله. غير أنّها لم تخلع ثوب الحداد، من بعدُ، أبدًا. وانصرفت إلى العناية بوالديها بتفانٍ وحبٍّ، فاق كلّ ما تلقّته منهما. وسعت جهدها لصون براءة ابنها، ودفعه على

دروب القداسة. وبالإجمال كانت تحيا بهدوءٍ وسلام. وعاد توقها إلى الحياة المكرّسة الذي راودها في صباها يتراءى لها أشدّ إغراءً. ورفضت العديد من عروض الزواج المغرية، مقتصرةً على تربية ابنها جوڤـــانّي، فهو والله كانا صديقيْها الوحيدين. وفي هذه الأثناء كان الله يُعدّها لتكون أمًّا لمئات الأطفال المهملين.

كانت تحيا في الله، من خلال الأسرار المقدّسة، والمحبّة الأخويّة، وتتغذّى بالصلاة المستمرّة، وبمطالعة سيَر القدّيسين، والكتب الروحيّة، ولا سيّما كتاب الاقتـــداء بالمسيح، وكتب القدّيس فرنسوا الساليزيّ.

وتوسّمت في الفقراء صورة الربّ يسوع، فعكفت على زيارتهم في المشافي والملاجئ، وفي منازلهم البائسة، محسنةً إليهم، مقدّمةً لهم شتّى الخدمات الوضيعة، والنصح والإرشاد، رافيةً ثيابهم، ومرتّبةً أثاث مساكنهم.

عام ١٨١٩ جاءت العناية الإلهيّة إلى تورينو بأبي الفقراء، وصديق البائســـين، فاتّخذته معرّفًا ومرشدًا، وأفصحت له عن تطلّعاتها الروحيّة، فأعلن لهـــا، وكأنّـــه صوت الله: "ستكونين الأُمّ الروحيّة لرعيلٍ غفيرٍ من البائسين والعـــذارى". تلـــك النبوءة التي أتت في الوقت الملائم، أسفرت عن أُمٍّ روحيّةٍ منقطعة النظير، لم يكـــن العالم يعرفها، ولكنّ العناية الإلهيّة كانت تصوغها بتؤدةٍ. كانت ماريّا أنّـــا، بإلهـــامٍ سماويٍّ، قد التمست من الأب كُتُّلِنْغو أن يرشدها إلى طريق القداسة، واكتشـــف، هو، فيها نفسًا مختارةً، وآلى على نفسه أن يقودهـــا علـــى دروبٍ لا تخلـــو مـــن الأشواك، ولكنّها طافحةٌ بأقدس عزاءٍ وأعذبه.

ومنذئذٍ، درجت ماريّا أنّا على نهجٍ يليق برسالتها العتيدة، واعتادت التنـــاول اليوميّ الذي بثّها من البهجة والطاقة الروحيّة ما جعلها عاجزةً عن إهمـــال تلـــك الممارسة. وانتمت إلى جمعيّة العابدات الدائمات للقربـــان المقـــدّس، واعتـــادت الاستيقاظ في الرابعة، والاستغراق في التأمّل والصلاة والعبادة.

ولكنّ الأب كُتُّلِنْغو لم يكتفِ منها بهذه الممارسات، بل حثّها على مشاركة

الفقراء حبّها ليسوع، وعلى إحاطتهم بمزيدٍ من العطف، وعلى تسريع وتيرة زياراتها لهم، وعلى إضفاء مزيدٍ من المرونة والرقّة على مبادرات محبّتها ومواساتها لهم، وعلى مضاعفة إحساناتها إليهم، ومساعدتهم على تدبير شؤون حياتهم اليوميّة.

وحرّضها الأب على تخطّي مجرّد الغوث المادّيّ، إلى الاهتمام بالبؤس الروحيّ، وعلى تعليم الأُمّيّين، وإطلاع الكهنة على المحتاجين إلى زادٍ روحيٍّ، وإرشاد الفتيات التائهات، وإيجاد عملٍ لهنّ يعيد لهنّ الكرامة وبهجة الحياة؛ وناشدها عدم التحرّج من طلب مساعدة الأغنياء، في هذا السبيل.

هذه الإرشادات هطلت في تربةٍ خصبةٍ، وكان التزام ماريّا أنّا بها بمثابة "ابتداءٍ"، أعدّها للمهمّة السامية التي دعتها إليها العناية الإلهيّة، وجعلها الذراع اليمنى للكاهن الذي أصبح أداة معجزة العناية الإلهيّة، وقائدة جيشٍ من بطلات المحبّة.

واستشار الأب كُتُّلِنْغو معرّفه ومرشده، الأب "فونتانا" بمشروعه المتمثّل في اختيار فتياتٍ شريفاتٍ ومستقيماتٍ، وإعدادهنّ ليكنّ ممرّضات مستشفاه الصغير، برئاسة وإدارة ماريّا أنّا، التي باتت تمتلك من الطاقات والفضائل ما يؤهّلها لهذه المهمّة. فهي تمتلك مقوّمات الإدارة السديدة، التي لا تقتصر على العلم، ولا توليه الأولويّة، بل تمتلك قلبًا مشرعًا على كلّ بؤسٍ، منحنيًا على كلّ وجعٍ، متأهّبًا لكلّ بذلٍ وتضحيةٍ، زاخرًا بالتواضع والعطف، والتفاني، واليقظة. وأكّد له معرّفه أنّ هذا المشروع ملهمٌ من الله.

وحينئذٍ فاتح الأب كُتُّلِنْغو ماريّا أنّا قائلاً:

« هل أجمل من غوث يسوع المتألّم في أعضائه الفقراء، ومن إفراح قلبه بإهدائه قريناتٍ مخلصاتٍ متفانياتٍ؟ أنت ترغبين في اعتناق الحياة الرهبانيّة، وتكريس ذاتك لممارسة المحبّة، والحبّ الإلهيّ. وها إنّ هذا الحبّ المزدوج يُقدَّم لك من خلال المرضى والفقراء، وقيادة راهباتٍ، قيادةً مقدّسةً. امتحني ذاتك، إذن، وأصغي إلى نداءات قلبك، وأيًّا كان جوابك، سأعدّه آتيًا من الله ».

لو كان الأمر معتمدًا على نداء قلبها فحسب، لكانت أعلنت جوابها في الحال. ولكن كان عليها، قبل تلبية دعوتها، الوفاء لواجباتها الأُموميّة، والسير وفقًا لقرار ابنها. وبرفقة أخي زوجها، مضت إلى حيث ابنها يعمل في صيدليّةٍ، وأطلعته على ما هو مطلوبٌ منها، مؤكّدةً التزامها بما هو يقرّر. ومع أنّ ابنها جيوڤـــاني كان يحبّها أكثر من نفسه، أكّد لها أنّه لا يريد إلاّ ما يرضيها، وأنّه سيمتلئ سعادةً برؤيتها مكرّسةً لخدمة الفقراء والبائسين.

ومنذئذٍ غدا للأب كُتُّلِنْغو معاونةٌ زاخرةٌ بالفضائل، وللفقراء والبائسين أُمٌّ رقيقةٌ، عطوفٌ، متفانيةٌ. وهي، مع انصرافها، بكلّ طاقاتها إلى تحقيق هذه الرسالة السامية، حتّى مماتها، لم تهمل، لحظةً، واجباتها تجاه ابنها.

الأخَوات "الڤنَانيّات" أو "المنصوريّات"

كي تبدأ حياةً جديدةً مكرّسةً لله، بكاملها، باعت ماريّا أنّا كرومها وبيتها الريفيّ، حيث كانت تسوق عزلةً هادئةً، واستأجرت بيتًا فسيحًا في تورينو، خصّصت فيه غرفةً لابنها، الذي ظلّت تسهر عليه، وتقدّم له خدماتها الأُموميّة الطافحة حبًّا ويقظةً.

وطفق الأب يبحث عن فتياتٍ مؤهّلاتٍ لتكريس ذواتهنّ لله، ولخدمة المرضى والفقراء. والتمس من كهنة الرعايا الذين تربطه بهم معرفةٌ وصداقةٌ التنقيب عن فتياتٍ فاضلاتٍ، يمتلكنَ الصحّة الروحيّة والجسديّة، والسخاء الروحيّ، وكلّ ما يمكّنهنَّ من الاضطلاع برسالة المحبّة. وما لبث أن أرسل له كاهنٌ صديقٌ فتاةً تتحلّى بكلّ الصفات المطلوبة، واستقبلها الأب يوم ١٨٣٠/١١/٣٠، وأطلق عليها اسم الأخت مريم المجدليّة. وبعد ثلاثة أيّامٍ تلتها الثانية فسمّاها الأخت كاترينا، وسمّى الثالثة "سيمفوروزا".

ثمّ اصطاد الأب، في شبكةٍ واحدةٍ، ودفعةً واحدةً، ثلاث أَخَواتٍ. كانت كبراهنّ، منذ أشهرٍ معدوداتٍ، قد باحت له برغبتها في الانضمام إلى جمعيّة الراهبات الكبّوشيّات. ولكنّه نصحها بانتظار جمعيّةٍ جديدةٍ، كانت العناية الإلهيّة تُعدّ لإنشائها، وحيث سيتسنّى لها تحقيق تطلّعاتها التقويّة. وفيما كانت الفتاة تنتظر الإشارة الموعودة، قرع الأب باب بيت ذويها، ورأى إلى جانبها أربع شقيقاتٍ، فحدّثهنّ عن مستشفاه، وعن مرضاه وممرّضاته، وعن الراهبات اللواتي يعتزم دعوتهنّ للعناية بالبائسين والمهمّشين، ثمّ، بابتسامةٍ عريضةٍ بدت مزاحًا، أهاب بالفتيات الخمس إلى خوض هذه المغامرة الشيّقة. وأخذت والدتهنّ دعوته هذه مأخذ الجدّ. وبما أنّها كانت موقنةً من اندفاع جميع بناتها إلى تلبية دعوة الكاهن،

التمست منه الاحتفاظ باثنتين، مؤكّدةً سعادتها بتقديم ثلاثٍ منهنّ لخدمة الـــربّ. هذا العرض السخيّ المفاجئ تخطّى كلّ توقّعات الأب، فشكر للوالدة ســـخاءها، وهو يضجّ بهجةً وشكرًا لله، وأطلق عليهنّ أسماء الأخـــوات تيريـــزا، وجوليـــا، وإليزابيت.

ولم يتوقّف تدفّق المتطوّعات حتّى ارتقى عددهنّ إلى الأربعين. على هذه النـــواة أطلق الأب اسم "الـــڤنسانيّات" أو "أخوات القدّيس ڤنسان دي پول". ولكـــنّ أهالي تورينو كانوا يؤثرون تسميتهنّ "الكُتُّلِنْغويّات"، فهذه التسمية كانت أعذب جِرْسًا على آذانهم، وأكثر دغدغةً لروحهم الوطنيّ.

وقد وجدت أُولئك المتطوّعات المتحمّسات في ماريّا أنّا، أختًا متفانيـــةً وأُمًّـــا حنونًا. وبما أنّ المرضى كانوا يشغلون جميع غرف المستشفى الصغير، استقبلت الأُمّ ماريّا المرشّحات للرهبنة في بيتها الذي سرعان ما عجز عن اســـتيعاب عـــددهنّ المتنامي باطّرادٍ، فانتقلت بهنّ إلى بيتٍ أكثر سعةً، حيث احتللنَ ستّ غـــرفٍ، ثمّ، بعد ثلاثة أشهرٍ اضطرّت إلى استئجار ثماني غرفٍ أُخرى لهنّ.

وكانت الأخوات المبتدئات ينهضنَ في الرابعة، باكرًا، وعقب صلاةٍ فرديّةٍ، كنّ يقصدنَ كنيسة "جسد الربّ" فيحضرنَ القدّاس، ويتناولنَ، ثمّ يعدنَ إلى مسكنهنّ، ويُكببنَ على غسل أمتعة المرضى، وأغطية أسرّتهم، وعلى رتق ثيابهم، وإعداد ضماداتهم، وطهو طعامهم وإيصاله إلى من لا يقوى منهم على الحركة، ويرتّبنَ أسرّتهم، ويناولنَهم أدويتهم، ويهمسنَ في آذانهم، قبل مغادرتهم، عبارات رجاءٍ، وخواطر ساميةً، مقدّماتٍ مثالاً رائعًا للمحبّة المسيحيّة.

ودأبت الأُمّ ماريّا أنّا على صوغ تلك النفوس الفتيّة، وبـــثّهنَّ أعظـــم حـــبٍّ للبائسين، بإرشاداتها الرقيقة العذبة، ولا سيّما بمثالها الرائع، حريصةً على أن تجعل منهنّ ملائكة عزاءٍ. وكانت بقدوتها تحضّهنّ على أداء الخدمات الأشدّ وضـــاعةً، فتختار من المرضى من كانت قروحهم الأكثر بعثًا على النفـــور، وتـــنحني علـــى

خدمتهم ومعالجتهم. غير أنّ الله استدعاها إليه في غروب عام ١٨٣٢، وكان رحيلها، مصيبةً مزلزلةً لجمعيّةٍ ناشئةٍ، في غمرة نموّها.

فيوم ١٨/١١/١٨٣٢، كان الأب كُتُّلِنْغو، في كرسيّ اعترافه، فجاءته أُختٌ مذعورةً، ملهوفةً، تردّد: "أُمّنا تحتضر! أُمّنا تنازع!..." وهبّ الأب وجرى إلى غرفة الأُمّ الرئيسة، وما كادت تراه، حتّى تدفّقت من فمها موجة دمٍ ومعها لفظت نفسها الأخير. وصاح الأب مفجوعًا: "ما أشقاني! عيلةٌ مفجوعةٌ! فتياتٌ كثيراتٌ فقدنَ أُمّهنّ!". ولكن سرعان ما تغلّب الإيمان، فأردف قائلاً: " لتكن مشيئة الله. فالله الرحيم سيتدبّر كلّ شيءٍ".

لقد طعنَ قلبَ الأب انهيار دعامةٍ أساسيّةٍ في بيته، بوفاة رئيسة سيّدات المحبّة، والراهبات الڤنسانيّات التي كانت لهنّ خير مرشدةٍ وقدوةٍ. وقال الأب عنها، بعد أيّامٍ، في حديثٍ مع الراهبات: "أستطيع أن أؤكّد لكنّ أنّ رئيستكنّ قد صانت، دائمًا، براءة معموديّتها، ولم تخدشْ، قطّ، صداقتها مع الله، وظلّت نفسها ناصعة البياض. لقد كانت من التواضع، والطاعة، والثقة بالله بحيث لم تحجم عن تنفيذ أيٍّ من أوامري، حتّى إذا بدت حماقةً أو جنونًا. ومع أنّها كانت هشّة الصحّة، فلم تكبح، قطّ، اندفاعها إلى الخدمة والبذل، إلى أن انتابتها حمّى حارقةٌ ألزمتها الفراش".

لقد سحق الحزنُ قلب الأب "كُتُّلِنْغو"، ولكنّه لم يهدّ عزيمته، ولم يعرقل مسيرة *البيت الصغير* . فقد تولّت، في الحال، معاونة الفقيدة، متابعة عملها، واستمرّ عمل الله.

وحرص الأب على أن يغرس في نفوس بناته استعدادات فضيلتَي مرتا ومريم، ويرسّخ فيها شَغَف العمل والعبادة معًا. فكان يحدّثهنّ، كلّ يومٍ، عن حبّه لله في الهيكل، وفي أجساد الفقراء والمرضى وفي نفوسهم. وكان حديثه بسيطًا، سائغًا، متبّلاً بالنكات والمزاح. كان يوصيهنّ بالاعتراف أسبوعيًّا، بلا إسهابٍ ولا ثرثرةٍ، وبالتناول المطّرد، وبالاستغراق في التأمّل، وفي المطالعات الروحيّة، وبتلاوة المسبحة

الورديّة، ولكيلا يبقى يسوع وحيدًا، مهجورًا في مخبأ القربان، ابتدع الأب نظامًا يضمن تناوب اثنتين منهنّ على عبادة الحضور الإلهيّ في كنيسة "جسد الربّ"، منذ فتح أبوابها، حتّى إغلاقها، على ألاّ تغادر أيّةٌ منهنّ مكانها حتّى تصل بديلتها.

وكان ينصحهنّ بالتزام البساطة والتواضع، والنأي عن النظريّات اللاهوتيّة المعقّدة، التي لا تؤتيهنّ سوى هدر وقتهنّ، وبلبلة أفكارهنّ، مؤكّدًا لهنّ أنّ حسبهنّ إتقان وضع ما تعلّمنَه موضع التنفيذ، والتقيّد بدروس الإنجيل، والتعمّق في تعاليم الكنيسة، ونقلها نقلاً سليمًا إلى مَن يتولّينَ خدمتهم وتثقيفهم.

لم يفرض عليهنّ إماتاتٍ قاسيةً، لأنّه كان يقدّر المشاقّ اليوميّة التي يعانينَها، وكان، في دخيلة نفسه، مؤمنًا أنّ العناية الإلهيّة، عندما ترى حاجةً إلى راهباتٍ يمارسنَ الإماتات القاسية، سيستنهض من *البيت الصغير* جماعةً تمارسها عن الجميع. ومع ذلك، لم يكن له معدًى عن إكمال إعدادهنّ لرسالتهنّ التي تقتضي إرادةً فولاذيّةً، قادرةً على تذليل أعتى العقبات، وقلوبًا منزّهةً عن كلّ أنانيّةٍ وزهوٍ بالذات، وحياءٍ بشريٍّ، كما تقتضي أجسادًا منيعةً متمكّنةً من احتمال أعتى المشقّات، والأسهار الطويلة، والتأقلم مع كلّ ما يقزّز وينفّر. إذ سيكون عليهنّ تخليص الأجساد المتآكلة من أوجاعها، وقروحها، وقيحها، وإنقاذ النفوس المنهارة من جراحها ومآسيها. وينبغي أن يكنّ متحرّراتٍ من كلّ جبنٍ، وخوفٍ، وصغارةٍ، ومتمرّساتٍ بالجَلَد والمكابدة والتواضع، والقدرة على احتمال الهزء، والتحقير، والشتيمة المقذعة. وهكذا تعي كلٌّ منهنَّ ما ينتظرها، وما كان الربّ قد أنبأ به أتباعه من اضطهاد العالم وبغضه لهم. فتعيد كلٌّ منهنَّ حساباتها، وتروز قدرات إيمانها، فتتراجع كلّ مهتزّةٍ وخائفةٍ، وتزداد منيعات النفوس إصرارًا على البطولة والإقدام، والتحرّر من الميول البشريّة. مؤمناتٍ بأنّ العليّ الذي اتّكلنَ على نعمته سيزوّدهنّ بكلّ ما يحتجنَ إليه من قوّةٍ، فيقدمنَ، بلا جَزَعٍ، على أكثر المهمّات جرأةً، ويصبحنَ للّواتي سيخلفنَهنَّ مصدر دعمٍ وإلهامٍ.

وفي هذا السبيل، انتقى اثنتي عشرة مرشّحةً، صغراهنَّ فتاةٌ في السادسة عشرة، وأُخرى في الثامنة عشرة، كانتا أرسخهنَّ جرأةً وورعًا. وأسكنهنَّ في مكانٍ منعزلٍ عن البناء العامّ، سمّاه "مقرّ عيلة الجدليّات الصغيرة"، وأخضعهنّ لنظامٍ موغلٍ في القسوة والتقشّف، مَلبسًا، ومأكلاً، وسكنًا، وعزلةً. فلا تواصُل بينهنّ إلاّ بالإشارات، في حالات الضرورة القصوى، ولا أحد يدخل المقرّ سوى الأب من أجل إعطاء إرشاداتٍ، وقيادة صلواتٍ. وطلب منهنّ قضاء عشر ساعاتٍ كلّ يومٍ، راكعاتٍ على الحضيض مصلّياتٍ، بلا متّكأٍ ولا سندٍ، وكان مرقدهنّ فراشًا من قشٍّ أُثبتت به مخدّةٌ من قشٍّ، أيضًا، ويتلفَّعنَ بغطاءٍ صوفيٍّ أسود، يُضفي على مرقدهنّ صورة نعشٍ. ويلبسنَ مسحًا، ويجلدْنَ ذواتهنّ ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع. ومع ذلك كان مقرّهنّ يضجّ فرحًا.

ربّما قاست راهباتٌ أُخرياتٌ مثل هذه التقشّفات. ولكنّ الأب كان يبتغي أن تتمرّس بناته، إلى أقصى حدٍّ، بالتواضع، ونكران الذات، وعدم المبالاة بأحكام العالم وإهاناته، وسخريّته، فطلب منهنّ المضيّ، كلّ صباحٍ، إلى كنيسةٍ، كانت، في البدء، غير بعيدةٍ، في زيٍّ مغرقٍ في الهلهلة، والغرابة، كفيلٍ بجعلهنَّ ضحيّة الهزء والإهانات، والشتائم. ثمّ بعد بضعة أيّامٍ، أوعز إليهنَّ الذهاب إلى كنيسة "جسد الربّ"، حيث يلزمهنَّ اجتياز مسافةٍ أبعد، عبر طرقاتٍ مزدحمةٍ لا تخلو من الرعاع، فتضاف إلى عبارات السخريّة والتحقير، الشتائم المقذعة، الأثقل وطأةً، والأنفذ تجريحًا، والأقذر بذاءةً. ولدى عودتهنَّ، كان يستوضحهنَّ عمّا أحرزنَه من صيدٍ، فيروينَ له الهدايا التي قُذِفت عليهنّ، وهنّ فرحاتٌ، قائلاتٌ: "لقد سارت الأمور على أفضل حالٍ". وحينئذٍ كان الأب يقفز قفزتين، تعبيرًا عن فرحه، وعن رغبته في ألاّ تكتفي أخوات المستقبل باحتمال الهزء والإهانات بصمتٍ وصبرٍ، بل في استقبالها طوعًا وبفرحٍ، تمجيدًا لله، لكي يُبقينَ، دائمًا، أحكام العالم، واضطهاداته ومغرياته، تحت أقدامهنَّ.

وبعد انقضاء هذا "الابتداء" الصارم، الذي امتدّ خمسة عشر يومًا، وبعد أن تيقّن الأب من تحرّر بناته من كلّ جبنٍ، ووَهَنٍ، وصغارةٍ، وحبٍّ للذات، ومن تزوّدهنَّ بسلاحٍ روحيٍّ يؤهّلهنَّ لخوض معركة المحبّة الكبرى، ألبسهنَّ، في يوم عيد انتقال العذراء، الثوب الرهبانيّ "الـــڤنسانيّ" المكوّن من مئزرٍ أسود يعلو ثوبًا بنّيّ اللون يشدّه زنّارٌ من اللون عينه، تتدلّى من جانبه الأيسر المسبحة الورديّة. ويغطّي رأسهنّ حجابٌ أبيض يعلوه آخر أسود؛ وعلى وجههنَّ ينسدل حتّى الصدر، وشاحٌ أبيض يُخفي فتيلاً سماويّ اللون يتدلّى منه صليبٌ فضّيٌّ ظاهرٌ. وفوق الوشاح يسري شريطٌ أخضر يحمل، في جانبه الأيسر، قلبًا فضّيًّا، تعلوه وردةٌ حمراء صغيرةٌ، وقد طُرِّزت على أحد جانبَيِ الوشاح لفظة "محبّة"، وعلى الجانب الآخر: "القدّيس ڤنسان دي پول".

وقد فسّر الأب رموز هذا الزيّ بقوله: الفتيل الأخضر يوحي إلى بناتي الرجاء والثقة بالعناية الإلهيّة. والوردة الحمراء تدعوهنّ إلى محبّة الله والقريب. أمّا الفتيل الأزرق فيذكّرهنَّ بواجب كبح الذات في سبيل أداء الواجب وبلوغ السماء.

غير أنّ الأب لم يتسرّع في وضع نظامٍ أساسيٍّ للجمعيّة، مؤثرًا أن تصقل التجربة النظام الأمثل، مقتديًا بمثال القدّيس ڤنسان دي پول، الذي لم يضع بين أيدي راهبات المحبّة نظامهنَّ الأساسيّ إلاّ بعد عشرين سنةً من الممارسة، والامتحان، والتهذيب. ولكنّ الأب كُتُّلِنْغو لم يكفّ، في هذه الأثناء، عن تزويد راهباته بنصائح وإرشاداتٍ تنير لهنَّ طريق القداسة، وواجبات المحبّة. وإليكم نماذج من أقواله في هذا المجال:

- "أحببنَ الله، وسرنَ تحت أنظاره، واحيَيْنَ في المحبّة والجرأة والفرح في الربّ. أحبِبْنَ بلا خوفٍ، فالحبّ يطرد الخوف. التزمنَ البساطة، واستقامة النوايا. وأبغضنَ الخطيئة بكلّ أشكالها.

- **وعندما تكدُّكنَّ متاعب وأحزانٌ، تأمَّلنَ صُوَر القدّيسين، وتذكّرنَ أنّهم تألّموا أكثر منّا، وامضينَ قُدمًا برعاية الله.**
- **ينبغي العيش في** *البيت الصغير*، **وكأنّ الممارسات الروحيّة مستمرّةٌ طوال السنة.**
- **قدّسنَ كلّ أعمالكنّ، وأدّينَها بحبّ الله. ولتكن إرادة الله هي نبراسكنَّ، في كلّ شيءٍ، وفي كلّ حينٍ".**

وكان يؤثر، من الأخوات، اللائي يقرنّ إلى دقّة احترام النظام، بساطة الأطفال وبراءهم، بقطع النظر عن مستوى علمهنّ وفهمهنَّ. وفي هذا الميدان برزت أختٌ توغّلت في البساطة والبراءة والحياة في الله، بحيث لم تكن تخلد للنوم، قبل السجود أمام مخبأ القربان. وهتف: "مساء الخير، يا يسوع". ويبدو أنّ الربّ استعذب هذه المبادرة، فأجابها، ذات مساءٍ: "ومساء الخير لكِ، أنت أيضًا، يا ابنتي".

وكان يرشدهنّ إلى وسائل ممارسة حياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ، تملأ كلّ ثانيةٍ من حياهنّ.

ولطالما حذّرهنَّ من الاستفاضة في الثرثرة، عندما يُسألنَ عن دعوهنّ، وينصحهنّ بالاكتفاء بعباراتٍ مقتضبةٍ.

ولكي يرسّخ الأب في أخواته شغف خدمة الفقراء والمرضى، كان يغدق عليهنّ مثل هذه الأقوال:

- **"لو أدركتنّ أيّ شخصٍ عظيم الشأن يمثّله الفقراء، لخدمتنّهم راكعاتٍ. فعليكنّ أن ترينَ في الفقراء صورة يسوع المسيح. وكلّما كان الفقراء أكثر بعثًا على التقزّز، كانت صورة يسوع فيهم ألمع تألّقًا. جميع الفقراء هم سادتنا، ولكنّ أكثرهم جلافةً، وإيحاءً بالنفور هم أعظم معلّمينا.**
- **"الأولاد الطيّبون"** (يعني بهم الذين يعانون إعاقةً ذهنيّةً أو تشويهًا خلقيًّا) **هم جوهرة** *البيت الصغير* **الأغلى ثمنًا. ونحن لا نستحقّ هذه الهدايا التي تمنّ بها علينا العناية الإلهيّة. فعلينا استئهال خدمتهم، ولنسهر عليهم بأشدّ حرصٍ".**

- "قداسة الـڤـنسانيّة المميّزة هي، بعد الصلوات الجماعيّة والفرديّة، بذل الجسد والروح في خدمة البائسين المحتاجين".
- قد يقتضي غوث الفقراء الغوص في الحمأة والأقذار حتّى العنق. هذه هي المحبّة التي عليكنَّ ممارستها. وهذه هي العلامة التي يتميّز بها *البيت الصغير* .
- "بما أنّكنّ مكرّساتٌ لخدمة الأشدّ فقرًا، لستنّ محتاجاتٍ إلى علمٍ وفيرٍ".

بتأثير هذه الإرشادات غدت الراهبات الشابّات يتنافسنَ على تولّي خدمة كلّ قادمٍ جديدٍ، ما زال طافحًا بالقذارة والقروح؛ فكان الأب يطيّب نفس اللواتي لم يحظينَ بهذا الامتياز بقوله: "صبرًا، فسيأتي من هم أسوأ حالاً!". وكذلك كنّ يتنافسنَ على غسل الأمتعة الأكثر اتّساخًا وقذارةً، تنفيذًا لدعوة أبيهنّ إلى الغوص حتّى العنق في الحمأة والأقذار، حبًّا بالله وبأبنائه المتألّمين.

غير أنّ الأب كان شديد العطف عليهنّ، وكان حنانه يتغلّب عليه بمجرّد رؤيته أُختًا منهكةً، فيبذل كلّ وسعه من أجل التخفيف عنها، ويعفيها من العمل الشاقّ، ويدعوها إلى الراحة والنقاهة، وأحيانًا يوكلها إلى رعاية أُختٍ أُخرى، أو إلى رعاية الأُمّ الرئيسة.

وكان يسهر على أدقّ التفاصيل المتعلّقة بصحّتهنّ، ولا يضنّ بأيّ شيءٍ في سبيل صونها مهما غلا الثمن. وقد صرّحت إحداهنّ: "إنّ عناية الأب بنا لا تتدنّى عن رقّة أمّنا بنا".

وبالإجمال، أثمر تثقيف الأب الروحيّ لـڤنسانيّاته مئات السِيَر التي تميّزت بالبطولة والقداسة.

ولمّا نما *البيت الصغير* ، وغدا مؤسّسةً مترامية الأطراف، ومتعدّدة الفروع، وأصبح للمطبخ وللمغسل وللمخبز مشرفاتٌ وعاملاتٌ، تبيّنت للأب الحاجة إلى نوعٍ من الاكتفاء الذاتي في شتّى المجالات، فكلّف نخبةً من راهباته بالحصول على

شهاداتٍ جامعيّةٍ في الطبّ، وفي الصيدلة والتمريض، دعمًا للمتطوّعين، وتلبيةً للاحتياجات المتنامية. وكان يحدوه الإيمان بأنّ العناية الإلهيّة لا تخشى الحداثة، وأنّ الأخوات اللواتي يحصلنَ على شهاداتٍ عليا، وطالما بقينَ في مأمنٍ من الزهو والكبرياء، سيكوننّ موضع تمجيدٍ لله.

وبما أنّه كان، أيضًا، في *البيت الصغير* رجالٌ وشبّانٌ وفتيانٌ مرضى ومعــاقون، وأيتامٌ، وصمٌّ وبكمٌ، يحتاجون إلى خدماتٍ ورعايةٍ، وكانت الأبنية بحاجةٍ إلى صيانةٍ، والأجهزة إلى إصلاحٍ. فقد تطوّع لهذه المهامّ ثلّةٌ من الشبّان، وكانوا نواة "إخــوة ڤنسان دي پول"، أو "الــڤنسانيّين". كان زيّهم يتألّف من جلبابٍ أسود يشــدّه زنّارٌ من نفس اللون، تتدلّى منه المسبحة الورديّة، وعلى صدورهم قلبٌ من صوفٍ أحمر يحمل لفظتَي "محبّة" و"القدّيس ڤنسان دي پول".

وكانوا يخضعون لسنة "ابتداءٍ"، ويلتزمون بنذورٍ تتجدّد كلّ ستّة أشهرٍ، وقد أشرفوا على مصانع الحدادة، والنجارة، وصناعة الأحذية، والطباعة والتجليد، والحلويات. وأخذوا على عاتقهم المهمّات الشاقّة، مثل العناية بالمصابين بالصرع. ومن هؤلاء اختار الأب عددًا من المؤهّلين، وأوكل إليهم التعليم المسيحيّ، والقيام بالمهمّات الطبّيّة الصغيرة، وخدمة كنائس الرعيّة.

وبالإجمال، ضمّت مؤسّسة كُتُّلِنْغو ڤنسانيّين وڤنسانيّاتٍ، أغنياء وفقراء وأطبّاء وممرّضين، وألّفوا، معًا، كوكبةً رائعةً من النفوس الكريمة، التي أحاطت بالأب كُتُّلِنْغو، من أجل محبّة الله في أبنائه المتألّمين.

مشاهد من مطبخ *البيت الصغير*

مشهد من المخبز

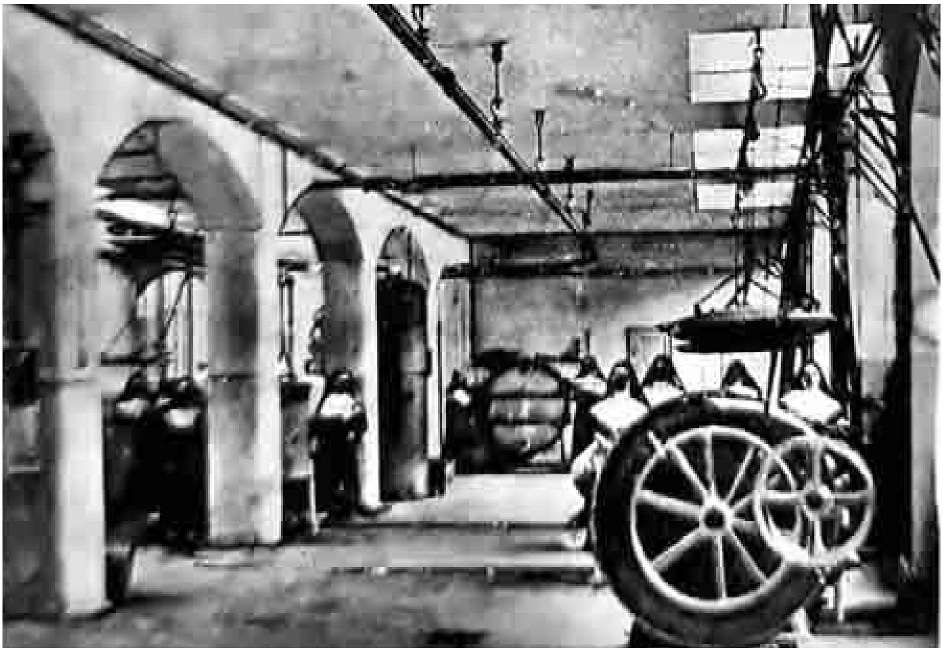

مغسل البيت الصغير

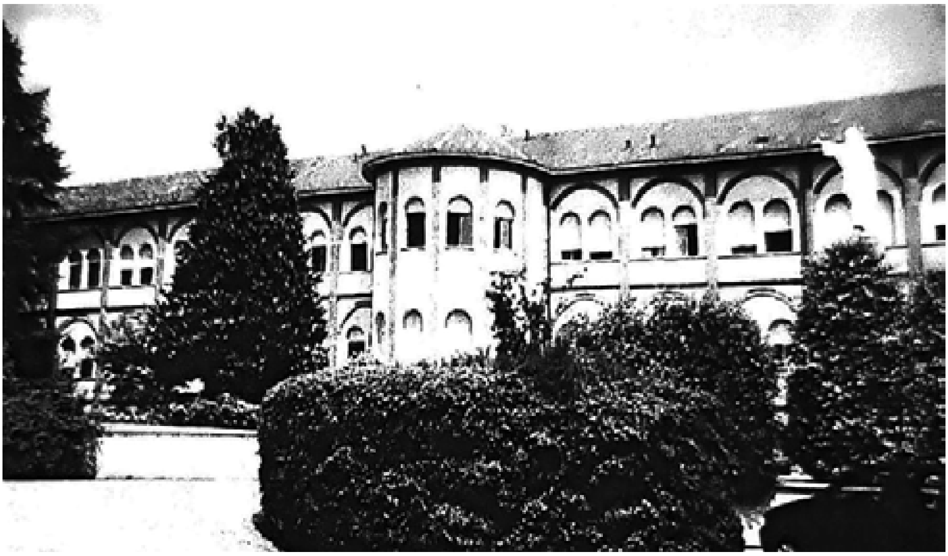

مبنى تمريض الراهبات

صيدليّة البيت الصغير

« المحبّة تتضاعف كلّما أُعطيَت »

ألبير شـــڤيتزر

« سرّ كلّ عظمةٍ هو تجاوز الذات »

جورج برنانُس

« إنّ الربّ، في محبّته، قد أعطى الفقراءَ وجهَه، لكي يخجل، لدى رؤيتهم، قساةُ القلوب، أعداءُ الفقراء »

القدّيس غريغوريُس النازينـــزي

« لقد تجسّد الله وتأنّس كي يعلّمنا ما هو الإنسان »

ستان روجييه

« يستطيع الإنسان أن يعطي أكثرَ ممّا يملك، إذ بوسعه إعطاء ذاته أيضًا. وأنا قد تعلّمتُ مدى الغنى الكامن في الفقر »

الأخت إيمّانويل

اقتِلاعٌ وإِعَادة غَرسٍ

فيما كان الأب يعمل ويحلم، ويُعدّ العدّة من أجل مشروع محبّةٍ كبيرٍ، غير حافلٍ بالمقاومة الحادّة التي كان يناصبه إيّاها أعداءٌ وأقرباء على السواء، نزلت به، من حيث لم يتوقّع، واقعةٌ لجمت نشاطه وأحلامه إلى حينٍ، تمثّلت في انتشار وباء الكوليرا في إيطاليا. ومع أنّ الوباء لم يكن قد اقترب، بعدُ، من مدينة تورينو، استغلّ جيران مشفاه هذا الواقع، احترازًا، أو ربّما مدفوعين من قِبَل من يُضمرون للأب شرًّا، وطالبوا وزير الداخليّة بإغلاق المستشفى الصغير، بدعوى أنّه البؤرة المثلى لاستدعاء الوباء. واستجاب الوزير، حرصًا على شعبيّته، وأمر بإغلاق المستشفى وإخلائه من نزلائه، في الحال. وكلّف محاميًا يُدعى "كوستا" كان يُعلن عداءً شرسًا وصريحًا للأب كُتُّلِنْغو، بتنفيذ القرار. فوُزِّع قسمٌ من المرضى على مستشفيات المدينة، وأُعيد آخرون إلى أكواخهم الزريّة، وإلى حياة الإهمال والبؤس التي كانوا يتخبّطون في حمأتها.

لا ريب أنّ ما حلّ بأولئك المساكين طعن قلب الأب كُتُّلِنْغو في الصميم. بيد أنّ إغلاق المستشفى كان لرئيس جمعيّة "جسد الربّ"، ولرفاقه سانحةً لصبّ جام غضبهم على زميلهم القدّيس. فلمّا اجتمعوا على مائدة العشاء، أبرز الرئيس، في وجه الأب، قرار الوزير، وبلهجةٍ حادّةٍ، ندّد بالخيبة المريرة التي أوصلتهم إليها مغامراته الطائشة. وأطلق معظم الأعضاء الآخرين العنان لألسنتهم، فأوسعوا زميلهم ملامةً وشماتةً. ولكن، لا التنديد، ولا الملامة، ولا الشماتة، لقيت سبيلاً إلى النيل من هدوء الأب، وفرحه الداخليّ، وطيد الأركان. فلم ينفجر دفاعًا عن نفسه، ولم يُلقِ خطاباتٍ منمّقةً، بل أجابهم، هادئًا، باسمًا: "إنّكم تتكلّمون كلامَ من لم يزرع، يومًا، ملفوفًا. ولكنّي، أنا وُلدتُ في "بْرا"، وأعرف أنّ الملفوف يزدهر،

ويكتسب بهاءً ونكهةً، عندما يُقتلَع من تربته، ويُعاد غرسه في تربةٍ أُخرى. وهكذا سيكون مصير مستشفانا".

أُفرغ المستشفى إذن، ورتّبت الـفنسانيّات المكان، وغسلنَ ما كان يجب غسله، مطمئنّاتٍ إلى ثقة مؤسّسهنّ بالله.

وفي الواقع، لم يهدّ الإغلاق عزيمة الأب، بل أثبت قداسته وثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة. وفتح له آفاقًا رحبةً على تنفيذ أحلامه. فطالِبو خدماته كانوا على تزايدٍ مطّردٍ، ومستشفى القنطرة الحمراء ضاق بنـزلائه، وبات عاجزًا عن استيعاب المزيد، وليس في الجوار مكانٌ آخر يفي بالغرض. وراح يبحث عن تربةٍ جديدةٍ يُعيد غرس ملفوفته فيها. واستشمّ رئيس جمعيّة "جسد الربّ" مساعيه، فاستهجن واستوضحه:

- "أَبَعدَ ما مُنيتَ به من خيبةٍ، ما زال يراودك حلم بناء مستشفياتٍ؟ وهل تزعم القدرة على إطعام عشرين فقيرًا؟
- بل ستُطعم العناية الإلهيّة أكثر من ألف فقيرٍ، يا أبتِ!".

وبعد عشر سنواتٍ، وفيما كان الأب ما زال على قيد الحياة، كان مشروع مستشفى القنطرة الحمراء الصغير، قد أضحى مجمّعًا مترامي الأطراف يضمّ أكبر مستشفى في العالم، وملجأً لمختلف العاهات والإعاقات، وديرًا، ومدارس وإكليريكيّاتٍ، ويؤوي أكثر من ألفٍ وثلاث مئة فردٍ، ويطعم، يوميًّا آلاف الأفواه.

وحينئذٍ لم يشمتِ الأب بالذين حذّروه، منذ اللحظة الأولى، من استحالة استمرار حياة مستشفًى لا مواردَ له، ولا دعمَ من مرجعٍ قادرٍ، ولم يهتمَّ بتسفيه الحاقدين الذين زعموا أنّ إغلاق مستشفى القنطرة الحمراء كان عقابًا إلهيًّا على اعتداد الأب بذاته، ورفضه الاستماع إلى نصيحة الآخرين.

وكان قد واسى جميع الذين أحزنهم الإغلاق، ولا سيّما قلّةٍ من رفاقه في الجمعيّة شقّ عليهم انهيار مشروعٍ كان يؤتي خيرًا جمًّا. وكان قد عزّى مساعديه الأوفياء الذين اندفعوا بكلّ طاقاتهم إلى مؤازرته، بلا تحفّظٍ ولا حسابٍ، مأسورين بمحبّته الملتهبة للمرضى والفقراء، ونزاهته، وصدقه وتضحياته، وثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، وكان يردّد على مسامعهم: "إنّ الله يرى قلبنا ونوايانا. وهو سيصلح كلّ شيءٍ". أمّا سيّدات المحبّة والراهبات العتيدات فباح لهنّ: "أخشى أن يكون الله قد ضاق ذرعًا برداءتنا، فلنستغفرْه، ولنسأله أن يرشدنا إلى مشيئته. وإنّ لي ملء الثقة بأنّ الربّ يُعدّ لنا شيئًا أكبر، ويمهّد لنا دربًا أوسع من أجل الخدمة. فلنمضِ نحوه، إذن، مطمئنّين، ومستسلمين لمشيئته".

وواسى مساعده الوفيّ "رولاندو"، بطل المهامّ الشاقّة الذي كان يستمتع بالعمل الشاقّ إلى جانب الأب، أكثر من استمتاعه بالنبيذ الذي كان كلِفًا به، قائلاً: "اطمئنّ بالاً، يا رولاندو، فكلّ ما يحدث الآن هو للأفضل، وسترى!".

مستشفى القنطرة الحمراء يتحوّل مؤسّسةً اجتماعيّةً

أُغلق مستشفى القنطرة الحمراء الصغير، يوم ١٨٣١/٩/١٩، فرقص إبليس وأعوانه فرحًا وشماتةً. ومع ذلك، لم ينعم الأب كُتُّلِنْغو بعطلةٍ طويلةٍ. فبعد نحو شهرٍ، أي يوم ١٨٣١/١٠/٢١، التقى الأب كُتُّلِنْغو في الطريق فتاةً تتسوّل. وجرى بينهما الحوار التالي:

« – يا ابنتي، أنتِ سليمة الجسم، وقويّة البنية. فالحريّ بك أن تعملي، لا أن تمدّي يدك على الطرقات.

– أتمنّى أن أعمل. ولكن، في هذا الزيّ المهلهل، وبشاعة منظري، لا أحد يريدني. حتّى والداي.

– أيّتها المسكينة، تظنّين أنّ الجميع ينبذونك. ولكنّ، في السماء، أبًا لم ينسَك. تعالي معي. »

ومضى بها إلى ملجأ القنطرة الحمراء، وبادر الأُمّ ماريّا أنّا قائلاً: "أليس حماقةً أن ندفع كراء هذا المكان وضرائبه، وندعه شاغرًا؟". وها إنّ العناية الإلهيّة ترسل لنا مستأجرةً ستكون حجر أساس أُسرةٍ، سنقدّمها للقدّيسة أُرسُلا (Ursula)، التي نحتفل بذكراها اليوم. هذه، إذن، هي "الأُرسُلاويّة" الأولى، وستحمل جميع القادمات الجديدات هذا اللقب عينه.

وسرعان ما شغلت الأَسرّة الخمسة والثلاثين "أُرسُلاويّاتٌ" كنّ فتياتٍ متسوّلاتٍ، منبوذاتٍ، ساكناتِ الشوارع. فأُلبِسنَ ثيابًا لائقةً، وتعلّمنَ النظافة، والسلوك الصحّيّ، والعمل الكريم، وتلقّينَ التعليم الأساسيّ، والتعليم المسيحيّ.

ثمّ وجدت الأُمّ ماريّا أنّا، بجوار القنطرة الحمراء، غرفًا شاغرةً فاستأجرها. وحوّلها الأب إلى جناحين استقبل فيهما أطفالاً، كان آباؤهم وأمّهاتهم يتركونهم،

وحيدين، ويمضون إلى العمل خارج البيت. وبذلك ابتدع ما بات يُعرف بـ "حدائق الأطفال".

هذان المشروعان كانا بمثابة مؤسّسةٍ خيريّةٍ كاملةٍ، تستلزم جهدًا ومالاً، ومع ذلك، لم يطلب دعمًا حكوميًّا، ولا استعان بميزانيّة الرعيّة.

واستمرّ الأب يضطلع بمهامّه الراعويّة كاملةً. ولكنّ همّ المرضى لم يبارحه، لحظةً، ولم تغبْ، قطّ، عن باله المرأة الفرنسيّة التي ماتت تحت ناظريه، لأنّ جميع المشافي والملاجئ رفضت استقبالها، وما انفكّ يسكنه الشعور بأنّه مدعوٌّ إلى تأسيس مركزٍ طبّيٍّ كبيرٍ، يقدّم أفضل الخدمات لأكبر عددٍ ممكنٍ من المرضى المحرومين.

واتّضح من سيرة الأب كُتُّلِنْغو أنّ كلّ ما باشره من مشاريع كان حافلاً بحسٍّ إنسانيٍّ فائقٍ، يضمن له النجاح والاستمرار. وتبيّن، أيضًا، أنّ العناية الإلهيّة تستخدم، أحيانًا، ما يبدو كارثةً وانهيارًا، وتحوّله إلى إنجازاتٍ مدهشةٍ.

كثيرون كانوا يقرأون في عيني الأب كُتُّلِنْغو عزيمةً على تحقيق أعظم ممّا كان. وهو كان، في دخيلة نفسه، مؤمنًا أنّ العناية الإلهيّة ارتضت إغلاق المستشفى الصغير، من أجل نقله إلى موقعٍ آخر يوفّر له توسُّعًا بلا حدودٍ.

وذات يومٍ توجّس أخوه الراهب خشيةً من إقدامه على مغامرةٍ جديدةٍ، فسأله: "ما الذي تنوي فعله؟" فأجابه: "العناية الإلهيّة تعلم خيرًا منّي ومنك: فها هي الأسرّة والأغطية ما زالت بحالةٍ جيّدةٍ، وقد غُسلَ كلّ شيءٍ ورُتّب... وكلّ شيءٍ جاهزٌ لاستقبال مرضى".

فانتفض الراهب مستنكرًا، وداعيًا أخاه إلى التعقّل، والتزام الهدوء، والعُزوف عن بناء قصور رمالٍ. ولكنّ الأب جوزيف ردّ بسكونٍ وثقةٍ:

- كأنّك، يا أخي، لستَ من قرية "بْرا"، ونسيت قول مزارعينا المأثور: إنّ الملفوف الذي لا يُقتلَع ويُعاد غرسه في تربةٍ جديدةٍ، لا ينمو نموًّا مرضيًا".

- "يا لها من فكرةٍ حمقاء! أؤكّد لك أنّك لن تفلح في غرسٍ جديدٍ.
- "أعلم أنّني، بمفردي، لن أقوى على شيءٍ. ولكن مثلما رتّبت العناية الإلهيّة سابقًا سترتّب لاحقًا".

حتّى أدنى المقرّبين من الأب ما كانوا يحسنون سوى الانتقاد والهزء، ومقاومة كلّ جرأةٍ وتجديدٍ، ولكنّ جميع تلك المواقف لم تكن له سوى نخس إبرةٍ في جلد فيلٍ. وكان يوجعه في الصميم البؤس الذي يشهده، والذي كان يجتاح نفسه في كرسيّ الاعتراف، فينوء تحت وقر ضعفه وعجزه. ولكن، وراء الضعف والعجز، كان يثوي الله وعنايته.

« ليس مسيحيًّا مَن يفقدُ الرجاءَ، ويتردّى إلى اليأس »

رينيه غروسّي

« بمنأى عن التضحية، لا عظمة، ولا جمال، ولا قداسة. ولا يتوافق الإنسان مع نظام الكون، إلاّ بتخلّيه عن قسطٍ من حرّيّته »

الدكتور أليكسي كاريل

« العطفُ هو أجمل ما في الله من إنسانيّةٍ، وأسمى ما في الإنسان من ألوهةٍ »

ستان روجييه

« المحـبّـةُ هي ألِفُ كـلِّ فضيـلةٍ ويـاؤُهـا »

كونت سـپونـڤيل

الفصل الثالث

مغامرات المحبّة

« ليست الحضارة عديدًا، ولا قوّةً، ولا ثروةً، بل هي رغبةٌ صبورٌ، طموحٌ، عنيدةٌ، ومضطرمةٌ، في تحرير العالم من كلّ ظلمٍ وألمٍ، وبؤسٍ. إنّها المحبّة »

"راوول فوليرو"

« لأصغر مبادرة محبّةٍ قيمةٌ لامحدودةٌ. فهي ليست قطرةً في بحرٍ، بل هي بحرٌ في قطرةٍ »

"أندريه فروسّار"

ومضـــات

- « **الحبّ الحقيقيّ لا ينضب، بل بقدرِ ما يُغرَفُ منه، يزدادُ امتلاءً** »

سانت اكسوپيري

- « **العطفُ هو أجمل ما في اللّه من إنسانيّةٍ، وأسمى ما في الإنسان من ألوهةٍ** »

ستان روجييه

- « **المحبّة تُعيض عن كلّ شيءٍ، ولا شيء يُعيض عنها** »

موريس بلوندِل

- « **لا يسير الرجاء إلاّ برفقة أخَوَيه: الإيمان والعطف، يسبقهما تارةً، ويلحق بهما تارةً أُخرى** »

ستان روجييه

ازدهار النبتة المقتلعة

أُودعت أسرّة مستشفى القنطرة الحمراء وأغطيتها في مكانٍ أمينٍ، ريثما تعود الحاجة إليها، وتحوّل البناء ملاذًا ومدرسةً للفتيات المهملات والمشرّدات، ودار حضانةٍ.

في هذه الأثناء، ما انفكّ حدْس الأب يؤكّد له أنّ كلّ ما حدث، لم يكن سوى خطوةٍ لا بدّ منها في سبيل تأسيس مستشفًى مجّانيٍّ كبيرٍ، قادرٍ على استيعاب كلّ ألوان البؤس البشريّ. وبما أنّ وسط مدينة تورينو لم يكن يتيح مساحةً كافيةً لتحقيق حلمٍ بحجم المحبّة اللامحدودة، وحرّيّة التوسّع بلا عائقٍ، قاد الأبَ حدْسُه إلى حواشي المدينة، إلى منطقة تُدعى "ڤـلْدوكّو" (Valdocco)، حيث تمتدّ أراضٍ بورٌ، تناثرت فيها، على مسافاتٍ متباعدةٍ، ملاهٍ، وحاناتٌ مشبوهةٌ، تحوّلت مرابعَ للفجور والسكر، بعيدًا عن الأنظار، وبيوتٌ متواضعةٌ، وأكواخٌ متداعيةٌ. ووطّن الأب العزمَ على طرد الشيطان من تلك الرقعة الموبوءة، وتحويلها قلعةً للمحبّة المسيحيّة، ومشتلاً للقداسة والبطولة، وهيكلاً لسخاء العناية الإلهيّة. وقد شجّعه على المضيّ قدُمًا في ما حزم عليه أمره قربُ المكان من مزار "سيّدة العزاء".

وبلا تردّدٍ اشترى الأب بيتًا متداعيًا، كان سيّئ السمعة، مؤلّفًا من غرفتين وإسطبلٍ ومستودعٍ للعلف. وأكبّ على ترميمه وتأهيله. وانبرى صديقه البنّاء "كوپاسّو"، مع عاملَيْن، على إنهاء هذه المهمّة في أقصر مهلةٍ، وبمساعدة الأب كُتُّلِنْغو الذي كان يأتيهم بموادّ البناء، وبالطعام والشراب، ويشيع في نفوسهم الحميّة والاندفاع، أُهِّل البيت بسرعةٍ. وحينئذٍ استأذن الأب جمعيّته باستعادة أثاث مستشفى القنطرة الحمراء، تدريجيًّا، إلى خارج المدينة. ولبّت الجمعيّة طلبه بطيبة خاطرٍ، سعيدةً بانعتاقها من تبعات مغامراته.

وبما أنّ المسافة بين الموقع الجديد في "ڤـلْدوكّو" ووسط المدينة غدت شاسعةً، ابتاع الأب عربةً وحمارًا، كي يحرّر صديقه "رولاندو" من مشاقّ النقل على ظهره.

وكان النـزيلَ الأوّل شابٌّ تعيث الآكلة (الغنغرينا) في ساقه إتلافًا. وقد جيء به من تورينو في موكبٍ مؤثّرٍ. فبعد أن جثا الأب أمام رئيس الجمعيّة ونال بركته، رسم إشارة صليبٍ إيعازًا بالانطلاق، وتقدّم هو الموكب، يليه رولاندو يقود العربة التي استلقى عليها الشابّ العليل. واختتمت الموكب الأُمّ الرئيسة ماريّا أنّا نازي وراهبتان.

ولم يكن للراهبتين مكانٌ للإقامة داخل البيت فاتّخذتا من مستودع العلف مقرًّا للإقامة، والنوم، والصلاة. وخُيِّل إليهما أنّهما في مغارة بيتَ لحـم، فسـبحتا في الفرح، وضحكتا ملء شدقيهما. ومن المؤكّد أنّهما ما كانتا لترتضيا استبدال ذلك المستودع بأفخر منـزلٍ زاخرٍ بمرافق الرفاه.

ولم يلبث الأب أن ابتاع بناءً ملاصقًا للبيت الأوّل، كان يؤوي معمل قبّعاتٍ مؤلّفًا من طبقتَيْن، وكان صاحبه يعاني ضيقًا ماليًّا. فاشترى الأب إحدى الطبقتَيْن، وفيما كان يؤهّلها، اشترى الطبقة الأخرى بكلّ محتوياتها، تسهيلاً لشرائها. وهكذا تسنّى له استخدام خمسين غرفةً. واستقدم المزيد من الراهبات. وبعث برسالةٍ إلى صديقه الوفيّ الدكتور "غرانيتّي"، قال له فيها: "لقد افتتحت مستشفًى جديدًا، ولم أشأ أن يظفر أحدٌ سواك بثواب العمل فيه، فهل أنت جاهزٌ؟" ومع أنّ الدكتور كان يتمنّى التنعّم بعطلةٍ إثر إغلاق مستشفى القنطرة الحمراء، إلاّ أنّه سارع إلى الإجابة: "إنّ ما فعلتُه من قبلُ، يسعدني أن أمضي به قدُمًا. فأنا لمرضاك المعالج، وأنا لك الابن المطيع، دائمًا!".

وهكذا، بعد أن توفّر للأب جهاز الطبّ والتمريض، لم يعد يوقفه شيءٌ عن التوسّع.

وكان معياره في شراء البيوت موقعها الصحّيّ، وسهولة الحركة والخدمة فيها، ووجود سلالم سهلة الاستخدام. أمّا دفع أثمانها فكان يوكله إلى العناية الإلهيّة، وإلى سخاء النفوس الكريمة، وإلى أصدقاءَ كان حاذقًا في استقطار معونتهم. مثال ذلك أنّه

كان، ذات يومٍ، يسير مع كاهنٍ صديقٍ له. ومرّا أمام نزلٍ، فدعا الأب زميلَه إلى الدخول، وتناول كأس نبيذٍ. وقبل زميله الدعوة شارطًا أن يكون، هو، دافع الحساب. ولمّا جيء لهما بالشراب سأل الأب زميله أن يتذوّقه، فاستطابه. وحينئذٍ طلب الأب من صاحب النـــزل أن يرسل مئة ليترٍ من هذا النبيذ عينه إلى *البيت الصغير* ، وأن يقبض ثمنه من صديقه الكاهن الذي وافق ضاحكًا، فرحًا.

ومضى الأب قُدُمًا في شراء كلّ ما يجده مناسبًا في الجوار. فاشترى بيتًا آخر، وحانةً مشبوهةً عمّدها باسم "بيت الإيمان"، ثمّ اشترى أرضًا رحبةً طلب من البنّاء "كوپـــاسّو" إعدادها لتكون مستشفًى يتّسع لمئتي سريرٍ.

وما انفكّت البيوت الجديدة المبتاعة تتكاثر، مثل تكاثر الخبز بفعل بركة الربّ. ومع تكاثرها كانت تتكاثر دعوات الأخوات المساعدات والإخوة المساعدين. وعند كلّ شراء، كان الأب يقفز، منتشيًا، ظافرًا، هاتفًا: "لقد هُزِم الشيطان". وكان يعمّد كلَّ بيتٍ جديدٍ باسمٍ مسيحيٍّ. فبعد "بيت الإيمان"، صار للربّ "بيت العناية الإلهيّة"، و"بيت الرجاء"، و"بيت المحبّة"، و"بيت الله"، و"بيت بيتَ لحم"، و"بيت السيّدة العذراء". وقد وُجِد، لاحقًا، على قفا لافتةٍ تحمل شعار "محبّة المسيح تحثّنا" عنوانُ "نزل السكارى".

هذه الفورة المباركة كانت تفعم قلب الأب حبورًا ومرحًا. وهو كان كلِفًا بالمرح، ومؤمنًا بفوائده، وبحكمة الشاعر "پــيغي"، الذي قال: "الحياة صعبة الاحتمال حتّى في الفرح، فما عساها تكون إذا أُضيفت إليها الكآبة؟". ولكنّ أخاه الراهب لم يكن يقاسمه مرحه وتفاؤله، بل ما زالت تؤرّقه عواقب مغامراته الجامحة، فجاءه محذّرًا: "هل يطيب لك أن تُطرد، مرّةً ثانيةً؟". وطمأنه الأب، باندفاعٍ لا يُقاوَم، ولا تعيقه عقباتٌ، مشيرًا بإصبعه إلى آفاق بعيدةٍ، وأكّد له: "سترى، يا أخي، كيف سيمتلئ هذا السهل حتّى أطرافه، شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، ببيوت العناية الإلهيّة!"، وكأنّه صدًى لقول الربّ في أشعيا: "وسّعي خيمتك، وليبسطوا جلود مسكنك... طوّلي أطنابك، وثبّتي أوتادكِ، فإنّك تتجاوزين إلى اليمين وإلى اليسار...".

اكتفى الأخ الراهب بهزّ رأسه، تعبيرًا عن عدم اقتناعه، ولكنّه، في دخيلة نفسه، تساءل: "هل أخي مجنونٌ أم إنّه قدّيسٌ؟" أمّا الراهبات "الـڤنسانيّات" فلم يكن يساورهنّ أدنى شكٍّ في قداسة أبيهنّ. وكانت نبوءاته تهمي على نفوسهنّ، وكأنّها أقوال الربّ. وقد خاطبهنّ قائلاً: "أنتنَّ، الآن، قبضةٌ من الفتيات المُشبعات بروح القدّيس ڤنسان، وما زال هذا البيت صغيرًا. ولكن سيأتي يومٌ يأكل فيه آلاف الناس خبز العناية الإلهيّة، وسيصبح هذا البيت مدينةً كبرى".

ومع ارتياح الراهبات لأقواله، كانت بعضٌ منهنَّ يتمنّينَ أن يُتاح لهنّ مزيدٌ من الوقت للتأمّل والصلاة. وفي الواقع كان الأب يتوقّع إنشاء فرعٍ موقوفٍ على التأمّل والدعاء، يرسل إليه الراهبات اللواتي أنهكهنّ العمل الشاقّ. وأُخرياتٍ اشتقنَ إلى الزمن الذي كنّ يقضينَه في الغناء بلا انقطاعٍ، ولمس الأب فيهنّ هذا التوق، فوعدهنَّ: "اصبرنَ، فسيكون لكنّ، قريبًا، ديرٌ مغلقٌ، وكاپيلاّ، حيث ستتسنّى لكنّ الاستراحة والترتيل بقدر ما تشتهينَ".

كان يرى، رؤية العين، المنشآت التي يحلم بتأسيسها، وكانت ثقته بتحقيقها ثابتةً كالطود. وإذا سُئل عن المكان الذي سيؤوي كلّ هذه المشاريع، كان يجيب أنّ وظيفة *البيت الصغير* هي أن يكون "سفينة نوحٍ" تؤوي جميع أجيال البؤس البشريّ. وكان يطمئن راهباته بقوله: "إنّ بعضًا منكنّ ستعملنَ في المستشفيات وفي المدارس، وعندما ستتقدّمنَ في السنّ، وتَعُدنَ إلى *البيت الصغير* سيدهشكنّ النموّ الذي تحقّق فيه".

وبانتظار أجَل الانقطاع للتأمّل والصلاة والترتيل، كان على الـڤنسانيّات أن يعملنَ في أسوأ مطارح تورينو سمعةً، ويتعرّضنَ، كلّ يومٍ، إلى الشتائم، وضربات الحجارة، والتخبّط في الوحل. ولم يهنْ على الأب ما كانت تُقذَف به راهباته من إساءاتٍ. وانتقم خير انتقامٍ بشرائه كلّ البيوت التي كانت تنطلق منها الشتائم والأقوال المقذعة، وبذلك كان يحرّر المنطقة كلّها من الأوغاد، ولا سيّما أنّ تقاطر

المرضى مستمرٌّ، ولا بدّ من إيوائهم. وكان الأب كلّما اشترى بيتًا يقفز قفـــزتين، فرحًا بطرد الشياطين.

ولم يخمد اندفاع الأب إلى ابتياع كلّ بيتٍ وكلّ رقعة أرضٍ في الجوار، التي كان يسارع إلى إعدادها لتكون موئلاً لكلّ الأسقام وكلّ ألوان الشقاء. كـــان يـــدمّر البيوت العتيقة ويعيد بناءها، ويعمّر الأراضي المشتراة، موسّعًا، بهذه وتلك، خيمة المحبّة التي تعانق كلّ بؤسٍ بشريٍّ، وتقضي على كلّ أصناف الأنانيّة والمستحيلات.

وبما أنّ المحبّة تأمر وتدبّر كلّ شيءٍ، فقد التهم *البيت الصغير*، رويدًا رويدًا، كلّ البيوت والأبنية والعقارات المجاورة، برضى مالكيها وطوعهم. وفي سبيل تسهيل شراء بيوتٍ ومحلّاتٍ مجاورةٍ، لم يكن الأب يحجم، أحيانًا، عن شراء محتوياتها معها، حتّى التي لا علاقة لها بالمستشفيات وخدمتها، آملاً بيعها، ذات يومٍ، وتوظيف أثمانها في أعمال المحبّة.

واتّفق أن عَرَض مالكون ممتلكاتهم، تحت ضغط الحاجة إلى مالٍ، بأثمانٍ بخســةٍ. ولكنّه كان، دائمًا، يربأ بنفسه عن استغلال حاجةٍ، ويحرص علـــى دفـــع الـــثمن العادل. ولكن إذا اضطرّته، هو، حاجةٌ ملحّةٌ إلى شراء أيّ عقارٍ، فكـــان يُنـــاور بذكاءٍ وجرأةٍ، كي يحصل عليه. مثال ذلك أنّه، لّما تضاءلت وطـــأة الكـــوليرا في تورينو، وأُغلقت مراكز الحجر الصحّيّ، اتّفق أنّ سيّدةً في طور التعـــافي، كانـــت وحيدةً في محجرٍ، فارتأى المسؤولون إخراجها، وإرسالها إلى مكانٍ آخر. وبما أنّه لم يكن لها ملجأٌ سوى الشارع، اتّجهـــت الأنظـــار إلى "كُتُّلِنْغـــو"، وأُرســـلت إلى *البيت الصغير*. وبعد يومين، فيما كان الدكتور "غرانيتّي" يتفقّد أوضاع المرضى، صُعِق بوجود تلك السيّدة المصابة بالكوليرا، وإصابتيْن أُخريَيْن في القاعة. فجُـــنَّ جنونُه، ولام الأب والممرّضات لاستقبالهم تلك المصابة ووضعها مع الآخرين، بلا حيطةٍ ولا حذرٍ. وألحّ الطبيب على واجب نقل الحالات الـــثلاث، في الحـــال، إلى مكانٍ آخر، بعيدٍ عن سائر المرضى.

وفي الحال، هبّ الأب، وخرج، وهو لا يملك فلسًا واحدًا. ودخل مبتسمًا، إلى نزُلٍ قريبٍ، وبادر المالك بسؤاله:

- هل يدرّ عليك هذا النــزل دخلاً وفيرًا؟
- كلاّ! يبدو أنّ الناس قد عزفت عن شرب النبيذ، وأنّني سأصبح، أنا، الشارب الوحيد. مع أنّي أملك مخزونًا كبيرًا من أفخر نبيذٍ.
- وهل أنت مستعدٌّ لبيع النــزل، والاستفادة من ثمنه؟
- وهل من مشترٍ؟
- أنا أشتريه، وكلّ مخزونه من النبيذ، شرط أن أستلمه في الحال، وأن تغادره أنت وأُسرتك الآن. وسأعود بعد لحظاتٍ.

وهرع الأب، واستدعى راهباتٍ أكببنَ على تنظيف المكان، وتزويده بأسرّةٍ، وإشعال نار تدفئةٍ فيه، فيما كان صاحب النــزل وأُسرته يكملون إخلاءه.

وعند منتصف الليل، أعلن الأب للدكتور غرانيتّي: "المحجر جاهزٌ!".

هكذا نهضت مدينة "كُتُّلِنْغو"، على سواعد العناية الإلهيّة، التي كانت تستجيب لتوسّلات عشرات الأيادي المضمومة، أيادي الفقراء الخشنة، المهترئة، التي شوّهها الكدّ، والمرض، والشيخوخة، وأيادي الـــڤنسانيّات، والإخوة المساعدين، والراهبات العابدات المتأمّلات اللواتي جعل منهنّ الأب دعاماتٍ لبيته.

وما أكثر الذين وقفوا كلّ ثرواتهم وإرثهم على *البيت الصغير* !

سَفينة نوحٍ تزدحِم باللاجئينَ إليها

استمرّ الأب "كُتُّلِنْغو"، في ابتياع بيوتٍ وأراضٍ، وإعدادها لإيواء المتقاطرين من كلّ صوبٍ، مُثقَلين بشتّى العاهات، والأسقام، والمصائب.
لم يكن يشتري شغفًا بالشراء، ولم يكن يبني متعةً بالبناء. وغالبًا ما كان يُعدّ الأماكن، والعناية الإلهيّة ترسل مَن يشغلونها، أو ترسل له أصحاب احتياجاتٍ فيهبّ لاستقبالها استقبالاً لائقًا.

وربّما ثوى سرّ نجاح مشاريع الأب "كُتُّلِنْغو" وازدهارها في أنّ العناية الإلهيّة هي التي تلهمها، وتشير إليها، وتوفّر لها المال والأيدي العاملة، وتباركها. وكان الأب "كُتُّلِنْغو" هو الأداة المنفّذة الطيّعة، المتفانية. كان الله هو الصانع وكلّ أعمال الله رائعةٌ.

فذات يومٍ، طرقت باب *البيت الصغير* امرأةٌ فقيرةٌ مصابةٌ بداء الصرع. ورأى الأب في مجيئها إشارةً سماويّةً، وفي الحال اشترى بيتَين، وخصّص أحدهما لاستقبال النساء المصابات بالصرع، وأوكل رعايته لشفاعة القدّيسة مريم المجدليّة، والآخر للرجال المصابين بالصرع، وأوكله إلى شفاعة الطوباويّ "أميدي الساڤواويّ" (Amédée de Savoie). ثمّ ألحق بهذين البيتين بناءً آخر من أجل إيواء الأولاد المصابين بهذا الداء، برعاية الملاك ميخائيل، وانشطر هذا البناء إلى جناحيْن ضمّ أحدهما "الميخائيليّين"، والآخر "الميخائيليّات".

عام ١٨٣٤ شهد ولادة دار "الأولاد الطيّبين"، وقد أطلق الأب هذه التسمية على من نبذهم المجتمع، وعدّهم حثالته، وقد شملت هذه التسمية المجروحين في عقولهم وذكائهم، والمحرومين من جسمٍ سليمٍ، ومنظرٍ طبيعيٍّ، ومحيطٍ صحّيٍّ: المعتوهين،

ومبتوري الأعضاء، وأصحاب العاهات المتنوّعة، والمصابين بتشوّهٍ خلقيٍّ مرعبٍ، فضلاً عن اللقطاء، والأيتام المهملين... هؤلاء، كان الأب يعدّهم جواهر بيته.

وكان قد اعتزم افتتاح هذه الدار يوم جيء إليه بفتاةٍ بلهاء، في الثانية عشرة، جائعةٍ، مرميّةٍ في الطريق و... حاملٍ. فقال عنها: "ستصبح هذه الفتاة درّة *البيت الصغير*، وحجر أساس دارٍ تستقبل نظيراتها. طالما تمنّيت استقبال هذه المخلوقات المسكينة. وها إنّ العناية الإلهيّة ترسلها لي. فلنُعِدّ حديقةً سيرى فيها العالم نبتاتٍ دخيلةً غريبةً. وهي في نظر المحبّة التي ينيرها الإيمان أجمل ما لدينا من زهورٍ".

ومن أجل أنقياء القلوب هؤلاء، أشاد الأب بناءَيْن جديدَيْن، ولكلٍّ منهما فناءٌ وحديقةٌ. ولم يسمح بأن يُطلَق عليهم نعْت "اللاطبيعيّين" أو "البُلْه"، بل سمّاهم "الصبيان الطيّبين" و"الفتيات الطيّبات"، وأوكلهم إلى شفاعة "الأطفال الأبرياء الشهداء".

وكان الأب، مع ضخامة المشاغل التي تلتهم كلّ ثانيةٍ من وقته، لا يفوّت سانحةً كي يقضي أطول وقتٍ ممكنٍ مع أولئك الأبرياء، الذين كانوا يسعدون بزيارة أبيهم. فمنهم من كان يفرح بتقبيل يده، ومنهم من كان يحاول إضحاكه بحركات وجهه ولسانه؛ ومنهم من كان يدفعه، وبعضهم كانوا ينقّبون في جيوبه. وكانت تلك الحركات البريئة تسرّب إلى نفس الأب فرحًا غامرًا.

وكان الأب يروّض الأشدّ منهم تمرّدًا، ويكبح الأشرس منهم ميولاً إلى الشرّ. وغالبًا ما كان يكمل نهاره المُضني، مصلّيًا لهم، ومستمدًّا القوّة من أجل إسعادهم. وقد حرّض عطفه عليهم وحبّهم له، بعضًا منهم على التمثّل به، فأحدهم كان يركع فوق سريره ويقلّد الأب مستغرقًا في الصلاة. وكان قزمٌ يرتدي ثوب خدّام الكنيسة، ويطلب أن توضع منضدةٌ أمام الهيكل، ويوضع هو فوقها، كي يبارك أترابه.

وكان الأب يؤثر من أولئك الأطفال أحدهم. وكان أكثرهم فظاظةً وبلاهةً. وكان يباريه، أحيانًا، بالكريات الحديديّة. واتّفق أن قدم الأُسقف، ذات يومٍ، راغبًا في التحدّث إلى الأب، ولم يجده لا في مكتبه ولا في الكنيسة، وأدركت راهبة الاستقبال أنّه مع "الأولاد الطيِّبين"، ومضت برفقة الأسقف إلى جناح هؤلاء، حيث وجدا الأب يلاعب الصبيّ. وبلّغه الأسقف رغبته في التحدّث إليه، ولكنّ الأب أجابه: "هذا لطفٌ منكم. ولكنّي أرجوكم إمهالي بضع لحظاتٍ، فقد بدأت لتوّي، مباراةً مع هذا السيّد المحترم، ولا أُطيقُ إغضابه، بوقف المباراة قبل الأوان". وأَغرق الأُسقف في الضحك، وشاركهما المباراة.

عام ١٨٣٥، شهد ولادة فرع "الجينيـــڤـــيـــڤيّات"، اللواتي أكملن عمل "الأُرسلاويّات" المهتمّات بالمراهقات الجانحات. وكانت قد برزت، في هذا المضمار، عقبةٌ مقلقةٌ، من جرّاء اختلاط الفتيات الموكلات إلى الأرسلاويّات بهؤلاء القادمات الجديدات اللواتي ما زلنَ متمرّداتٍ، متوحّشاتٍ، يُشعنَ في الدار جوًّا من الفوضى الوبيلة. وارتأى الأب إنشاء فرعٍ خاصٍّ لهنّ، وتمييزهنَّ بزيٍّ خاصٍّ، وإخضاعهنّ لنظامٍ أشدّ صرامةً. وأوكل الأب شفاعتهنّ إلى القدّيسة "جينيـــڤييـــڤ". وتولّت الأخوات "الـــڤنسانيّات"، بلطفٍ ودرايةٍ، إصلاحهنّ، وإعادة ترتيبهنّ، وتزويدهنّ بثقافةٍ ملائمةٍ، وبتلقينهنَّ عملاً يستطعنَ إتقانه.

وفي تلك السنة عينها أسّس الأب دارًا للعاجزين، رجالاً ونساءً، الذين يؤلمهم العيش عالةً على أفراد أُسرهم: عميان، ومشوّهين، ومقعدين، ومبتوري الأعضاء... لهؤلاء أوجد الأب في *البيت الصغير* إقامةً وعملاً. بدأ المشروع بعاجزٍ واحدٍ، ثمّ ما لبث أن ارتقى عددهم إلى أربعين. وقد حرص الأب ومعاونوه على إشغالهم بخدماتٍ صغيرةٍ في *البيت الصغير*، تتناسب مع قدراتهم، وتشعرهم بجدواهم، وتُمتِعهم بتذوّق فرح كسب عيشهم بجهدهم. كانوا يعيشون جماعيًّا،

متكاتفين. وكم كانت جميلةً مشاهدةُ قيام بعضهم بعملٍ بسيطٍ في مصنعٍ، أو بريّ الحديقة، وبالتكنيس، وبحفظ النظافة في كلّ مكانٍ. وقد أوكل الأب الرجال لشفاعة القدّيس أنطونيُس، والنساء لشفاعة القدّيسة "إليصابات".

لم يكن بوسع الأب اللامبالاة حيال أيّة عاهةٍ. وذات يومٍ، إذ كان خارجًا في عملٍ، استوقفه صبيٌّ يحدّق إليه بعينين لامعتَيْن، وتعتمل في داخله رغبةٌ حارقةٌ في الحكي والسماع والفهم. همٌّ ساحقٌ كان يجمّده، فلم تفترّ شفتاه المرتعشتان عن لفظةٍ واحدةٍ، ولم يحرّك ضجيج المدينة، ولا تحيّة الأب عضلةً في وجهه. ولكنّ انحناءة عطفٍ، ونظرة محبّةٍ كانتا الجواب على شكوى ذلك الأصمّ الأبكم، وبلّغتاه بأنّه قد أمسى له صديقٌ وحامٍ.

فالمحبّة الثاوية في قلب الأب، التي تستجيب لكلّ نداء بؤسٍ، قد رازت، في الحال، وجَع استغاثة ذلك العقل السجين وراء أسوارٍ منيعةٍ، ومدى عواقب هذا السجن نفسيًّا وروحيًّا. وران على ضمير الكاهن عجزه عن تمكين هذا الفتى ونُظَرائه من تسريب معرفة الله ومحبّته إلى أذهانهم ونفوسهم.

وفي الحال قرّر الأب استضافة هذا الفتى البائس في *البيت الصغير*، مع أنّه لم يكن يملك وسيلةً إلى غوثه. وبحث، فعلم أنّ كاهنًا فرنسيًّا قد ابتدع أبجديّةً للصمّ والبكم، وأنّ كاهنًا إيطاليًّا اخترع أُسلوبًا للتواصل مع أولئك المحرومين من حاسّة السمع. ولكنّ هذه الاختراعات لم تكن قد وجدت طريقها إلى الانتشار. ومع كلّ ما كانت تجيش به نفس الأب من عطفٍ على كلّ بؤسٍ، ومع كلّ ما كانت تجترح مشافيه من

معجزات شفاء سائر الأمراض الجسديّة، وقف حائرًا أمام وسيلةٍ لإعتاق ذلك الفتى المسكين من إعاقته، واقتصر على غمره بالمحبّة، وإسالة العزاء والرجاء إلى نفسه.

ولكنّ حيرته لم تطُلْ أمدًا، فقد تنامى إلى علمه أنّ الكاهن "أسّاروتّي"، يدير في جنوى معهدًا لتأهيل الصمّ والبكم، بيد أنّ هذا المعهد موقوفٌ على أبناء الأغنياء القادرين على دفع أُجرة الدروس الباهظة، ونفقات الإقامة. وبعد أيّامٍ معدوداتٍ التقى رجلاً صديقًا كان صمم ابنه وبكمه، قد حوّلا حياته مأساةً يوميّةً. فاستفسر عن حاله، وأقرّ الوالد بحزنٍ أنّه اضطرّ إلى الانفصال عن ابنه، وأودعه في جنوى لدى خبيرٍ تتلمذ على يدي الأب "أسّاروتّي". هذا النبأ كان ومضةً أضاءت في نفس الأب سبيلاً إلى ساحة محبّةٍ جديدةٍ. ومنذئذٍ لم يضنّ بوسيلةٍ حتّى جاء بالمدرّب "بوسّو" إلى *البيت الصغير*. وفي الحال اشترى بيتًا، أكبّ البنّاء "كوپاسّو" على تأهيله، ثم ألحق به بيتًا آخر، لكي يكون لكلٍّ من الذكور والإناث بيتٌ خاصٌّ، وأوكل بيت الذكور إلى شفاعة القدّيس فرنسوا الساليزيّ الذي كان يؤوي أصمَّ أبكم في دار أُسقفيّته. وأوكل دار الإناث إلى شفاعة القدّيس يوحنّا المعمدان، الذي أُصيبَ أبوه زكريّا بالبكم المؤقّت، عقابًا له على عدم تصديقه وعد الله.

وحينئذٍ، دعا الأب آباء صمٍّ وبكمٍ أن يرسلوا إليه أبناءهم، إذا شاؤوا. ولمّا شرع المدرّب "بوسّو" بتدريباته، انتظم الأب في صفّ المتدرّبين، يحدوه دافعان: أوّلهما رغبته العارمة في التواصل مع المحرومين من طاقَتَيْن أساسيّتَيْن، وثانيهما مواصلة تأهيلهم في حال قرّر المدرّب العزوف عن متابعة هذه المهمّة. ولكن، لم يتوقّع الأب أن يأخذ جوّ *البيت الصغير* مأخذًا آسرًا من نفس "بوسّو"، وأن يسعد المدرّب بالعمل مع الأب "كُتُّلِنْغو" حتّى اعتزامه التطوّع الدائم لهذه المهمّة، وارتدائه ثوب إخوة القدّيس ڤنسان دي پول؛ واستمرّ في عمله مؤهّلاً صمًّا وبكمًا، ومُعِدًّا مرشدين كُثُرًا يستطيعون متابعة أعماله، جيلاً فجيلاً، على أوسع نطاقٍ. وبعد عملٍ طويلٍ خصبٍ، عاد إلى خالقه، من *البيت الصغير* مُثقلاً بالخير الذي حقّقه.

وسرعان ما نما فرع الصمّ والبكم نموًّا مدهشًا. وكما يحدث، غالبًا، لكلّ مشروعٍ خيريٍّ ناجحٍ، شاعت حوله افتراءاتٌ زعمت تعرّض الصمّ والبكم في *البيت الصغير* للإهمال. وتنامت هذه الشائعات إلى مسامع الملك "شارل ألبير" الذي لم يصدّقها، فكلّف مستشارًا بالتحقيق، وجاء المستشار متنكّرًا، واستوضح الصمّ والبكم عن أحوالهم. وتبيّن سلامة تعليمهم وتأهيلهم، وتيقّن من عطف الأب عليهم، وحرصه على تعليمهم وإسعادهم.

وذات يومٍ، تفقّد الأب جناح الصمّاوات والبكماوات وقت العصرونيّة، فوجدهنّ يقضمنَ خبزًا مطليًّا بالزبدة، فعاتب الراهبة المشرفة عليهنّ:

- "كيف؟ أليس لهنّ شيءٌ آخر؟"
- "لا شكّ أنّ العناية الإلهيّة لا ترضى بذلك، ولكن ليس لدينا شيءٌ آخر".

وبلا تردّدٍ، انتشل الأب من جيبه قطعةً ذهبيّةً، وقال للراهبة: "اشتري بها شرائح جنبون، وأعطيهنّ منها بقدر ما يشتهينَ، وإذا لم يبقَ منها شيءٌ، فستتدبّر العناية الإلهيّة الأُمور، مثلما أَلِفت أن تفعل دائمًا".

وما زال العطف على الصمّ والبكم من أروع ميّزات *البيت الصغير*. وكان الأب يضجّ فرحًا وهو يشهد تلك الفئة من نزلائه تشارك، بأيديها وحواسّها الآخرين وهم ينشدون التراتيل. ولطالما راوده رجاءٌ بأن تنبعث من هذه المجموعة أمثلة قداسةٍ، وقد تحقّق رجاؤه!

وكانت تبرز في أُسر المرضى والفقراء والأيتام نفوسٌ قويّة العريكة، منيعةٌ، متفائلةٌ، مقدامةٌ. فكان الأب يقيم لذكورهم جماعة "اللويسيّين" (Luigini)، وللإناث جماعة "اللويسيّات" (Luigine)، حيث يُلقَّنون مهنةً تساعدهم على حياةٍ مستقلّةٍ. أمّا الذين يُسفرون عن دعوةٍ مقدّسةٍ فيلحقهم بالإخوة الصغار (Fratini)، كي ينضمّوا، لاحقًا، إلى إخوة القدّيس ڤنسان، أو يصبحوا كهنةً. ويُلحق من تشاء من الإناث الورعات بالراهبات الـڤنسانيّات.

فتياتٌ طيّباتٌ (معاقاتٌ ذهنيًّا) – جواهر "البيت الصغير"

الفتيات المصابات بالصرع

"الأولاد الطيِّبون" (المعاقون عقليًّا)

شعار البيت الصغير وتنفيذه

ذات صباحٍ، جاء الأب يضجّ بشْرًا، شاهرًا لافتةً دوّن عليها بحروفٍ ضخمةٍ شعار مؤسّساته التي أمعنت نموّا، في تربةٍ جدباء. وكان الشعار مزدوجًا: "بيت العناية الإلهيّة الصغير، برعاية القدّيس ڤنسان دي پول"، و"محبّة المسيح تحثّنا".

وقد فسّر الأب هذا الشعار بقوله لراهباته:

« إنّه بيتٌ صغيرٌ، لأنّه، مقارَنًا بالعالم أجمع – بيت الله – هو مغرقٌ في الضآلة. وهو بيت العناية الإلهيّة وصنع يديه، لأنّ الله وحده يأمر فيه، ويرشد، ويدير، وللعناية الإلهيّة فيه الدور الأعلى والأشمل. وليست غايته العناية بالمرضى والمحرومين، فحسب، بل هو مُشرَعٌ لكلّ البائسين، رجالاً ونساءً، القادمين طالبين خبز العناية الإلهيّة. و*البيت الصغير* هو برعاية القدّيس ڤنسان دي پول، لأنّ هذا القدّيس هو حامي هذا البيت وملهمه، ومثاله الأعلى ».

أمّا شعار "محبّة المسيح تحثّنا" (المأخوذة من القدّيس بولس) فيعني أنّ *البيت الصغير* ليس مجرّد مؤسّسةٍ خيريّةٍ بشريّةٍ، بل هو ثمرة المحبّة الإنجيليّة، وعلى العاملين فيه أن يحدوهم روح يسوع، وأن تدفعهم محبّة ربّنا يسوع المسيح، المحبّة الحارقة الملتهمة التي تعانق بؤس العالم أجمع. ويجب أن يكون هذا الشعار نهج حياةٍ، وأن يُعلّق في كلّ مكانٍ، ويسجّل على أبواب كلّ مراكز الإخوة والأخوات ، وأن يُزيِّن صدورهم.

وكان الأب يشهد نموّ مشروعه نموًّا مذهلاً، بتواضعٍ جمٍّ، وبشكرٍ عميقٍ للعناية الإلهيّة، بمنأًى عن كلّ تبجّحٍ أو تفاخرٍ، ومع أنّ الضربات الموجعة لم تراعِه، فقد كان يرى المستقبل أكبر وأجمل من كلّ ما يمكن تخيّله.

محبّة المسيح تحثّنا

بيت العناية الإلهيّة الصغير

برعاية القدّيس ڤنسان دي پول

كُتُّلِنغو

وقد مضى قُدُمًا في شراء بيوتٍ وأراضٍ وبنائها. ومع أنّه لم يكن يراعي في بنائه فنًّا معماريًّا رائعًا، ولا زخرفةً، ولا تناظرًا، بل قصر اهتمامه على التوسّع توسُّعًا يتيح استيعاب أكبر عددٍ من النـــزلاء، ويُسهّل الخدمة بيُسرٍ وبلا عائقٍ. وكان عزاؤه الأكبر أنّ هذا التوسّع يمعن في طرد الشيطان. وفيما كان إبليس يفرّ مهزومًا، كانت تتدافع قوافل المقعدين والمعاقين عقليًّا، والمصابين بالصرع، والصمّ والبكم، والمكفوفين، والأيتام، وسائر المبليّين بشتّى العلل، والجياع إلى خبز العناية الإلهيّة.

وكان الأب يستقبل القادمين عند باب المبنى، فيرفع قبّعته احترامًا، ويرحّب بهم ترحيبه بسيّده وربّه، ويفيض عليهم عبارات مودّته. ثمّ يباركهم ويتلو معهم صلاة "السلام" أمام إيقونة السيّدة العذراء، شفيعة *البيت الصغير* ، المُعلّقة عند مـــدخل البناء. وكان يوعز إلى الجميع بوجوب اعتبار الضيوف الجُدد أهلَ البيت، وأنّهـــم يستحقّون أعمق احترامٍ، وأرقّ عنايةٍ.

وكان يفرز القادمين الجُدد، حسب عللِهم، ولكلّ فئةٍ منهم كان يخصّص قاعة طعامٍ، وقاعة نومٍ، وقاعات دروسٍ، وحديقةً، وإخـــوةً وأخـــواتٍ منـــدفعين إلى إحاطتهم بأعذب عنايةٍ.

كان يولي الأولويّة لأوجعهم ألمًا، ولأكثرهم إيحاءً بالنفور والتقزّز، ولأكثرهم إهمالاً. وبلا هوادةٍ كان يردّد: "جميع فقرائنا هم أسيادنا. غير أنّ الذين ينفّرنا مظهرهم هم ثلاث مرّاتٍ أكثر استئهالاً لمحبّتنا، فهم كنـــزنا وجواهرنا". وكان يؤكّد للراهبات أنّ العناية التي يحطنَهم بها هي الأكثر استئهالاً للثواب، وأنّهم هم أجمل الورود التي يسعهنّ إهداءها للربّ.

وكان إيثاره الثاني للمحرومين من كلّ سندٍ. وهذا ما برهن عنه، عندما جـــاءه كاهنٌ صديقٌ، أصبح أُسقفًا من بعدُ، بمريضٍ من رعيّته، ورجاه أن يُعنى به. فســـأله الأب: "هل أنت تساعده وترعاه؟". فأجاب: "أجل، فهو من صغار نعاجي ومـــن واجبي الاهتمام به"، فردّ الأب: "إذن، حسبه رعايتكم، وهـــو لـــيس بحاجـــةٍ إلى

رعايَتَيْن. ثابروا على العناية به، فهي جيّدةٌ، وأنا أنصرف لرعاية أبنائي، واعـذرني عن عدم استضافة مريضك!".

وفي نوبةٍ أُخرى، فيما كان الأب يتحادث مع أخيه الكاهن، جاءه رجلٌ، بمريضٍ وقال له: "إنّ مستخدمتي السيّدة... ترجو الشنوان كُتُّلِنْغو تقبّل هذا العليل، وهي ستحضر للتحدّث معك بشأنه"... وسارع الأب إلى الردّ: "قل لسيّدتك إنّ *البيت الصغير* لا يستقبل الذين لهم حماةٌ أغنياء، بل يقتصر على المهملين من الجميع".

وكم كان الأب كُتُّلِنْغو ينحني بعطفٍ ورقّةٍ على الفقراء، والمرضى، وأصحاب العاهات، والمهملين! وكم كان يسهر على طعامهم، وراحتهم، وخدمتهم! وكم حرص على ألاّ ينقصهم شيءٌ، وألاّ يزعجهم شيءٌ! كان يتفقّد بنفسه المطبخ للتأكّد أنّ كلّ ما يقدّم للنـزلاء طازجٌ، وصحّيٌّ، وأنّ كلّ مريضٍ ينال ما يشتهيه. ولم يكن يكفّ عن تذكير راهباته بأنّهنّ عندما يخدمنَ الفقراء والمرضى إنّما يخدمنَ يسوع وأُمّه. ومن ثمّ كان يناشدهنّ ألاّ يقبضنَ أيديهنَّ، وأن يعتمدنَ على سخاء العناية الإلهيّة اللامحدود.

وكان، أحيانًا، يقوم عند منتصف الليل، خلسةً، بجولةٍ تفقّديةٍ، كـي يواسـي مرضى مصابين بعلَلٍ منفّرةٍ. وكانت تلك الجولات تؤتيه بهجةً طافحةً...

وقد حرص، دائمًا، على تجهيز مستشفاه بأحـدث المعـدّات الـتي تسـتخدمها المستشفيات الكبرى. وكان جميع الرؤساء الكنسيّين الذين يـزورون *البيت الصغير* ، يتأمّلون بإعجابٍ ودهشةٍ معجزات المحبّة المحقّقة فيه، ويقرّون بأنّ ذلـك البيـت هـو "الوحيد الفريد في العالم". فقد حقّق، بمفرده، أفضل ما أنجزته سائر المؤسّسات الخيريّة في العالم أجمع. وهذا ما أكّده كاتبٌ فرنسيٌّ بقوله: "ما لم أجده في أوروبـا كلّها وجدته في تورينو، في *البيت الصغير* ، وفيه تأمّل قلبي، بحبورٍ، موسوعة المحبّة المسيحيّة".

وحقّق الأب معجزةً أُخرى، تمثّلت في إشاعة تناغم لا يفسده نشازٌ في "سفينة

نوحٍ" الزاخرة بالتباينات والاختلافات، وفي تحويلها إلى قلعة وحدةٍ وتضامنٍ. لقد كان حازمًا وصارمًا في مقاومة كلّ نميمةٍ ووشايةٍ. وكان بارعًا في تبديد الغيوم الكفيلة بإفساد صفاء الأجواء قبل أن تتكدّس وتتفجّر عواصف. وكان حاذقًا في إبقاء الفرح سائدًا في كلّ زوايا *البيت الصغير* . وقد صرّح أُسقفٌ، إثر زيارته للبيت الصغير: "إنّ أشدّ ما أدهشني هو قدرة رجلٍ بمفرده على إدارة هذه المؤسّسة، وعلى حفظ السلام والنظام فيها. فهذا أكثر إدهاشًا من القدرة على تأمين حاجات المؤسّسة المادّيّة".

وكان الملك "شارل ألبير" قد كلّف كاردينالاً بتفقّد أحوال *البيت الصغير* ، وأُسلوب إدارته. وبعد التحقيق دبّج الكردينال تقريرًا جاء فيه: "لقد زرت كلّ أقسام *البيت الصغير* ، فلم أجد فيه أيّ روحٍ بشريٍّ. فالبساطة، والمحبّة، والمودّة بلغت فيه قمّةً شامخةً. وإنّي موقنٌ أنّ دعم مؤسّس هذا العمل الجبّار والرائع ومساعدته يليقان بواجبات الدين، وبسخاء جلالتكم".

إنجازات العناية الإلهيّة المذهلة هذه أفضت إلى تحوّلٍ جذريٍّ في مواقف الكثيرين ممّن كانوا قد ناصبوا الأب "كُتُّلِنْغو" عداءً سافرًا وشرسًا، وأبرزهم وزير الداخليّة الذي كان قد أمر بإغلاق مستشفى القنطرة الحمراء، وهو يقطر حقدًا، ثمّ أمسى من أشدّ المعجبين بإنجازات الأب القدّيس، ومن أسخى المشجّعين لها. وأعلن: "كنت أوّل مضطهدي بيت العناية الإلهيّة الصغير. والآن، بنعمة الله، فُتِحت عيناي، ورأيتُ حقيقة "كُتُّلِنْغو" وروعة أعماله". وقد أمسى ذلك الوزير أوفى زائري *البيت الصغير* مثابرةً، ومن أسخى المحسنين على نزلائه، ومن أشدّ المواظبين على سماع عظات الأب تأثّرًا. ولّما استقال من وظيفته، اختار *البيت الصغير* ملاذًا ينهي فيه حياته، ويلفظ أنفاسه الأخيرة فيه بين يدي صديقه الكاهن القدّيس.

ذاك هو انتقام العناية الإلهيّة.

بوادر محبّةٍ تتخطّى البيت

وفضلاً عن فروع البيت المتعدّدة، كان كلّ مشرّدٍ، وبردانٍ وجائعٍ يلقى فيه مأوًى، ودفئًا، وطعامًا. ففي أيّام الشتاء، كانت مستودعات البيت وأهراؤه ترحّب بكلّ عابر سبيلٍ مُعدَمٍ.

وفيما كان الجميع ينظرون، بدهشةٍ، إلى جسامة مشاريع كُتُّلِنْغو، لم يكن الأب يرى في *البيت الصغير* سوى ملجأٍ متواضعٍ، وكان يتمنّى أن يلمّ فيه جميع بائسي العالم ويائسيه، وكأنّه يستقبل وَلدًا صغيرًا واحدًا. أمّا الذين تعذّر عليه إيواؤهم، فلم يهملهم، بل كان يوفد إليهم ڤنسانيّاته من أجل معالجتهم، وتزويدهم بالطعام والألبسة، موصيًا راهباته أن يقرنَّ، دائمًا، العطف والغيرة بالحذر. وكان يؤثر إيكال هذه المهمّة إلى راهبةٍ تُدعى "مريم الصغيرة"، بسبب قصر قامتها، ولكنّها كانت متفوّقةً على الجميع ورعًا وخبرةً في شؤون المحبّة. كان يوفدها إلى الفقراء الذين يستحيون بفقرهم. ونظرًا لقصر قامتها، ومظهرها الخارجيّ الخالي من الجاذب، ولقوّة شكيمتها، لم تكنْ تساوره خشيةٌ عليها، ونادرًا ما كلّف أحدًا بمرافقتها.

وكان الأب يستمع، سرّيًّا، أنّات جياعٍ مجهولين، وكأنّه كان يشتمّ رائحة جوعهم، فيدعو رولاندو إلى عشاءٍ عند ضفّة نهرٍ، حيث لا يزعجهما أحدٌ. وفي الطريق كان يبتاع خبزًا وطعامًا، وشرابًا، وفي الموقع المقصود كانا يتسلّقان السلالم، ويتوقّفان أمام بيتٍ، فيقرعان بابه، ويدخلان فيجدان رجلاً وزوجته، وأربعة أولادٍ يتضوّرون جوعًا. فيحيّيانهم برقّةٍ تنعش قلوبهم. وينظر الرجل إلى زوجته، دهِشًا، فهما لا يعرفان الأب، ولم يُخبرا أحدًا بعَوَزهما، فيتساءلان كيف هبط عليهم هذا الغوث. ويطمئنهم الأب قائلاً: "اطمئنّوا، هذه هديّة العناية الإلهيّة، فأرجوكم تقبّلها". وفي الحال يخلع معطفه، ويُشعل النار، ويشرع رولاندو بإعداد الطعام، ثمّ

يقدّمه. ويقول الزوجان دامعَيْن: "نرى أنّ الله يحبّنا، وأنّ العذراء تحمينا. شكرًا لهما لأنّهما أرسلاكما لنا". ويُقبل الأولاد على يدي الكاهن يقبّلونهمـــا، ويتمسّـــكون بجلبابه... ويعود الأب ورولاندو على الطوى، فرحَيْن.

وكان رولاندو رفيق الأب الدائم، كلّما زار مرضى وفقراء في بيوتهم. وكان للأب كنـــزًا ثمينًا، وهِبةً إلهيّةً، كان وفاءً مطلقًا، ونبعَ عطفٍ وبذلٍ، ونصاعةَ سلوكٍ، وحصنًا منيعًا للأسرار، ورجل المهمّات الشاقّة التي يسعد بأدائها.

كان الأب يُثقله بأحمال الطعام والكساء، ويقول له: "فلنمضِ إلى الحانة الفلانيّة"، ويودعان الحمل في بيت فقراء، قريبٍ من الحانة التي ذكرها، ويقول الأب: "ها قد شربنا وثملنا تعبًا. فلنعُدْ إلى البيت". ويعود رولاندو، صامتًا، فرحًا، ناسيًا الكؤوس التي طالما وُعد بها، ولم يتذوّقها قطّ.

وذات يومٍ افتقرت عجوزٌ وحيدةٌ، مترعةٌ أوجاعًا، إلى كلّ شيءٍ: إلى الطعام، والشراب، وحطب التدفئة، والمال. فاستغاثت بالسيّدة العذراء: "أيّتها الأُمّ العطوف والقديرة، أرسلي لي معونةً صغيرةً، فأنا عجوزٌ، ولا أملك فلسًا". وبعد لحظاتٍ معدوداتٍ، قُرِع بابها، وفتحته فزوّدها الأب بكلّ ما تحتاج إليه. وشكرته بدمعة تدحرجت على خدّها. وسمعها الأب وهو يغادر تقول: "أيّتها العذراء مريم أنت فائقة القداسة، وخادمك الكاهن هو، أيضًا، قدّيسٌ!".

الخير الجمّ الذي حقّقته الـڤنسانيّات في تورينو، شحذ غيرة مدنٍ أُخرى، فانهالت على الأب طلباتٌ تلتمس إرسال راهباته إلى تلك المدن من أجل إدارة مدارسها وخدمة مستشفياتها؛ وفي عام ١٨٤٠، كان قد انتشر في تلك المدن مئةٌ وعشرون ڤنسانيّةً.

وكان الأب، قبل إرسالهنّ يتفقّد، بحرصٍ شديدٍ، الأماكن المعدّة لإقامتهنّ، وتمتّعها بالشروط الصحيّة والأَمنيّة الوافية، ويستفهم عن عدد طالبات المدارس. ووفقًا لذلك كان يقرّر عدد الراهبات اللازمات لأداء المهمّة المطلوبة، أداءً لائقًا؛ ويختار الراهبات الأكثر قدرةً على مواجهة ظروف كلّ مكانٍ. أمّا حيث لم تتوفّر الشروط المقتضاة، فكان يحجم عن إيفاد راهباته.

ولم يكن يُطلِع المكلّفات بالخدمة في مدنٍ أُخرى على مهمّتهنّ الجديدة إلاّ عشيّة أو صباح رحيلهنّ، متيحًا لهنّ سويعاتٍ من أجل إعداد اللوازم الأساسيّة، ولكنّه يكون، في هذه الأثناء، قد أعدّ لهنّ، حيث سيعملنَ، كلّ ما يلزمهنّ، ساهرًا على أدقّ التفاصيل. فلا يحتجنَ حيث يُرسلنَ إلى شراء أيّ شيءٍ، بل يلقينَ كلّ ما يلزمهنّ مُعَدًّا بعنايةٍ. وفضلاً عن ذلك كان يهيّئ لهنّ سفرهنّ بكلّ دقائقه، فيرشدهنّ إلى الأماكن الصديقة والأمينة حيث يمضين ليالي السفر، والخانات التي يمكن إيداع العربات فيها.

قبل رحيلهنّ، كنّ يركعنَ، ويلتمسنَ بركته، فيقول لهنّ: "اذهبنَ، باسم الله، وبلا خشيةٍ، فالربّ معكنّ، وسيظلّ *البيت الصغير* يتذكّركنّ. ابقَيْنَ صالحاتٍ، عطوفاتٍ، وكلّ ما تحتجنَ إليه اطلبْنَه من البيت، ومن العناية الإلهيّة. واعلمنَ أنّ لكنّ، هنا، أبًا. فاكتبنَ له بحرّيّةٍ، وبلا خشيةٍ من إزعاجه، فما أنا إلاّ إسكافيٌّ عاطلٌ عن العمل. وعشنَ في الخارج، مثلما كنتنّ تعشنَ هنا...

أباركُكنّ فامضينَ برعاية الربّ".

عندما كان مقصدهنّ مركزًا قائمًا، كان يرسلهنّ بمفردهنّ، أمّا حيث كان يؤسّس مركزًا جديدًا فكان يرافقهنّ، ويقدّمهنّ للأُسقف، ولكاهن الرعيّة، ويضعهنّ تحت رعايتهم الروحيّة. وكان يفعل ذلك ببساطةٍ وتواضعٍ، وبمنأًى عن التبجّح، وعن إظهارهنّ فائقات القداسة، وساميات الروحانيّة، بل كان يلجأ إلى لهجةٍ فكاهيّةٍ، فيقول، على سبيل المثال: "أقدّم لكم فريقًا من عجائز متزمّتاتٍ قادماتٍ لخدمة مرضاكم"!

وعقب استقرارهنّ في مراكزهنّ الجديدة، كان الأب يرشدهنّ إلى أساليب التناغم في ما بينهنّ، ومع الآخرين. وكانت أقواله تقطر رقّة حسٍّ، وسداد رؤيةٍ. وكان يدلّهنّ إلى الطريقة المثلى في التعامل مع الرؤساء الكنسيّين والمدنيّين، ومع المرضى، والأولاد، وإلى الكنيسة التي يحسن أداء واجباتهنّ الدينيّة فيها. وكان يحذّرهنّ من التعامل المباشر مع الغرباء، فهذا التعامل محصورٌ بالرئيسة، وفي حال اضطرارهنّ إلى مقابلة رجلٍ غريبٍ، مثل طبيبٍ، فبحضور الرئيسة أو الأُخت التي تنتدبها.

وكان متاحًا لكلّ راهبةٍ أن تبعث برسائل إلى الأب كُتُّلِنْغو، وهو كان يردّ بانتظامٍ على كلّ رسالةٍ. وكان حريصًا على أن تندرج حياة الراهبات في الخارج، بقدر الإمكان، مثلما كانت في *البيت الصغير*. وعلى من ادّعوا أنّ الراهبات يُسرفنَ في الصلاة، على حساب واجباتهنّ المادّيّة، كان موقف الأب قاطعًا وحاسمًا: "لا تضعِف الصلاة عمل الراهبات، ولا تسيء إليه، بل إنّ الصلاة هي عونٌ لهنّ، وتُمِدُّهنّ بما يحتجنَ إليه من قوّةٍ. وبمعزلٍ عن الصلاة تنهار عزائمهنّ، ويعجزنَ عن أداء واجباتهنّ. كلاّ! كلاّ! الصلاة لا تنال من عزيمتهنّ، بل هي لهنّ منبع طاقةٍ ودعمٍ".

وفضلاً عن الصلاة، كان الأب شديد الحرص على مناولتهنّ الإفخارستيّة

اليوميّة، وعلى تلقينهنّ، حيثما كنّ، المبادئ المسيحيّة. وكان حرصه هذا من الإصرار بحيث كان يستعيد راهباته من كلّ مكانٍ يقاوم فيه المسؤولون الكنسيّون ممارسة راهباته للتعليم الدينيّ.

وكان يحذّر الراهبات العاملات خارج *البيت الصغير*، من أيّ تعديلٍ، ولو كان طفيفًا، في نظامهنّ، حتّى إذا كان بإيعازٍ من أُسقفٍ. ولم يكنْ يكتفي بالكتابة إليهنّ، بل كان يزورهنّ بتواترٍ، ويمتحن الطلاّب، ويتقصّى رضى المرضى من خدماتهنّ، ويحثّهم على الإمعان في حبّ الله، وأحيانًا يوزّع على المرضى والطلاّب مالاً وحلوى. فكانت كلّ زيارةٍ يقوم بها مناسبةً لاحتشاد المتسوّلين عند باب المستشفى. وكان هذا الحشد يسعده أكثر من أضخم استقبالٍ رسميٍّ.

بيت قداسةٍ

النموّ المعجز الذي حقّقته العناية الإلهيّة في *البيت الصغير*، دفع نفوسًا كريمةً إلى مدّ يد السخاء، إسهامًا في الخير الجمّ، الذي كان البيت يفيض به. وتطوّع عباقرة الطبّ مقدّمين علمهم وجهودهم في مستشفياته؛ وانبرى عديدون من كهنة الرعايا، ومن رفاق الأب السابقين، في إنفاق ما تتيح لهم مهمّاتهم من وقتٍ على المساعدة. وما انفكّت الهبات تتدفّق، ضئيلةً أو جسيمةً، وكلّها تُنفَق، في الحال، على توفير احتياجات البيت اليوميّة، وعلى توسيعه بإنشاء فروعٍ جديدةٍ.

ولم تكن توجع قلب الأب كُتُّلِنْغو، الأوجاع الجسديّة التي يشهدها بعينيه، فحسْبُ، بل كانت تؤرّقه، في أعماق نفسه، شواطئ الخطيئة، مترامية الأطراف، وحشود النفوس المتألّمة الكثيفة، التي لا يمكن إسعافها إلاّ بالصلاة، والعبادة، والتضحية.

ومذ شرع يقيم مؤسّساته، سكنه اليقين بأنّها لن تصمد ولن تستمرّ، إلاّ على أُسس الثقة المطلقة بالله، وعلى القداسة الحيّة، والروحانيّة المضطرمة الصافية، متينة الأركان، التي كان يسبح في لجّتها هو والعاملون معه.

ومنذ البدء، تبيّن افتقاره الذريع والخطير إلى مكان عبادةٍ. فالمسافة شاسعةٌ، بين *البيت الصغير* وأقرب كنيسةٍ في الجوار. وخدّام هذه الكنيسة كانوا يواجهون، بجفوةٍ، طلبات الخدمات الروحيّة الآتية من *البيت الصغير*.

ولم يغرب عن ذهن الأب أنّ مواكبة البؤس البشريّ يصعب احتماله طويلاً، والمثابرة عليه، إلاّ بدعم حبّ الربّ الثاوي في القربان المقدّس، فالتمس من السلطات الدينيّة، إذنًا بالاحتفاظ بالقربان المقدّس في *البيت الصغير* تسهيلاً

لمناولات الكهنة والراهبات والمرضى، وسائر نزلاء البيت. وشرع يبني "معبدًا" لهذا الغرض. ولّما تمّ له ذلك، أوعز إلى راهباته بتنظيم مناوبةٍ تضمن عدم ترك القربان المقدّس وحيدًا، وذلك ببقاء اثنتين منهنّ، عابدتَيْن الربّ الساكن في القربان، كلّ لحظةٍ من ساعات النهار، مستمدّتَيْن لهما ولرفيقاتهما، ولجميع العاملين في البيت ونزلائه، قدرات المحبّة اللامحدودة، والتوغّل في معارج القداسة، ومواجهة نزعات الوهن والتقاعس.

وما كان يريده لنفسه، في ميدان القداسة، أراده لجميع نزلاء *البيت الصغير*، وتأكيدًا لرغبته في اصطباغ جميع فروع بيته بروح القداسة، أطلق عليها أسماءً تحمل رموزًا مقدّسةً، سبق لنا أن ذكرنا قائمةً منها، وزيّن تلك البيوت بأقوالٍ تقويّةٍ. ولكي يحمي ساكنيها من الخطيئة دوّن في أرجاء تلك البيوت الشعار الذي كان عزيزًا على قلب القدّيس ڤنسان: "الله يراني". وأوصى ساكنيها أن يردّدوا بلا انقطاعٍ، وبصوتٍ عالٍ: "تذكّروا أنّكم في حضور الله"، و"يا ربّ احمِنا من كلّ خطيئةٍ".

ذات يومٍ، ساءت الأحوال في البيت، فارتقى الأب منبرًا، وهتف بنبرةٍ جريحةٍ، وكأنّه يشهد الخطيئة بعينيه: "إنّ الخطيئة موجودةٌ في هذا البيت، إنّها بيننا. أحدُنا أهان الربّ إهانةً جسيمةً، فليغادر *البيت الصغير*، أيًّا هو كان! وليذهب إلى حيث يشاء، أنا لا أريد معرفته، ولا رؤيته. فليرحل، حالاً، وليصطلح!".

وإذا سمع تجديفًا، كان يؤنّب المجدّف قائلاً: "أيّها الشرّير، بمَ أساء الله إليك، كي تعامله على هذا النحو؟ لقد أعطاك لسانًا لتسبيحه، لا لكي تلعنه!".

وكان يُهيب بجميع ساكني البيت أن يقيموا أفضل علاقةٍ مع الله، من أجل مصلحة الجميع. ومن كان يأبى، بعنادٍ، الاستجابة لنصحه، ويرفض الاعتراف، على سبيل المثال، كان يقاربه باللطف، والقول العذب، وإذا فشل، كان يوكل الأمر إلى راهباتٍ متمرّساتٍ، يُغدقنَ عليه الرقّة والكياسة، حتّى يُحدِثنَ في نفسه انقلابًا.

ولذلك نصح الجميع بالصلاة المستمرّة، والمناولة المتواترة، اللتيْن كان يعدّهما مفتاح الكنوز الإلهيّة، وأداة جعل بيت العناية الإلهيّة، بيت صلاةٍ حقًّا. فكلّ داخلٍ إلى البيت يقع نظره على إيقونة العذراء، حاملةً طفلها الإلهيّ، وأمامها مركعٌ، وكأنّه دعوةٌ إلى السجود والصلاة. وفي داخل البيت كان يطوف نسيم صلاةٍ، وخشوعٍ، وحبٍّ، يعطّر جوّ المكان بأكمله.

وكان الأب يرغب في أن تكون الصلاة هي خبز *البيت الصغير* اليوميّ، ولم يكن يكفّ عن تذكير أهل البيت: "الصلاة تقرّبكم من قلب الله. صلّوا، إذن، صلّوا بلا انقطاعٍ. وبقدر ما تصلّون سيغدق الربّ عليكم ما يلزمكم كي تصيروا قدّيسين. إنّه أعلم منكم بما يلزمكم".

ولهذه الغاية عينها أوصى الأب أن تسبق الصلاة وتواكب كلّ الأفعال والتحرّكات، وأوجد لكلّ أُسرةٍ في البيت معبدًا يستطيع أفرادها تلاوة كلّ الصلوات فيها، والانقطاع للخشوع والتأمّل.

وكان يُناشد أهل البيت، ألاّ يسألوا، في الصلاة شيئًا خاصًّا بهم، وأن يحصروا اهتمامهم في الصلاة، ولا شيء سوى الصلاة. وكان كلّما أصفر البيت من كلّ فلسٍ يستمطر من سُحُب الصلوات الحارّة وابل الأموال. فقد وُلد *البيت الصغير* في ظلّ "جسد الربّ". من هذه الجمعيّة، كان الأب قد اكتنــز حبًّا جمًّا للقربان المقدّس، ألهمه تنظيم عبادةٍ مستمرّةٍ له، فأوعز إلى كلّ أُسرةٍ من أُسر البيت بتنظيم وقتٍ لتكريم القربان المقدّس، والمناوبة عليه، بحيث لا تخلو منه لحظةٌ من ليلٍ ونهارٍ.

ولكي يرسّخ عادة الصلاة، طلب من الممرّضين والممرّضات، تلاوة الصلوات الجماعيّة بصوتٍ مرتفعٍ، صباحًا ومساءً، وتلاوة مسبحةٍ قوامها ترديد خمسين مرّةً: "أيّتها العذراء مريم، أُمّ يسوع، قدّسينا". يليها المجد للثالوث. وقد لحظ الكهنة

المتطوّعون لمساعدة زملائهم في *البيت الصغير* تناميًا بيّنًا في إقبال المرضى على الأسرار، وقد أدهشت هذه الظاهرة لاهوتيًّا، إلى أن أُطلِع على سرّها.

وكان أسعد أوقات الأب كُتُّلِنْغو هي تلك التي يقضيها في مناولة المرضى، ونزلاء *البيت الصغير*، ولطالما ردّد قوله: "من أجل دعم أجسادكم تتناولون طعامًا كلّ يومٍ، فلا تحرموا نفوسكم من الغذاء!". ولكم تمنّى أن يُتاح للأخوات الـڤنسانيّات، ولإخوة القدّيس ڤنسان، التناول عدّة مرّاتٍ في اليوم، كي يتزوّدوا بالقوّة، والعزيمة، والصمود، في مواجهة الأعمال الشاقّة، والمنفّرة التي كانت تنسج حياتهم!

وكم تمنّى، أيضًا، أن تتغذّى وتنمو بتناول جسد الربّ نفوس الأولاد الصغار، فهذا الغذاء كفيلٌ بصون طهرهم وبراءتهم!

ولطالما حرص على إفهام أهل *البيت الصغير* أنّ الله يغدق عليهم خيراته بقدر ما يتكاثر إقبالهم على تناول جسد الربّ. وقد عبّر عن ذلك، يومًا، بتركه باب مخبأ القربان مفتوحًا، وإزاء الدهشة العامّة، فسّر فعله بقوله: "يقول الربّ لكم إنّه طالما ظلّ حقّ القربان مليئًا، ستظلّ أكياس الطحين فارغةً!".

ومن جرّاء حرصه على أن تتناول الراهبات قبل مباشرتهنّ أيّ عملٍ، أنزل، يومًا، راهبةً أغفلت المناولة، من العربة التي استقلّتها للسفر، في مهمّةٍ، واستبدلها بأخرى.

وذات يومٍ زار مركز راهباتٍ كان قد أوفدهنّ خارج تورينو، وقرأ الكآبة في وجوههنّ، فاستوضحهنّ هل يتناولنَ يوميًّا، فأجبنَه بأنّ كاهن الرعيّة لا يسمح لهنّ بذلك، فوعدهنّ بالحصول لهنّ على إذنه. ولكنّ خادم الرعيّة قاوم طلبه، فناقشه حتّى أقنعه بأنّ موقفه يخالف الإنجيل، ويقاوم رغبة الربّ.

وبفضل إصرار الأب العنيد على إتاحة المناولة اليوميّة، شاعت هذه الممارسة في شتّى الرعايا الإيطاليّة، وسعد الرعاة بالتطور الروحيّ الذي أنتجته هذه الممارسة.

وكان يقتضي من راهباته اللواتي يكلّفهنّ بالعمل الرسوليّ، خارج تورينو، الحرص على الوفاء بأمانةٍ لممارساتهنّ المألوفة، وفي طليعتها المناولة اليوميّة، ويقاوم بشراسةٍ كلّ محاولةٍ لمنعهنّ عنها، ليقينه بأنّ هذه المناولة هي السند الجوهريّ الذي يمكنّهنّ من القيام بمهامّهنّ الشاقّة، يومًا إثر يومٍ، بطاقاتٍ متجدّدةٍ تتغلّب على كلّ وهنٍ وتقاعسٍ. ولم يَشُبْ مقاومته هذه، قطّ، لا تراخٍ، ولا مصانعةٌ ولا مساومةٌ. وما انفكّ يؤكّد، على الملأ، أنّ لا حقّ لأيّ مسؤولٍ كنسيٍّ أو دينيٍّ ردع راهباته عن الممارسات الروحيّة التي أَلِفنَها في *البيت الصغير* ، فهي عزاؤهنّ، ومصدر قوّتهنّ.

وللكهنة الذين كانوا يدّعون أنّ المناولة اليوميّة هي بدعةٌ تجديديّةٌ، كان يتبيّن أنّ منع راهباته عن المناولة اليوميّة، إنّما هو إكراههنّ على انتهاج مسلكٍ تجديديٍّ يناقض كلّ ما سرنَ عليه، مدى سنواتٍ طويلةٍ. مؤكّدًا عزمه الحاسم الثابت على استرجاع راهباته إذا حيلَ بينهنّ وبين الوفاء للممارسات الروحيّة التي نشأنَ عليها، وحرصنَ على انتهاجها في *البيت الصغير* . ولم يتوانَ عن تأكيد قوله بالفعل، عندما منع كاهن رعيّةٍ راهباته من التعليم الدينيّ، فضلاً عن التعليم المدنيّ، فأعادهنّ إلى "بيتهنّ".

وبقدر ما كان عنيدًا في حرصه على وفاء الراهبات لممارساتهنّ الروحيّة، كان يناشدهنّ تقبّل الإهانات والشتائم المقذعة، بمحبّةٍ وصبرٍ، مؤكّدًا أنّ القوم طيّبون، ولكنّهم ربّما لم يدركوا أنّ الراهبات جئنَ من أجل خدمتهم ومساعدتهم. ولكن على الراهبات ألاّ ينسينَ أنّ خدمتهنّ للفقراء والمرضى هي خدمةٌ للربّ عينه،

وكان يذكّرهنّ بأنّ القدّيس ڤنسان دي پول كان ينتابه القلق ويتساءل هل الربّ غير راضٍ عنه، كلّما خلت أيّامه من مقاومةٍ ومنغّصاتٍ.

ومن أكثر ما كان ينغّصه، شخصيًّا، الاحتفالات الحاشدة التي كانت تقام ترحيبًا به، كلّما زار راهباته، خارج تورينو. فقد كان يشترك بهذه الاحتفالات المسؤولون الكنسيّون والمدنيّون، وغالبًا ما يرأسها، الأُسقف نفسه. وكان الأب يعلّق على هذه الاحتفالات بقوله: "عندما يُطلب من الدبّ الرقص في الساحة تحتشد الجموع من حوله!".

جَمعيّاتٌ روحِيّةٌ

حرص الأب "كُتُّلِنْغو" على دمغ مؤسّساته بطابع الروح، فهي ليست جمعيّاتٍ خيريّةً بشريّةً، بل هي عملٌ إلهيٌّ ألهمته المحبّة الإنجيليّة. ولم يُطِقْ أن تبقى خارج سفينة نوحٍ أيّة علّةٍ، من أيّ نوعٍ. ومن أجل النفوس المتألّمة، في العالَمين المرئيّ واللامرئيّ، أسّس جمعيّاتٍ مهمّتها الصلاة، والتضحية، في سبيل استمطار الرحمة عليها، فتنقذها، وفي الآن عينه، تقدّس المصلّين والمضحّين.

وكان الأب قد تبيّن أنّ بين بَنيه وبناته في *البيت الصغير* نفوسًا كريمةً تشاطره هذه الرغبة الحارقة، وتتوق إلى الانخراط في شركة القدّيسين، والانقطاع إلى حياة عبادةٍ، وتضحيةٍ ودعاءٍ، إنقاذًا لنفوسٍ لا يعرفونها، ولكنّ استغاثتها الوجيعة قرعت أبواب قلوبهم. وكان مؤمنًا أنّ الربّ يريد أن تتمكّن تلك القلوب الطيّبة من خدمته، من خلال النفوس المتألّمة، ولطالما حلم بإنشاء جمعيّاتٍ تقوم بهذه الرسالة، ولكنّه كان ينتظر إشارة الربّ كي يحوّل حلمه إلى واقعٍ. وفي هذه الأثناء كان يراقب، بيقظةٍ، نضوج السنابل التي زرعها في *البيت الصغير* ، وغدت مؤهّلةً لحياةٍ روحيّةٍ أوفر كمالاً وسموًّا، وحان توظيفها في الرسالة التي شاء الربّ أن يتوّج بها مشاريع *البيت الصغير*.

عام ١٨٣٩، إذن، أُلهم أنّ السنابل ابيضّت. وكانت أولى مبادراته تحقيق رغبته العارمة في تكريمٍ دائمٍ للمسبحة الورديّة، كفيلٍ باستمطار البركات على *البيت الصغير* وبتقديسه. فاختار من الإخوة العاملين على خدمة المرضى، ثلّةً ممّن توسّم فيهم أهليّةً بيّنةً لحياةٍ روحيّةٍ أشدّ اصطباغًا بالورع، وأشدّ امتلاءً بالمواهب الفائقة التي لا يسوغ إهمال استثمارها. ومنهم أسّس جمعيّة "إخوة المسبحة الورديّة" التي عطّرت أجواء *البيت الصغير* بالقداسة والتقوى.

وفي السنة التالية، أي في مطلع عام ١٨٤٠، اقتطف من حديقة "الـــڤنسانيّات" ستّين راهبةً، اختارهنّ من أقدمهنّ، ومن اللواتي أنهكتهنّ سنوات الجهد والمشقّة، وأسكنهنّ في جناحٍ كان يقيم فيه صمٌّ وبكمٌ، نُقِلوا إلى مكانٍ أوسع، وأكثر ملاءمةً لحالهم، وحيث سيتسنّى للراهبات المتعبات ثلاثة أشهر نقاهةٍ، يُكملنَ، أثناءها، تأهيلهنّ لرسالتهنّ قبل استئنافهنّ عملهنّ. وقد أقرّ، هو نفسه، أنّه لم يكن يدرك غاية هذه المبادرة بالضبط. وبعد انقضاء شهرٍ، عاد إليهنّ برفقة معاونه، الأب "أنكليزيو". وعند عتبة البيت، ومضت في ذهنه فكرة تغيير هدف بيت النقاهة ذاك. ولم يقل في هذا الأمر شيئًا، في الحال. غير أنّه عندما همّ بمغادرتهنّ، جمعهنّ، وصارحهنّ: "فيما كنت، منذ لحظاتٍ، داخلاً إلى هنا، خلط الربّ الأوراق بين يديّ، وبلّغني رغبته في تحويل هذا البيت إلى مأوى حمامٍ، أي إلى دير راهباتٍ حبيساتٍ. وهذا ما طالما تمنّيته أنا". وقد لاقى هذا القرار في قلب "الـــڤنسانيّات" ترحيبًا حارًّا. وفي الحال قام "دير راهبات الشفاعة"، مهمّته الصلاة من أجل تسريع انعتاق النفوس المتألّمة في المطهر، بفضل انقطاع الراهبات للصمت، والتوبة، والدعاء. وقد ظلّ ذلك البيت مرحّبًا بكلّ "ڤنسانيّةٍ" قضت أكثر من عشر سنواتٍ في العمل المضني، ورغبت في الانصراف إلى الصلاة والتأمّل.

وعاد الأب إلى مكتبه مصلّيًا، سائلاً الروح القدس إلهامه اسم الراهبة الجديرة بترؤّس الدير الجديد. واستدعى الأُخت كاترين، رئيسة الابتداء، وقال لها بلهجته المعتادة: "أيّتها الحمقاء الصغيرة، أُعيّنكِ رئيسة ديرٍ!". وكانت تلك الراهبة الورعة مشبعةً بروح القدّيس فرانسوا الساليزيّ، ومُلتزمةً بنصيحته القائلة: "لا تطلب من الرؤساء شيئًا، ولا ترفض لهم أمرًا". فاكتفت بشعار *البيت الصغير*، "الشكر لله (Deo Gracias)". وركعت، فباركها الأب، وتولّت رئاسة دير الشفاعة.

ومع أنّ الأب كان ما زال يتلكّأ في إصدار نظامٍ عامٍّ أساسيٍّ للـــڤنســـانيّات، تمثّلاً بالقدّيس ڤنسان دي پول، ريثما تصقل التجربة مؤسّسةً جديدةً كبيرةً، إلاّ أنّه

وضع، في الحال، نظام راهبات الشفاعة اللائي كنّ قد مارسنَ، طويلاً، الحياة الرهبانيّة، وارتضينَ، طوعًا، عيشة الحبيسات. وقال إنّ الروح القدس أوحى إليه ذلك النظام بكامله، فسهر الليلَ كلّه على تدوينه. واقتضى هذا النظام من "الشفاعيّات"، تكريس ذواتهنّ لتكريم الأسرار المقدّسة، والصلاة، والتضحيات، والسهر، والعبادة، والتوبة، وترتيل المزامير، والأصوام، وممارسة الفضائل، التماسًا لغوث النفوس المطهريّة. واقتضى النظام منهنّ، إضافةً إلى الصلوات المألوفة في *البيت الصغير*، الصلاة للأموات، وتلاوة مئةٍ وخمسين مرّةً "ارحمني يا الله"، أمام القربان، فضلاً عن تنظيم عبادةٍ دائمةٍ للقربان المقدّس، تتناوب على أدائها ثلاث راهباتٍ، معًا، ليلاً ونهارًا، أمام مخبأ القربان في الكاپيلاّ.

وحرص النظام على عزل "الشفاعيّات" عن العالم، فلم يسمح لأقربائهنّ بالتواصل معهنّ إلاّ من خلال فتحةٍ صغيرةٍ في سور الدير، وقوفًا في الشارع، معرَّضين للريح والمطر والبرد، وللفح القيظ صيفًا، ما يُكره الزائرين على الإيجاز، وإيثار العزوف عن العودة، وبذلك أسهم في إنقاذ الراهبات من تشتّت خشوعهنّ أو تبديده.

ربّما تساءل البعض، مثلما ما زال كثيرون يتساءلون اليوم، عن جدوى هذه الحياة الخفيّة، المكرّسة للصلاة والعبادة، في حين ما زالت أعدادٌ وفيرةٌ من البائسين تفتقر إلى عونٍ ومواكبةٍ، وكان الأب يردّ على هذا الاعتراض، مذكّرًا بموقف يسوع من مرتا ومريم، شقيقتَيْ لعازر، مؤكّدًا أنّ "الشفاعيّات" هنّ واقياتُ صواعق *البيت الصغير*، والعالم أجمع، ومزوّداتهما بأوكسجين الروح.

ومنذئذٍ ما انفكّ الأب يسعى إلى دعم مؤسّساته الخدميّة العاملة بأدعية راهباتٍ ورهبانٍ مكرّسين، حصرًا، للصلاة والعبادة. ففي صيف عام ١٨٤٠، تلقّى هبةً جسيمةً ناتجةً عن بيع محامٍ صديقٍ له عقارًا ورثه من ذويه، وتردّد الأب طويلاً في قبولها، خشية أن يكون هذا القبول نكوثًا بنذر الفقر الذي ارتبط به، وأخيرًا اشترى بمبلغ الهبة بيتًا محاطًا بكرومٍ وحقولٍ وبساتين، في منطقةٍ معزولةٍ عن تورينو،

تدعى "كاڤوريتّو" (Cavoretto)، واعتزم أن يجعل منه واحة استجمامٍ لراهباتٍ أنهكهنّ الكدّ والإرهاق. فقد كان قلبه يذوب رأفةً على أخواتٍ شابّاتٍ، رقيقاتٍ، مندفعاتٍ إلى الخدمة، بلا تحفّظٍ ولا هوادةٍ، وهو يشاهدهنّ يذبلنَ من جرّاء جهودهنّ الدائبة، وتضحياتهنّ السخيّة، ذبول أزاهير سطت عليها الشمس الحارقة. ورغب في إيجاد فسحة راحةٍ واستجمامٍ لهنّ، بعيدًا عن ضغوط العمل، في برّيّةٍ ينعمنَ فيها بالنسيم العليل وبالسكون. فأرسلهنّ إلى تلك المزرعة، حيث افتتح مدرسةً يتلقّى فيها أولاد المنطقة العلوم الأساسيّة، ويكتسبون تربيةً مسيحيّةً سليمةً. وبذلك يعيد إلى أجساد الراهبات المكدودة شحنة عافيةٍ، ويزوّد نفوس صغار القرية بالصحّة الروحيّة، فيصيب هدفَيْن، بطلقةٍ واحدةٍ.

وفي خريف ذلك العام كان عدد الراهبات قد ارتقى إلى خمسٍ وعشرين، فجاءهنّ زائرًا، ولدى دخوله البيت، فاجأته رائحة قتار لحمٍ يُطهى، فقصد المطبخ باسمًا ورفع غطاء القدر، وتبيّن فيه قطع لحمٍ شهيّةً تنضج على مهلٍ، وأخبرته المسؤولة عن المطبخ أنّ ذلك اللحم يُعدّ للعشاء. فخاطب الراهبات المتجمّعات في القاعة: "إنّه لمن الأجدى إسعاد المُزارع وأُسرته بهذا اللحم. أمّا أنتنّ، فلن تتناولنَ لحمًا، بعد اليوم، وسيصبح هذا البيت كرملاً، وستصبحنَ، أنتنّ، كرمليّاتٍ، وسيخلو طعامكنّ من كلّ دسمٍ، وسيقتصر على الخضراوات، والبقول، والثمار التي ستزوّدكم بها العناية الإلهيّة.

قد يبدو هذا التصرّف دكتاتوريًّا. ولكنّ الأب كان خبيرًا بتقديس بناته. وفي الواقع رحّبنَ، جميعهنّ، فرحاتٍ، بهذه الرسالة، وأعلنّ اندفاعهنّ للسير بها، بشجاعةٍ وتصميمٍ.

وفيما كان الأب ينحدر عن الهضبة، أعمل فكره في اختيار رئيسةٍ لكرمله الوليد، ولمّا انتهى إلى مكتبه، استدعى الأُخت "جينيڤييڤ"، وهي إحدى أقدم راهباته، وكان واثقًا من ارتضائها كلّ ألوان التقشّف والتضحيات؛ وبلا مقدّماتٍ

قال لها: "تقبّلي بركة أبيك، وامضي إلى "كاڤوريتّو"، بصفة رئيسةٍ للكرمل الـذي وُلد، هناك، اليوم. ومنذ الآن ستبدّلين اسم "الأُخت جينيـڤييـڤ"، باسـم "الأُمّ مريم يسوع". اكتفت الراهبة بقول "الشكر لله". وفي ذلك المساء عينـه كانـت وسط "الكرمليّات".

واستقدم الأب من أديرة كرملٍ عريقةٍ راهباتٍ، كي يدرّبنَ راهباته الحديثات على حياة الكرمل الأصيلة، القائمة على انقطاعٍ تامٍّ عن العالم، وعلى الطعام الزهيد المتقشّف، الخالي من اللحم والسمك والبيض، والرقاد على فراش قشٍّ رقيقٍ بكامل ثيابهنّ، وعبادة القربان المقدّس، بلا انقطاعٍ، نهارًا وليلاً، ومواصلة الصلاة.

ومن دواعي العجب أنّ كرمليّات كُتُّلِنْغو، اللواتي كنّ منهكاتٍ ومكـدوداتٍ تقبّلنَ بفرحٍ قسوة الحياة التي دُعينَ إليها، وتآلفنَ، سريعًا، مع الاسـتيقاظ منـذ الساعة الثانية ليلاً، ومع إنفاق أيّامهنّ في عبادةٍ، وصلواتٍ مسـتمرّةٍ، في صـمتٍ مطبقٍ، وعزلةٍ تامّةٍ عن العالم.

ولّما تأكّد الأب أنّ الربّ يبارك مؤسّسته الجديدة هذه، ألبس الراهبات الـزيّ الكرمليّ، وأقام عليهنّ رئيسةً، وأوكلهنّ إلى رعاية سيّدة الكرمـل، وشـفيعتهنّ القدّيسة تيريزا الأڤيلاويّة. وأقام لهنّ نظامًا قائمًا على التقشّف، والصمت والصلاة.

وقد زارهنّ، يومًا، رئيس أساقفة تورينو، ولّما دخل، مع موكبه إلى المعبد أُخذوا بروعة ترتيبه. ولكنّهم سرعان ما صُعِقوا برثاثة داخل الدير، ومظاهر الفقر السائدة فيه، وبلغت خيبتهم ذروتها، عندما جلسوا إلى مائدة الطعام. فقُدِّم لهم إبريق ماءٍ، وخبز دقيق حنطةٍ وشعيرٍ، ولم يقوَ الأُسقف على كتم خيبته وامتعاضه. أمّا الكرمليّات الجديدات، فبعد اعتيادهنّ على هذا النمط من العيش، الذي بدا، بادئ الأمر، شاقًّا، أمسيْنَ يَعجَبْنَ، هنّ أنفسهنَّ، من فيض عزيمتهنّ ونشاطهنّ، ووافر عافيتهنَّ. وفيما كانت أخواتهنّ الـڤنسانيّات يواصلنَ بذل قواهنّ وحياتهنّ في

الخدمة، كنّ، في كرملهنّ، يستمطرنَ عليهنّ النعم والبركات، والقوّة، التي يحتجنَها من أجل المضيّ قدُمًا في عملهنّ الجاهد.

وكان الأب واثقًا من أنّ هؤلاء العابدات هنّ العمود الفقريّ الذي يسند جميع مؤسّساته، ويضمن لها الصمود، ويقيها من الانهيار. وكم حثّ مثالُهنّ عاملين وعاملاتٍ، وكهنةً وراهباتٍ، في *البيت الصغير* على تقديم ذواتهم ومؤهّلاتهم وطاقاتهم، وصحّتهم، بلا وجلٍ ولا تردّدٍ، والتمتّع بالإقامة على أرضٍ تنبت معجزاتٍ.

وكان الأب واثقًا من أنّ جميع العاملين والعاملات في *البيت الصغير*، والمبشّرين خارج البيت، يستمدّون عزيمةً، ويتقوَّون بمعرفتهم أنّ نفوسًا قدّيسةً، مخفيّةً وراء أسوار ديرٍ مغلقٍ، متّحدةٌ بهم، وتصلّي من أجلهم، وتشدّد عزائمهم كلّما انتابهم إحباطٌ أو وهنٌ.

فقد كان الأب راسخ الإيمان بشركة القدّيسين والمؤمنين.

وكان دير كرمليّاته عزيزًا على قلبه، وكلّما زاره، كانت تطوف على محيّاه أمارات الفرح الساجي. وقد أوصى، قُبَيْل وفاته، بصَوْن هذا الدير مثلما تُصان حدقة العين، فقد كان يرى فيه موئل قداسةٍ يُعطّر بشذاه كلّ المؤسّسات الكوتّولينغيّة.

ومن هذا الدير انبثق ديرٌ آخر، لبّى رغبة الأب الحارقة في تكريم السيّدة العذراء المفجوعة، الحانية على جثمان ابنها لدى إنزاله عن الصليب، والتي خلّدها أروع تخليدٍ، تمثال "لا پـييتا" (La Pietá)، الذي نحته المثّال العبقريّ "ميكل أنجلو". وقد أحيا هذا الدير المستحدث، أيضًا، ذكرى بنات أورشليم اللواتي واكبنَ المخلّص باكياتٍ، على درب الجلجلة، حاملاً صليبه. فهذان الحدثان كانا يختزلان جوهر الروحانيّة الكوتّولينغيّة القائمة على مواساة كلّ بؤسٍ، والتفجّع لكلّ فاجعةٍ. وعقب صلواتٍ حارّةٍ، والتماس أنوار الروح القدس، انتقى الأب عشر

"أُرسُلاويّاتٍ"، أعمار بعضهنّ تناهز الثمانية عشر ربيعًا، كان قد أنشأهنّ بنفسه على حياة الروح، بمنأًى عن كلّ تفاهةٍ عالميّةٍ، وأضاف إليهنّ فتاتَيْن مؤهّلتَيْن لتلك الدعوة، وأقامهنّ في بناءٍ محاذٍ لدير راهبات الشفاعة، وكلّف إحدى "الشفاعيات" بالإشراف عليهنّ، وأطلق عليهنّ اسم (Pietandines)، أي "المواسيات"، وحدّد مهمّتهنّ في ممارسة حياة توبةٍ وتكفيرٍ عن خطايا البشر. فبعد إنفاقهنّ النهار في أعمالٍ يدويّةٍ شاقّةٍ، كان عليهنّ التهجّد، أي السهر والصلاة ليلاً، بين منتصف الليل والساعة الثانية فجرًا، أمام القربان المقدّس.

ويوم ١٨٤١/٢/٢، ألبسهنّ زيًّا خاصًّا، قال إنّ العذراء هي التي ألهمته كلّ تفاصيله. ومنذئذٍ ظلّ يواكبهنّ بيقظةٍ، ويرشدهنّ إلى أدنى الحركات التي ينبغي عليهنّ التقيّد بها في كلّ مكانٍ، وإلى طريقة ترتيب أسرّتهنّ القاسية، وقاعة نومهنّ الممعنة في الفقر. لكي يسود، في كلّ أماكنهنّ، جوّ حزنٍ مقدّسٍ، بحيث يبدو لكلّ من يتسنّى له الدخول إلى تلك الأماكن أنّه يدخل إلى قبرٍ صامتٍ، يأخذ منظره بكلّ أوتار النفس، ويبيّن كيف ماتت تلك الفتيات عن العالم، كي يحيَيْنَ لله وحده.

كنّ يُؤمِّنَّ أوَدَ عيشهنّ بعمل أيديهنّ الشاقّ، ولا يقطعنَ تنهّداتهنّ الصامتة، إلاّ لتلبية نداء الربّ في محرابه، إذ كان عليهنّ، عند ظهر كلّ يومٍ، تنظيم تطوافٍ إلى الكنيسة حيث يقضين ساعتَيْ صلاةٍ صامتةٍ، ويقمنَ بطقس درب الصليب، ويتلونَ مزامير التوبة، وطلبات القدّيسين. وفي كلّ ساعةٍ من الليل أو النهار، كانت واحدةٌ منهنّ تتخشّع، أُسوةً بالمجدليّة، أمام القربان المقدّس.

وقد طلب منهنّ الأب تقديم كلّ صلواتهنّ، ومناولاتهنّ وتضحياتهنّ وأعمالهنّ الصالحة، عن نيّة المحتضرين الذين، في كلّ لحظةٍ، يرحلون إلى الآخرة. وبذلك كنّ يتكاتفنَ مع أخوات الشفاعة، فهنّ يرافقنَ بأدعيتهنّ النفوس الراحلة، ثمّ تتولّى أخوات الشفاعة الصلاة كي لا تطول إقامتها في المطهر.

بساطة أولئك الفتيات المكرّسات، ورقّتهنّ، ونقاؤهنّ، كانت تسرّب إلى قلب الأب، كلّما زارهنّ، أمواج فرحٍ وانتعاشٍ، تُعتقه من همومه. وهو كـــان يصـــفهنّ بحمامات *البيت الصغير*.

وفي سبيل تقديم أسمى تكريمٍ لآلام الربّ، وآلام أُمّه، الخلاصيّة، ســـعى إلى أن يرتقي عدد أولئك "المواسيات" إلى ثلاثٍ وثلاثين، تكريمًا لكلّ سنةٍ قضاها المخلّص على أرض البشر.

وفي تيّار الكرمليّات، ونزعة الانقطاع للعبادة والتضحية، دعمًا للعاملين في مجال النشاطات الخدميّة الشاقّة، جالت في بال الأب كُتُّلِنْغو أطياف نسّاك الصّعيد، الذين ضحّوا بالراحة والرفاه، وبالشهرة والمال والسلطة، وبكلّ شيءٍ، وانقطعوا للعبادة في العزلة، والزهد، والحرمان والتهجُّد. وكان الأب، أثناء تأهّبه للكهنوت، قد أخذ بقلبه كلَّ مأخذٍ، سلوكُ أولئك النسّاك، وحَشَدَ في ذاكرته كثيرًا من أمثلة عيشهم. وكان يطيب له روايتها على الفقراء كلّما تحدّث إليهم، ويسرد لهم حِكَمَهم الطافحة بالروحانيّة السامية. ولاحقًا اعتملت في نفسه رغبة إحياء هذه الحياة الروحيّة الشاقّة، والفائقة، دعمًا لجهود العاملين في *البيت الصغير*، واتّفق أن وهبه محسنٌ رقعةَ أرضٍ شاسعةً، في ريفٍ غير بعيدٍ عن تورينو، ولكنّها بمنأًى عن صخب المدينة وضجيجها، فقرّر أن يجعل منها منسكًا أطلق عليه شعار "منسك الورديّة، برعاية القدّيس رومالد". والقدّيس "رومالد" (Romuald) هو من أواخر آباء الصحراء، وقد عاش في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر.

وكان الأب، منذ عام ١٨٣٩، قد شرع يؤسّس أُسرةً مؤلّفةً من شبّانٍ عاملين في *البيت الصغير*، ورغبوا، فضلاً عن آداء واجباهم فيه، تلاوة المسبحة الورديّـــة

جماعيًّا، فسُمّوا "الورديّين". وكان هدفهم يتضمّن، إلى جانب مساعدة ممرّضي الرجال، الترقّي في مضمار التواضع، والزهد في العالم وازدراء الذات. وهكذا، على غير قصدٍ، كانوا يتأهّبون للحياة النسكيّة. كانو يُرسلون لحاهم ولا يولونها أيّة عنايةٍ، ويرتدون جلبابًا بنّيّ اللون، سيّئ الصنع، يثير استهزاء كلّ من يشهدهم.

وتبيّن للأب أنّ بين هؤلاء "الورديّين" مَن يتميّز بنزعةٍ لافتةٍ إلى الخشوع، والعزلة، والعبادة، وبرغبةٍ حارّةٍ إلى سَوق حياةٍ كاملةٍ، أكثر انفصالاً عن العالم. ومن هؤلاء انتقى شبّانًا منيعي البنية، عازبين، أو أرامل لا أولاد لهم، وأبناء أُسرٍ غنيّةٍ، عافت نفسهم حياة الرفاه والبطر والمظاهر، وتاقوا إلى عبادة الله في عزلةٍ تامّةٍ، وزهدٍ كاملٍ.

ووضع لهم الأب زيًّا مكوّنًا من ثوبٍ رماديّ اللون، مصنوعٍ من قماشٍ خشنٍ، له غطاء رأسٍ، ومن كتفيّةٍ سوداء، تحمل، عند جانب القلب صورة العذراء، "سيّدة الورديّة". لحاهم مرسلةٌ مُهمَلةٌ، ومنتصف شعرِ رأسهم حليقٌ تحيق به دائرة شعرٍ خفيفةٌ. وكانوا ينتعلون خفًّا على قدمَيْن حافيتَيْن.

أمّا نظامهم الغذائيّ، فكان قوامَه خبزٌ رديء الصنع، وحساءٌ شفّافٌ، بلا زيتٍ ولا توابل، وقد أُقصي عن طعامهم، إقصاءً تامًّا، اللحم والنبيذ. وكانوا يصومون أيّام الأربعاء والجمعة والسبت من كلّ أسبوعٍ. أمّا المأدبة التي كانت متاحةً لهم، في الأعياد والمناسبات الكبرى فكانت سَلَطةً، وشطيرة سمك "الأنشوفة". التواصل بينهم كان يتمّ بالإشارات، من جرّاء التزامهم بالصمت المطبق الدائم. والصلاة مستمرّةٌ بلا انقطاعٍ، وكذلك عبادة القربان المقدّس، أمام الهيكل، حيث يركع ناسكٌ أو ناسكان، في كلّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ. وفضلاً عن ذلك كلّ ناسكٍ يجلد ذاته كلّ يوم جمعةٍ. أمّا وقت الفراغ فكان يُنفَق على حراثة الأرض وزراعتها، وإذا كان الطقس ممطرًا فعلى مطالعة الكتاب المقدّس، وسيَر القدّيسين.

وكان لا بدّ من تعيين رئيسٍ على المنسك. ودلّت العناية الإلهيّة الأبَ إلى أخٍ في الثلاثين من العمر، يُدعى "بيننــزيو" (Benunzio). كان بارعًا في كلّ عملٍ يدويٍّ، ولكنّه كان ضحيّة نوبات صرعٍ مدمّرةٍ، ومتواترةٍ، وكانت تنتابه منذ نحو سنةٍ، سلسلة حُمّياتٍ حارقةٍ أذابت قواه، وألزمته الفراش طوال ثلاثة أشهرٍ. ومع ذلك، جاءه الأب، وبأسلوبه المرح قال له: "يا بيننــزيو، أنا أعلم أنّك تعاني حمّياتٍ شديدةً، فما بالك أن نخلّصك منها، ومن نوبات الصرع معًا؟

– وما عليّ أن أفعل لذلك؟
– مشيئة الله!
– وما هي؟
– تعالَ معي إلى "غاسّينو"، حيث ستكون ناسك الورديّة المقدّسة، وبفضل الحياة الرائعة التي ستسوقها هناك، سيتبدّد الصرع، وستفرّ الحمّى إلى غير رجعةٍ!

وفي الحال، انطلق الأب و"بيننــزيو"، وثلّةٌ من رفاقه إلى المنسك. وهناك طلب منهم الأب خلع أحذيتهم وجواربهم، وانتعال قباقيب وصفها بالرائعة. فنفّذوا طلبه، وغاصوا في جوّ الصمت، والصوم، والتقشّف. ومكث الأب مع نسّاكه يومين، وأرشدهم إلى الأُسلوب الأمثل لممارسة الحياة النسكيّة، وألبس "بيننــزيو" الثوب النسكيّ، وبما أنّ الأب آثر الاحتفاظ برئاسة المنسك لنفسه، فقد عيّن "بيننــزيو" نائبًا عنه، ولكنّه استبدل اسمه باسم "الأخ فيليــپ ماري". وعيّن رئيس ابتداءٍ، وكلّف كاهنًا بإقامة الطقوس الكنسيّة في المنسك، وبتزويد النسّاك بالأسرار.

وما لبث أن تحقّق ما وعد به الأب وكيلَه، فقد تحرّر الأخ فيليــپ ماري مــن الحمّى ومن الصرع، وأقرّ الدكتور "غرانيتّي"، الذي كان يعالجه سابقًا، بعدما شهد وضعه الصحّيّ الجديد، بأنّ ما حصل له لا يمكن وصفه إلاّ بالمعجزة.

كان الأب يزور نسّاكه، مرّةً في الأُسبوع، فيسعد بقضائه يومًا معهم، ويسعدون، هم، بوجوده بين ظهرانيهم، ويستمدّون منه قوّةً وعزيمةً.

وقد حلّت بأحدهم، المدعوّ الأخ سابا، علّةٌ خطيرةٌ عدّها الدكتور "غرانيتّي" مميتةً، فاستدعى الأب لمنحه الأسرار، ودخل الأب إلى صومعة الأخ العليل وقال له: "هيّا بنا، أخي سابا، يجب أن تنهض، وتأتي إلى الكنيسة، وتشارك إخوتك الصلاة للسيّدة العذراء. هيّا معي!". ونهض الأخ سابا، وحضر إلى الكنيسة، وصلّى واستعاد كامل صحّته.

السنوات والقرون تكرّ، والأحوال تتغيّر وتتبدّل. ولكنّ أقوال الربّ لا تتغيّر ولا تتبدّل. ويظلّ الإيمان بقدر حبّة خردلٍ قادرًا على زحزحة الجبال. وتبقى الأسباب ذاتها تؤتي النتائج عينها. ومثلما كان المؤمنون الأوّلون يحيون في أُلفةٍ مع المعجزات، ما زال الإيمان المطلق يلد عجائب.

من المحقّق أنّ الأب كُتُّلِنْغو لم يكن يقتضي من نسّاكه وراهباته وكهنته وإخوته في الإيمان والتضحيات إلاّ ما كان يمارسه بنفسه. بل إنّه ضاهاهم وبزّهم صلاةً وإيمانًا، وضاهى وبزّ الكرمليّات إماتاتٍ ونكرانَ ذاتٍ، والنسّاكَ وحدةً وزهدًا وقسوةَ عيشٍ، والمواسيات تمجّدًا وتكريمًا للقربان المقدّس.

وساورت الأب كُتُّلِنْغو أحلامٌ طموحٌ لمستقبل المنسك، فتمنّى ارتفاع عدد النسّاك إلى مئةٍ وخمسين، وحينئذٍ يكوّنون ثلاث فرقٍ، يضمّ كلٌّ منها خمسين ناسكًا، ويتناوبون على ثلاث مهمّاتٍ: ففريقٌ يعمل في الحقل، وفريقٌ يُعنى بالمرضى، والآخر يتولّى ترتيل الصلوات، على أن يحافَظ بدقّةٍ، وحرصٍ، على عبادة القربان المقدّس، في كلّ ساعةٍ، وكلّ دقيقةٍ، بلا خلَلٍ، ولا إهمالٍ.

ولكن، قبل أن ينعم الأب برؤية تحقيق حلمه، كان إكليله السماويّ قد اكتمل، واستدعاه الله كي يكافئه. وبسبب ظروفٍ سياسيّةٍ مناوئةٍ، كان منسك الورديّة هو مشروع الأب كُتُّلِنْغو الوحيد الذي أُغلق قسرًا، واستأنف نسّاكه خدماتهم السابقة في *البيت الصغير*، بنفَسٍ جديدٍ.

ولم يغرب عن بال الأب أنّ تكاثر الجماعات الجديدة، التي تفرضها الاحتياجات اليوميّة تستلزم مزيدًا من الخدمات الروحيّة، من أجل إرواء عطش النفوس إلى خدمة الربّ في فقرائه ومرضاه، فضلاً عن خدمة المهمّشين والمتألّمين في نفوسهم، والمحتاجين إلى دعمٍ روحيٍّ: إلى الاعتراف الذي يساند ضعفهم، ويسدّد خطاهم، وإلى المناولة التي تغذّيهم، وتجدّد طاقاتهم، وإلى نجاوى تبدّد حيرتهم وهواجسهم. وقد استعان الأب، أوّلاً، بكهنة رعايا تورينو، وبرفاقه في جمعيّة "جسد الربّ"، واستجاب له عديدٌ منهم. ولكنّ هؤلاء مع سخاء غيرتهم، لم يكونوا قادرين على تلبية كلّ الاحتياجات، بانتظامٍ، وفي كلّ حينٍ، وفي جميع حالات الاضطرار الأقصى. ومن ثمّ، اتّضحت للأب الحاجة إلى كهنةٍ يعيشون في جماعةٍ، ويقفون كلّ وقتهم وطاقاتهم على تقديم الخدمات الروحيّة لنـــزلاء *البيت الصغير*، وللعاملين فيه. وسارع إلى إبلاغ معاونه، الأب "أنكليزيو" رغبة الربّ في تكوين جماعةٍ من الكهنة غير الراعويّين، وغير التابعين لرعايا محدّدةٍ، وغير ملتزمين بنذورٍ، ويحملون شعار "كهنة الثالوث الأقدس"، وتنحصر مهمّتهم في خدمة *البيت الصغير* روحيًّا. وسرعان ما تألّفت، لهذه الغاية، مجموعة كهنةٍ ضحّوا بحرّيّتهم، وهدوئهم، وبمقتنياتهم، واتّخذوا من *البيت الصغير* مقرًّا، واتّفقوا مع الأب "كُتُّلِنْغو" على زيٍّ يرمز إلى مهمّتهم، والتزموا بوقف ساعةٍ، كلّ يومٍ، على العبادة والتأمّل. فكانوا يلتئمون، عند الساعة الثالثة من عصر كلّ يومٍ، فيتلون، معًا، المسبحة وصلوات الفرض. وقد انصرفوا، في *البيت الصغير*، إلى منح الأسرار، والمواكبة الروحيّة، والوعظ، فيما ظلّ الأب "كُتُّلِنْغو" ومساعدوه، ورؤساء الأُسَر المختلفة ورئيساتها، داخل البيت، يضطلعون بالشؤون الإداريّة الأخرى.

وسكن ذهنَ الأب، دائمًا، همٌّ استنباتٍ مستمرٍّ لكهنةٍ وراهباتٍ يواصلون إنماء مشاريعه، ويلبّون احتياجات الكنيسة. ومثلما توقّع أن تكون أُسرتا "الأرسلاويّات" و"الجينيـــڤيـيـــڤيّات"، مشتلاً لراهبات المستقبل، تمنّى أن يستنبت من نزلاء مبرّته كهنةً وخَدَمةً مكرّسين. فاختار صبيانًا تتراوح أعمارهم بين سبع

سنواتٍ واثنتي عشر سنةً، ممّن أصابوا قسطًا مقبولاً من العلم الأساسيّ، والتربية الصالحة، وخصّهم بزيٍّ امتزج فيه العلمانيّ بالإكليريكيّ، وسمّاهم "الإخوة الصغار"، وشيئًا فشيئًا ارتقى عددهم إلى نحو مئةٍ. وغالبًا، ما كان يزورهم ويدعوهم "جرذانه الصغيرة العزيزة"، ويتحدّث إليهم، وتغلب على أحاديثه الإشارة إلى روعة تكريس الذات لخدمة الله، منذ الصغر. وكان يلاعبهم ويسهر على ألاّ يفتقروا إلى شيءٍ. وقد حرص على تنشئتهم تنشئةً صارمةً، وعلى تنمية ورعهم، وعلى غرس حبّ الصلاة، وممارسة الأسرار المقدّسة، في نفوسهم.

وإثر اكتسابهم قسطًا وافيًا من المبادئ المسيحيّة، والعلوم الأساسيّة، وإظهارهم نزعةً جليّةً إلى الكهنوت، كان يسمح لهم بالانضمام إلى إخوة القدّيس ڤنسان دي پول، أو إلى الإكليريكيّين التوماويّين.

وقد اختار من هؤلاء اثني عشر فتًى، أعدّهم ليكونوا معلّمين مؤهّلين للمبادئ المسيحيّة، وكهنةً غيورين للكنيسة. ولكي يغذّي نفوسهم بالورع، أسكنهم في أقرب مكانٍ من الكنيسة، وخصّص لهم الغُرَف الأقرب إلى حجرته، كي تتيسّر له مراقبة سلوكهم عن كثبٍ، وكي يستفيدوا، هم، من نصائحه، ومن أمثلة فضائله. وقد اختار لهم زيًّا خاصًّا. وعندما اختار لهم شفيعًا، لم يهتدِ إلى أفضل من القدّيس توما الأكوينيّ، الذي كان قد فتح ذهنه على فهم العلوم اللاهوتيّة، وأتاح له أن يصبح كاهنًا، فأطلق عليهم اسم "التوماويّين".

وظلّ الأب كُتُلِنْغو عاكفًا على تلبية كلّ نداءٍ، وعلى تأسيس جماعاتٍ جديدةٍ تواجه كلّ حالة بؤسٍ.

واتّفق أن أقام الرهبان الدومينيكيّون، عام ١٨٤٠، رياضةً روحيّةً. وتعذّر على الراهب المكلّف بالوعظ، في أحد الأيّام، القيام بواجبه، فتولّى المهمّة، عنه، رئيسه، ولكنّه لم يكن قد أعدّ عظةً في سياق الرياضة الروحيّة، فارتجل عظةً تناولت ارتداد مريم المجدليّة. وما كاد ينحدر عن المنبر حتّى جاءته امرأةٌ، وصارحته: "لقد أفهمتني عظتُك أنّني أنا هي المجدليّة التي تكلّمت عنها، وإنّي أتمنّى العزوف عن حياة الخطيئة والقذارة". فنصحها الواعظ بالثبات على ما وطّنت عليه عزيمتها، وإقناع رفيقاتٍ لها يشاركنَها هذه النيّة عينها، والعودة إليه، ريثما يكون قد اهتدى إلى مكانٍ يستقبلهنّ، ويسهّل لهنّ تحقيق مقصدهنّ. ولم يكن في تورينو، سوى مكانين معدّين لهذه الغاية، أحدهما تُديره راهبات الراعي الصالح، وآخر أَسّسته مركيزة. ولكن كان لذَيْنك المقرّين، كليهما، شروطٌ وأنظمةٌ تحول دون استقبال القادمات الجديدات. وكانت التائبة قد عادت إلى الراهب برفقة إحدى عشرة زميلةً لها، ولم يبقَ للراهب سوى ملاذ القلب الكبير المشرع لغوث كلّ بؤسٍ، فلجأ إلى الأب كُتُّلِنْغو الذي استمهله ثلاثة أيّامٍ، حتّى يتدبّر الأمر. وفي هذه الأثناء اشترى بيتًا له حديقةٌ، وسورٌ، واستدعى من "كوڤـــاريتّو" ثلاثًا من كرمليّاته اللواتي تميّزنَ بالتزامهنّ الصارم بالنظام، وفسّر لهنّ مهمّتهنّ، وعيّنهنّ مشرفاتٍ على البيت الجديد. وما لبثت أن احتلّت ذلك البيت التائبات الاثنتا عشرة، فأوكلهنّ الأب كُتُّلِنْغو إلى حماية التائبة المصريّة الشهيرة، القدّيسة "تائيس"، وسمّاهنّ "التائيسيّات".

وبفضل قيادة الكرمليّات، وسهرهنّ، سارت الأمور سيرًا مُرضيًا، أثار دهشة جميع الذين لحظوا تحوّل تلك التائبات اللواتي غمر نفوسهنّ سجوٌّ لا يتزعزع، صانهنّ من كلّ تطلّع إلى الوراء. ولا سيّما بعد أن خَبرْنَ طمأنينة الاستغراق في الصلاة، والعزيمة الصامدة، والالتزام بتوصيات الأب القدّيس، وبعد أن شهدنَ الأحداث المعجزة التي كان الربّ يجريها، تلبيةً لأدعيته، والتي كانت ترسخّهنّ في نواياهنّ المقدّسة.

وتوالى قدوم تائباتٍ جديداتٍ، حتّى بلغ عددهنّ الستّين.

ولّما تثبّت الأب من توغّل التائيسيّات في معارج تقديس نفوسهنّ، وفي اكتساب الفضائل ألبسهنّ ثوبًا رهبانيًّا. وشرع بتكريسهنّ وإلزامهنّ بنذورٍ، ولكنّ حلمه هذا لم يتحقّق إلاّ بعد وفاته. وفي هذه الأثناء كان يزورهنّ بتواترٍ، ويزوّدهنّ بإرشاداته المُفعمة حكمةً، وطيبةً، وعزيمةً، وتشجيعًا. وكان يطيب له التحدّث عنهنّ، بفخرٍ وفرَحٍ، إلى سائر راهبات *البيت الصغير* .

لقد التزمت التائيسيّات بصمتٍ يكاد يكون دائمًا. وزهدنَ في مأكلهنّ، وتواترت أصوامهنّ، ولم يكن معبد دارهنّ يخلو، لحظةً، من عابداتٍ للقربان المقدّس، ومن الترانيم، وتلاوة مزامير التوبة. وكنّ يقدّمنَ كلّ صلواتهنّ وتضحياتهنّ تكفيرًا عن خطاياهنّ السابقة، وخطايا البشر، وتوسُّلاً لهداية فتياتٍ ما زلن غائصاتٍ في الرذيلة، لعلّهنّ يدركنَ كرامتهنّ التي لا يجوز امتهانها، ويقتنعنَ بأنّهنّ لسنَ دمًى يُعبَث بها لحظاتٍ، ثمّ ترمى وتزدرى ازدراءً أبديًّا.

غير أنّ هذا التأسيس قد واكبه حدثان طريفان. فلمّا اشترى الأب بيت التائيسيّات لم يكن يملك فلسًا، ووعد بأداء الثمن في غضون ثمانية أيّامٍ. وفي هذه الأثناء قصد صديقًا كريمًا، وأطلعه على الأمر، وأراه عقد الشراء، وأخبره أنّه أرشق من فراشةٍ، ولا يملك من مبلغ الشراء فلسًا واحدًا. وكان الرجل خبيرًا بمجازفات الأب المبنيّة على ثقةٍ مطلقة بالعناية الإلهيّة، فضحك وناوله المبلغ. فمضى به الأب إلى الكاتب بالعدل، من أجل توثيق البيع وتسجيله. ولكنّ ذلك الموظّف كان غائبًا، حينذاك، وتمّ الاتّفاق على إتمام المعاملة بعد ثمانية أيّامٍ. وبقي المبلغ في أقلّ المحافظ أمانًا، أي بيد الأب كُتُّلِنْغو، وكاد يحرقها. وإذ كان عائدًا إلى البيت، لم يقوَ على تجاهل أيدي المستعطين الفقراء، ولا على الإحجام عن إغداق المال عليهم، ولّما وصل إلى مقرّه، كان قد بات خالي الوفاض، وكان المبلغ قد تبخّر بأكمله. وفي الموعد المحدّد لتسديد الثمن وتسجيل البيع والشراء، عاد الأب إلى

بيت المحسن، الذي كان قد قدّم له ثمن البيت، لأسبوعٍ خلا، وروى لــه، باسمًــا، كيف بدّد المال، فضحك الرجل ملء شدقيه، ودفع له ثمن البيت ثانيةً، ورجاه أن يحثّ الخطى إلى الكاتب بالعدل، مباشرةً، غير ملتفتٍ يمنةً أو يسرةً.

وكان ذلك البيت الذي استقرّت فيه "التائيسيّات" بعيدًا عن *البيت الصغير*، ومحاطًا ببيوتٍ يسكنها أوغادٌ، لم يرُقْ لهم أن يحرمهم الأب "كُتُّلِنْغو" من الغانيات، فوطّنوا العزم على الانتقام منه. وتجمهروا، ذات ليلةٍ، أمام ذلك البيت وراحوا يطلقون الشتائم المقذعة، والتهديدات المرعبة، حتّى أدخلوا الذعر إلى قلوب التائبات والمشرفات عليهنّ، فاستغثنَ بالأب الذي حضر في الحال، ولم يدُرْ في خلده أنّه هو الصيد الذي كان الأوغاد ينتظرونه، فانقضّوا عليه انقضاض الكواسر، وأوسعوه ضربًا وركلاً، وتركوه بين حيٍّ وميتٍ. وبمشقّةٍ نهض الأب منهكًا، مترنّحًا ألمًا، وهتف "الحمد لله، الحمد لله". وبعد أن طمأن التائيسيّات والمشرفات عليهنّ، عاد إلى البيت مسرورًا. بيد أنّ الاعتداء الوحشيّ الذي تعرّض له قد خلّف، في صحّته، آثارًا لم تُمْحَ قطّ، ولم ينجُ الأب من آثارها. فمنذ تلك الليلة واكبته أوجاعٌ دائمةٌ، أثقلت حركته، وحرمته النوم والراحة، وسرّعت أجلَه. ونال الأوغاد عقابهم بيدٍ سماويّةٍ، فقد أطاح حريقٌ ببيوتهم، وأراح التائيسيّات من إزعاجهم وبذاءتهم.

بعد إحداثه كلّ هذه المؤسّسات الروحيّة، تساءل كثيرون عن سبب إغفاله تأسيس إكليريكيّةٍ. وقد برّر، هو، هذا الإرجاء، بإيلائه الأولويّة لتوفير العدد الكافي من الكهنة الكفيلين بتقديم الخدمات الروحيّة الضروريّة لمرضاه وللعاملين في مؤسّساته، تمهيدًا لتأسيسه جمعيّة الثالوث الأقدس. وبعد أن ضمن هذه الخدمات انبرى إلى إنشاء إكليريكيّةٍ. وكان أوّلَ من خطر له ترشيحهم لهذه المهمّة السامية، أيتامٌ استقبلهم *البيت الصغير*، وإخوةٌ صغارٌ تميّزوا بالتقوى، وبقسطٍ وافٍ من العلم. ومن جانبٍ آخر، كان يعلم أنّ في القرى الجبليّة شبّانًا تجتذبهم دعوة الكهنوت، ولكنّ ضيق ذات يد ذويهم يحول دون تمويل دراستهم. ولهذا السبب لم يكن من اليسير على الفقير، في تلك الحقبة، التطلّع إلى الكهنوت. وخير مثالٍ على هذه الحال كان الفتى "جان بوسكو"، الذي اضطرّ إلى العمل المضني، في شتّى المجالات، وفي مهنٍ عديدةٍ، من أجل توفير نفقات دراسةٍ تفضي به إلى الكهنوت.

ونظرًا إلى خطورة شأن هذا المشروع، دعا الأب جميع سكّان *البيت الصغير* إلى صلاةٍ حارّةٍ، قبل أحد العنصرة، وفي يوم العيد انتقى ثلّةً من الأيتام الصغار، وأسكنهم في دارٍ، أطلق عليها، لاحقًا، اسم "إكليريكيّة القدّيس توما الأكوينيّ"، عرفانًا بجميل ذلك القدّيس الذي استجاب لتوسّل "كُتُّلِنْغو" الفتى، وفتح ذهنه على فهم الدروس.

وسارت أمور تلك الإكليريكيّة خير مسيرةٍ. ومكث في جمعيّة القدّيس توما الأكوينيّ، طوعًا، عددٌ من خرّيجيها، فيما اختار آخرون الخدمة في رعايا قراهم. وقد ارتقى عددٌ منهم إلى سدّة الأُسقفيّة، وخدموا رعايا إيطاليّةً، ومنهم من تطوّعوا لرسالاتٍ في بلدانٍ بعيدةٍ. ولم يتخلَّ معظم خرّيجي تلك الإكليريكيّة عن وفائهم لمؤسّسها.

عام ١٨٤١ انتاب الأبَ شعورٌ بأنّ تلك السنة هي سنة عمله الأخيرة، فقد كانت قواه تنساب قطرةً، قطرةً. ومع ذلك لم يُحجمْ عن إطلاق الحبّة الأخيرة في عنقود مؤسّساته الروحيّة، وهي عيلة "الراعيات الصغيرات"، التي أنشأها في خريف عام ١٨٤١، أي في الشهر الثامن السابق لرحيله إلى السماء.

فقد جاءه، حينذاك، لاهوتيٌّ شهيرٌ بفتاةٍ في الثامنة عشرة، ابنة أُسرةٍ عاطرة السيرة، وعميقة التقوى، ولكنّها فقيرةٌ. وكانت الفتاة راغبةً في تكريس ذاتها لله. ولكن كانت تعيقها عن هدفها هشاشة صحّتها؛ فتأمّلها الأب مليًّا، وأعمل فكره في مصيرها. فهي لم تكن معدّةً لحياة الـﭭنسانيّات، ولا مؤهّلةً للانحباس في ديرٍ مغلقٍ. وبعد لحظاتٍ قال بهدوءٍ: "سنتدبّر الأمر. ولا ريب أنّ ثمّة كثيراتٍ يحاكينَها توقًا إلى تكريس ذواتهنّ، مع هشاشة بنيتهنّ. ولكنّهنّ قادراتٌ على إنتاج خيرٍ عظيمٍ. سننشئ، إذن، عيلةً تحتلّ مكانةً وُسطى بين الحبيسات والـﭭنسانيّات. وبما أنّ العناية الإلهيّة هي التي ترسلهنّ، فهي ستهتمّ بهنّ".

تقبّل الأب، إذن، تلك الفتاة، واختار لها أربع رفيقاتٍ من بين "الأُرسلاويّات" واليتيمات، واستهلّ بهنّ أُسرة "الراعيات الصغيرات"، التي أوكلها إلى رعاية السيّدة العذراء، الراعية الإلهيّة، وابتكر لهنّ زيًّا خاصًّا مميّزًا، وكلّفهنّ:

- بالسعي إلى خلاص النفوس، ولا سيّما نفوس مقعدي *البيت الصغير*، ومرضاه، بتلقينهم المبادئ المسيحيّة، وبإعدادهم لتقبّل الأسرار المقدّسة تقبُّلاً واعيًا.
- بالصلاة من أجل فتيات العالم المعرّضات لتجارب الرذيلة، وتخصيص صلواتهنّ، وتضحياتهنّ، ومناولاتهنّ، وأعمالهنّ الصالحة، لهذه الغاية.

وهكذا أوجد الأب جماعة "الراعيات الصغيرات" سبيلاً وسطًا يقرن العبادة بالعمل، وحبّ الله بمحبّة القريب، وأعمال المحبّة بالعبادة.

وفي كلّ تلك المؤسّسات الروحيّة تجلّت روحانيّة الأب كُتُّلِنْغو، القائمة على الأسرار المقدّسة: الثالوث، التجسّد، الخلاص، تكريم السيّدة العذراء، ومشاركة القدّيسين. لم تكن روحانيّته مضمّخةً بماء الورد، ولا بتنهّداتٍ، وهتافاتٍ، وانخطافاتٍ، فحسبُ، بل كانت اتّحادًا دائمًا بالله، وجهدًا لتقديس حياة العالم، وللتكفير عن خطاياه، فكانت صلواته وصلوات *البيت الصغير* تكتسب، بذلك، ملء معناها وجدواها القصوى. وكانت كلّ مؤسّساته بنات قلبه، ومصطبغةً بروحانيّته. فهو لم يكن يقدّم لألوف نزلاء *البيت الصغير* أمنًا وهناءً، وصحّةً لأجسادهم، فحسبُ، بل كان حريصًا على تغذية عقولهم وقلوبهم، بمعرفة الله وحبّه، ومن ثمّ كان يشدّد، دائمًا على واجب تعليم المبادئ المسيحيّة، وعلى ممارستها، في كلّ القاعات، حتّى في بيوت واهني الذهن، وكان لا يني يردّد القول: "إنّ الحاجة الأولى، في كلّ عيلةٍ، هنا، هي نهوضها على أُسسٍ متينةٍ. فأيّ نفعٍ يجنيه منّا المقيمون في هذا البيت، إن لم نولِ جلّ اهتمامنا لنفوسهم، وعقولهم، فيما نحن نعالج أجسادهم؟ فهذا الاهتمام هو الباقي أبديًّا، أمّا الخدمات الجسديّة فسيمحوها الزمن".

وكان الأب كُتُّلِنْغو قد تنبّأ بولادة أُسرٍ روحيّةٍ أُخرى كفيلةٍ بإكمال هيكل *البيت الصغير*، ولكنّ موته الباكر لم يُتِحْ له رؤيتها. ومع ذلك رأت النور، عقب وفاته، وأضاف إليها خلفاؤه، ولا سيّما خليفته الأوّل، الأب "أنكليزيو" العديد من الجمعيّات الجديدة.

مدخل بيت العناية الإلهيّة الصغير

الفصل الرابع

بيت العناية الإلهيّة

« فلنَدَع الماضي لرحمة الله، والحاضر لوفائنا... والمستقبل للعناية الإلهيّة »

"القدّيس فرانسوا الساليزيّ"

ومضـــات

- « أنت لا تنـأى عنّا أبـدا، يا ربّ، ومع ذلك، كم يلزمنـا من جهدٍ كي نعودَ إليك! »

القدّيس أوغسطينُس

- « بالألم والصليب نبلغ القيامة »

الأخت إيمّانويل

- « أظهر لي ذاتَك، يا ربّ، فكلّ شيءٍ قاسٍ عندما يفقد المرءُ نكهةَ الله »

سانت اكسوپيري

- « كم آسَفُ لعجزي التامّ عن فهم الحياة، ولسَعيي إلى فهم أمورٍ لا جدوى من محاولة فهمها. فليس الفهم هو غايةَ الحياة، بل غايتُها هي المحبّة، ومساعدة الآخرين، والصلاة، والعمل »

الدكتور ألكسي كاريل

ثقةٌ لا محدودةٌ بالعنَايَة الإلهيَّة

الذين راقبوا، من الخارج، بذهولٍ، نموّ *البيت الصغير*، بلا تخطيطٍ سابقٍ، ولا موارد متوفّرةٍ، وكان يأخذهم الإعجاب والدهشة، في الآن عينه، وكانت تُمِضّ بعضَهم الخشيةُ على مستقبل مشروعٍ جمٍّ، لا أُسس له ولا دعائم، لأنّهم لم يفطنوا إلى أنّ ذلك البيت قد نهض على دعائم إلهيّةٍ، تتحدّى عوامل الدنيا والزمن، ونسوا أنّ مؤسِّسه قد نسبه إلى العناية الإلهيّة، وأقرّ أنّها هي صاحبته، وهي التي ألهمته، ورسمت خطاه، وواكبت نموّه العجيب، وموّلت احتياجاته، وأزاحت عن طريقه العقبات الكأداء التي كادت تقضي عليه.

والذين لم يشاطروا الأب ثقته المطلقة بالله، عدّوا إقدامه على عملٍ يفتقر إلى كلّ مقوّمات البناء المتين، عدّوا مشروعه مجازفةً رعناء، لا غدَ لها، ولا مصير سوى الفشل الذريع. فأغدق عليه أخواه الكاهنان، ورفاقه، وأصدقاؤه، نصائح التعقّل، والعُزوف عن التطلّع المفرط في الطموح، خشية تحطّم الإناء إذا أُسرف في ملئه. وناشدوه الاقتصار على عملٍ يتناسب مع الموارد المتاحة والمضمونة، أي على ما لا يتيح سوى عملٍ هزيلٍ، لا يُشبع جياعًا، ولا يدفئ مقرورين، ولا يعين جماعات البائسين.

ربّما كان نصحُ بعضٍ منهم حسدًا متنكّرًا بثوب المحبّة والغيرة. ومن المحقّق أنّه كان نابعًا من عجزهم عن الاعتراف بقدرات ثقة الأب المطلقة بالعناية الإلهيّة، وبالوعود التي كانت قد زوّدته بها الأُمّ السماويّة. ومن المؤكّد أنّهم لم يروا تجلّي يد الله في توسّع *البيت الصغير* توسُّعًا مطّردًا لا يتوقّف، ولم يفهموا كيف استطاع ذلك البيت استيعاب أعدادٍ متناميةٍ، بلا حدودٍ، من المرضى الفقراء، وإقامة مراكز عنايةٍ بمختلف أصناف البؤس والعاهات.

وكانت تلك النصائح الداعية إلى الجبن والرداءة، بمعزلٍ عن كلّ مخاطرةٍ، تنساب على ذهن الأب، انسياب ماءٍ على صخرةٍ ملساء. وما انفكّت ثقته اللامحدودة بالعناية الإلهيّة، تهزأ وتزري بالحكمة البشريّة، وتتحدّى منطق التحفّظ، ولا تثني الأب عن تحقيق كلّ ما يشير إليه الله بفعله، بلا تردّدٍ ولا تحفّظٍ. وكافأت العناية الإلهيّة ثقته هذه بما يفوق كلّ حسابٍ بشريٍّ.

وشاطر الأبَ ثقتَه المطلقة هذه العاملون معه، في *البيت الصغير*، وفئةٌ رحبةٌ من المتعهّدين، والمورّدين الذين أيقنوا أنّ الله لا يخيّب رجاء المعتمدين عليه اعتمادًا واثقًا، وطيدًا. فسكن نفوسَهم السلامُ واليقين بأنّ العناية الإلهيّة لا تخدع، ولا تتخلّى عن بيتٍ يوليها ثقةً بلا تحفّظٍ، ويعتمد عليها اعتمادًا لا يشوبه وجَلٌ ولا تردّدٌ.

لقد بنى الأب كُتُّلِنْغو، على ركنَيْن أساسيَّيْن:

- أوّلهما أنّ واجب من يضطلع بعمل الله أن يمّحي ويتوارى، وينكر ذاته. وهذا ما حرص عليه الأب منذ بدء عمله، ولم يتخلّ عنه لحظةً.فأعلن وأيقنَ أنّه، هو، لا شيء سوى أداةٍ طيِّعةٍ في يد العناية الإلهيّة. ولطالما أكّد على الملأ أنّ لا ذرّة فضلٍ له، في كلّ ما تحقّق، بل الفضل كلّه هو للعناية الإلهيّة. وقد جاءه، يومًا، سيّدان، وبلّغاه خشيتهما على مستقبل *البيت الصغير* إذا هو مضى قدُمًا في توسّعٍ غير محسوبٍ ولا مسؤولٍ، وغير مستندٍ على موارد مؤكّدةٍ. فشكر لهما اهتمامهما بـــ *البيت الصغير*، ولكنّه أوضح لهما: "إنّ ما يُقلقكما لا يقلقني، وما يؤرّقكما لا يؤرّقني. وأنا مدركٌ أنّني بذاتي، عاجزٌ عن إطعام فقيرٍ واحدٍ، ولستُ أنا من يوفّر احتياجات *البيت الصغير*، بل إنّ الله هو الذي يطعم جميع سكّان البيت، ولو كان هذا البيت بحجم العالم أجمع، لكفاه بيُسرٍ!"

وفي نوبةٍ أخرى، أخذ عليه محسنٌ ترحيبه بكلّ فقيرٍ، مُغفِلاً التحقّق من أوضاعه، فأجابه: "بقدر ما يدخل فقراء إلى هذا البيت يمطر علينا الله، من

سمائه، أكوام خبزٍ، وينـــزل لكلّ قادمٍ ما يُشبعه. ولست أنا من يأتي بالخبز، بل العناية الإلهيّة هي التي يطيب لها إسقاط كومة خبزٍ، إثر كومةٍ".

- الركن الثاني هو وعد الربّ بمنح من يسعى، في المقام الأوّل، إلى تحقيق ملكوت الله، كلّ ما يحتاج إليه المؤمن الذي يعمل في سبيل رضاه.

ومن ثمّ أولى الأب جلّ همّه إلى تمجيد الله، بانتهاج مسيرة قداسةٍ لا يشوبها عيبٌ، وبممارسة أسمى الفضائل. وقد التزم بمقتضيات القداسة، وحرص على نزاهة العاملين معه، من كلّ خطأٍ جسيمٍ، لكي يظلّوا جديرين برعاية العناية الإلهيّة وبسخائها. ولطالما ردّد على مسامع معاونيه: "فلنستهدف، فقط، حبّ الله، ولننفّذ وصاياه وتعاليمه، ولندَعْه يعمل! ومن المحقّق أنّ كلّ ما تفعله العناية الإلهيّة سيكون رائعًا وخارقًا!".

وكان كلّما لمح أمارات همٍّ، أو كآبةٍ، أو حيرةٍ على محيّا أحدهم، سواءٌ كان كاهنًا، أو راهبةً، أو أخًا، يستشفّ ما ارتكبه كلٌّ منهم من خطأٍ، وما سبّب اضطرابه، فيستفسره عن علّة وجومِه واكتئابه، ولكن قبل أن يستطيع المسؤول الإجابة، كان يباغته بقوله: "لقد أخبرتني إصبعي الصغيرة بكلّ شيءٍ".

وإذا اجتاز *البيت الصغير*، بين فينةٍ وفينةٍ، أزماتٍ ماليّةً خانقةً، ومواسم جفافٍ قاتلٍ، كان بعضهم يعزوها إلى تهوّر الأب وسوء إدارته، وإقدامه على ما يفوق طاقاته، وما لم يُعِدّ له عدّته، فيما كان هو راسخ اليقين بأنّه، هو، أو أعوانه، السبب الحقيقيّ، فيعلن على الملأ أنّ كفّ العناية الإلهيّة "لا تعرف القبض"، ولا سبب لانقباضها المؤقّت، إلاّ تقصير أهل البيت، وأنّ خطيئةً كبرى ارتُكِبت واستفظعها الربّ. فيدعو إلى فحص الضمائر، وتصويب كلّ معوجٍّ. وكان، دائمًا، هو البادئ بالتنقيب في ثنايا وجدانه، ثمّ يدعو الآخرين إلى البحث في خفايا نفوسهم عن مكامن الخطأ، والسعي إلى إصلاحها، وإزاحة العوائق عن درب العناية الإلهيّة. فتتصاعد الصلوات، وتتضاعف التضحيات.

كلّ إهمالٍ من جانب العناية الإلهيّة كان يفسّره إهمالاً من قِبَله وقِبَل مساعديه والعاملين معه. فذات يومٍ، ألّمت بالبيت ضائقةٌ حادّةٌ، وجاء من يحادثه عنها فقال له أن لا داعي للبحث عن السبب. ففي البيت كان، يومذاك، اثنا عشر سريرًا شاغرًا، ويكفي أن يشغلها اثنا عشر بائسًا حتّى تنفرج الأزمة.

وفي نوبةٍ أُخرى باح لصديقٍ: "يبدو أنّ الربّ غير راضٍ عنّا، فتعال معي، كي نتحرّى مكمن الخطأ. وفي أثناء بحثهما شرع الليل يهبط، ومع ذلك واصلا طوافهما حتّى عثرا، في أحد أقصى أجنحة الدار، على سريرٍ شاغرٍ، فقال الأب لرفيقه: "لا غرابة أن يستاء الله منّا، فهذا السرير الفارغ هو سبب انقباض يد الله. قد نضطرّ، أحيانًا، إلى مضاعفة أعداد الأسرّة، ولكن لا يحقّ لنا، أبدًا، أن نُبقي سريرًا شاغرًا".

ومن ثمّ كان وطيد الثقة بأنّه طالما ظلّ، هو ومعاونوه، أوفياء للعناية الإلهيّة، فهي لن تمسك عنهم مساعدةً. وهذا ما أكّده بقوله: "لا يمكن أن تتخلّى عنّا العناية الإلهيّة. فقد تمتحننا، أحيانًا، ولكنّ امتحانها لا يثنيني عن ثقتي المطلقة بها". وكانت هذه الثقة تدفعه إلى مبادراتٍ تبدو لسواه حماقةً صرفًا.

وقد تجلّت ثقته هذه بصورٍ متعدّدةٍ، منها استقباله المستهجن لطالبات وطالبي انضمامٍ إلى جمعيّاته، ومن خلال تكليف راهباته ومرسليه بمهامّ تبدو متنافيةً مع مؤهّلاتهم، وأحوالهم الصحّيّة. ولطالما أثارت هذه التكليفات استنكارًا، ثمّ أدهشت بصوابها. أحد الشواهد على ذلك أنّه استقبل، عام ١٨٣٥ فتاةً في الخامسة والثلاثين من العمر، هشّة الصحّة، تُدعى "فيلومينا"، وكلّفها برعاية مستوصفٍ يضمّ خمسةً وعشرين رجلاً مريضًا. وإذا سُئِل عنها، كان يجيب: "فلندعها تعمل! ولنثقْ بأنّ الأخت فيلومينا الطيّبة ستجيد عملها، طالما حفظها الله لنا، ولا داعي للقلق!". وجاء يومٌ أُصيبت فيه "فيلومينا" بالكوليرا!. ولمّا شُفِيتْ، باحت لمرشدها: "ها قد قضيت سنةً كاملةً مع المصابين بالكوليرا، وكنت، أثناءها، في أفضل حالٍ، ولم ينتبني أيّ تعبٍ".

وكانت راهباتٌ عديداتٌ قد لقينَ حتفهنَّ في خدمة مدينة "ڤوغيرا"، حيث انتشر وباءٌ خطيرٌ. ومن أجل استبدالهنّ، جمع الأب الـڤنسانيّات، واستفسر مَن منهنّ راغباتٌ في الاضطلاع بهذه الرسالة. وكانت بين من رفعنَ أيديهنّ، تعبيرًا عن قبولهنّ المهمّة، أختٌ مدعوّةٌ "هنري"، وهي تعاني أمراضًا شديدةً، وكان قد جيء بها من حجرتها، متّكئةً على سواعد أخواتها. فسألها الأب: "أيّتها الأُخت "هنري"، علامَ تريدين الذهاب إلى "ڤوغيرا"، وما الذي تستطيعين فعله، بما أنّك مضطرّةٌ إلى التزام الفراش؟" فأجابت:

- إذا سمحتَ لي بالذهاب، سيهبني الله القوّة على القيام بالمطلوب منّي!
- بما أنّ هذا هو إيمانك، امضي، وافعلي ما تقوَينَ عليه، وبركتي معك.

وانطلقت الراهبات إلى "ڤوغيرا" فرحاتٍ. ومذّاك تحرّرت الأخت "هنري" من كلّ آلامها، وأدّت مهمّتها أداءً مثاليًّا، رائعًا.

ويوم انضمّ الأب "أنكليزيو" إلى *البيت الصغير*، قيل للأب كُتُّلِنْغو عنه، إنّه عنصرٌ رفيع الشأن، وجزيل الجدوى، وهو كفيلٌ بتشريف *البيت الصغير*. ولكنّ الأب، مع عظيم تقديره للأب "أنكليزيو" ومحبّته له، وإيصائه بأن يكون هو خليفته على إدارة شؤون البيت، من بعده، أجاب، بلا مراوغةٍ، بأنّ *البيت الصغير* هو الذي يشرّف الأب "أنكليزيو"، وخلفاءه، وأنّ العناية الإلهيّة هي التي تشرّف جميع العاملين في ذلك البيت.

ومن جرّاء إيمانه بأنّ العناية الإلهيّة هي المسؤول الأعلى، وصاحب الفضل الأوحد على مسيرة *البيت الصغير*، بيتها، لم يرضَ أن يرعاها أحدٌ من البشر، مهما علا شأنه، فما من عظيمٍ يستحقّ أن يكون سيّد فقراء الله، وحاكم بيت العناية الإلهيّة.

ومن المعلوم أنّ الملك شارل ألبير كان من أصدقاء الأب، والمعجبين به، وبأعماله. وحرصًا منه على مستقبل *البيت الصغير*، نصحه، يومًا، بوضعه تحت حماية الحكومة،

فأجاب الأب: "هل تسمح لي جلالتكم بالتذكير بأنّ هذا البيت هو بحماية السيّدة العذراء والعناية الإلهيّة، فكيف لي أن أنتزعه منهما، وأمنحه للحكومة؟".

وفي مناسبةٍ أخرى، أوفد الملك رسولاً ينبئه بأنّه راغبٌ في زيارة *البيت الصغير*، تعبيرًا عن اهتمامه به، فأوكل الأب إلى رسول الملك أن يقول له: إنّ *البيت الصغير*، بأكمله يشكر لجلالته، من أعماق القلب، مبادرته الرقيقة. ولكنّه سيكون له أشدّ امتنانًا إذا عزف عن هذه الزيارة، لأنّه يخشى أن تعتبر العناية الإلهيّة عنايةً بشريّةً إهانةً لرعايتها.

ومن المؤكّد أنّ هذا الموقف كان منــزّهًا من كلّ تعالٍ، ولم يكن له من دافــعٍ سوى عجزه عن السكوت عن الحقيقة التي كان يؤمن بها.

وقد دُعي الأب، يومًا، إلى القصر، وجرى حديثٌ رقيقٌ بينه وبين الملك، الذي قال له: "فليحفظك الله طويلاً بيننا، يا أبت العزيز. ولكن هل فكّرت بخليفةٍ لك، وبمصير *البيت الصغير*، بعد رحيلك؟". وكانا كلاهما، آنذاك، واقفين أمام نافــذةٍ مطلّة على فناء القصر. فقال الأب: "هل تشكّ جلالتكم بسهر العناية الإلهيّة؟ انظر ما يجري الآن أمام ناظريْك، حيث يتمّ تغيير الحرس، فالجنديّ الذي يمضي يهمــس بكلمة سرٍّ في أُذن من تولّى المهمّة عنه، ولم يلاحظ أحدٌ تغييرًا، واستمرّت الحراسة. هكذا سيتابع *البيت الصغير* مسيرته. أنا لا شأن لي. وعندما ستحدّد العناية الإلهيّــة الساعة، ستهمس كلمةً في أُذن مِن سيحلّ مكاني، فيتولّى الحراسة. هي التي تــدبّر كلّ شيءٍ، وليس لأيّ بشرٍ شأنٌ يجعل الاستغناء عنه، أو استبداله، مســتحيلاً، أو سبب انهيارٍ".

وكان أصدقاء الأب يُشفقون عليه بسبب كثافة أعماله، وتراكم الهموم الــتي يُلقيها على عاتقه تكاثر أعداد سكّان *البيت الصغير* وتنامي نفقاهم، وكــان ردّه عليهم: ليس لديّ من الهموم شيءٌ، والتعب لا علم لي به... مذ أخطــو خــارج البيت، أكفّ عن التفكير فيه، لأنّ هناك من يفكّر فيه ويرعاه".

ونصحه بعضهم بإنشاء لجانٍ مدنيّين يتولّون إدارة البيت، إدارةً علميّةً سليمةً، فأجاب، قاطعًا، أنّ وجود البيت واستمراره لا يحتاجان إلى أشخاصٍ وعلماءَ، لأنّ العناية الإلهيّة أعلم من الجميع بما يجب فعله. وطمأنهم بأنّ أُمور البيت ستسير، بعد موته، على نحوٍ أفضل، طالما ظلّت برعاية العناية الإلهيّة.

وقد برهنت العناية الإلهيّة عن استجابتها لثقته بها، بأشكالٍ مختلفةٍ، أبرزها توفير المال من أجل توسيع *البيت الصغير* المطّرد، وتأمين نفقاته اليوميّة الباهظة، والمتنامية، يومًا فيومًا.

لم يبتغِ الأب، قطّ، أن يسوق البيتُ حياةَ بذخٍ، حتّى عندما كانت تفيض العطايا. ولكنّه كان دائم الحرص على أن ينال جميع سكّان البيت طعام الفقراء، بالقدر الوافي، وألاّ يساور أحدًا قلقٌ على طعام الغد، فهو شأن الله وحده. ولم يرضَ، يومًا، التقتير في كمّيّات الطعام اليوميّة، ادّخارًا لكفاية طعام الغد، ولا سيّما عندما كانت تتضاءل المؤونة، وتشحّ الواردات. وكان يقول لراهباته: "إنّ العناية الإلهيّة تدري، خيرًا منّا، ما نحتاج إليه غدًا. فلننفق، الآن، ما ترسله لنا اليوم". وقد أنّب الأب، بشدّةٍ، راهبةً احتفظت بطعامٍ، خشية ألاّ تجد ما يكفي لإطعام النزلاء في الغد، وقال لها: "إنّك بعملك هذا، جلبت العقاب على كلّ البيت. ومن المؤكّد أنّ العناية الإلهيّة ستقبض عنّا يدها غدًا". وصدق توقّعه، فكان اليوم التالي من أقسى أيّام البيت، زهدًا وتقشّفًا.

واستنادًا على ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، وإيمانًا منه بأنّ الله يوفّر كلّ شيءٍ، لم يكن يحسب للمال حسابًا، فلم يرفض، يومًا، استقبال مريضٍ، أو فقيرٍ، بل كان يبحث عن الفقراء، والمرضى، ويحمل إليهم احتياجاتهم الأساسيّة، ولم يكن يتحرّج من الاستدانة من أجلهم، وهو وطيد الإيمان بسهر العناية الإلهيّة على تسديد ديونه، فلا عجب أن بلغت ديونه قممًا كانت تزرع الرعب في قلوب المراقبين، ولكنّها لا تهزّ من نفس الأب وترًا.

وقد أيقن الأب أنّ الوسيلة المثلى لرفد ميزانيّة *البيت الصغير* هي الإمعان في أعمال المحبّة. فلم يردّ، يومًا، صاحب حاجةٍ، ولا أحجم عن علاج علّةٍ، ولم يكفّ عن توسيع البيت، من أجل استيعاب كلّ محتاجٍ إلى غوثٍ ورعايةٍ، وهو مدركٌ أنّ ذلك يرتّب على البيت من المسؤوليّات والنفقات ما ترزح تحت وقره أغنى المؤسّسات، وأعرقها، وأوفرها موارد، وأحكمها إدارةً. ومع ذلك، لم يكن يني يردّد: "الفقراء هم كنـــزنا".

ذات يومٍ، أثناء حوارٍ له مع الملك "شارل ألبير"، استشفّ الملـــك، في حـــديث الأب، أمارات قلقٍ من جرّاء تضاؤل الحسنات، وتراكم الديون. فكلّف، في اليـــوم التالي، مستشارَيْن بتفقّد احتياجات *البيت الصغير* عن كثبٍ، وإذا اقتضـــى الأمـــر نُصح الأب بالحدّ من نفقاته ومشاريعه، تخفيفًا لأعبائه. وكان الأب عنـــد حضـــور موفدَيِ الملك، قد استعاد هدوءه، واطمئنانه، فجال مع ضـــيوفه خـــلال أجنحـــة *البيت الصغير*، وأراهم بناءً ما زال شاغرًا، وباح لهم بأنّ أشدّ ما يؤرّقه هو عجـــزه عن إشغال ذلك البناء، وعازيًا هذا الفشل إلى وهن ثقته بالعناية الإلهيّة، ومؤكّدًا أنّ هذا الوهن هو سبب المحنة التي ألّمت بالبيت، وأنّ عليه إشغاله بلا تلكّؤٍ كي تستقيم الأمور. وخلص إلى مصارحة مندوبَي الملك: "ربّما تظنّـــون، أنتمـــا والملـــك، أنّ *البيت الصغير* قد تخطّى طاقاته على النموّ، وأنا موقنٌ أنّ واجبي هو الامتداد بهـــذا البيت إلى أقصى مدًى ممكنٍ".

وروى المستشاران للملك ما شاهدا وما سمعا، فعلّق: "أنا لا أفهم شيئًا. من المؤكّد أنّ كُتُّلِنْغو هو رجلٌ استثنائيٌّ. فلندعه يعمل، وسنرى!". وبعد مضيّ أيّامٍ معـــدوداتٍ تُوفّي كاهنٌ صديقٌ للأب، موصيًا له بثلاثين ألف فرنكٍ. وازداد الملك يقينًـــا بـــأنّ *البيت الصغير* هو عملٌ إلهيٌّ. فبفضل هذه الهبة غير المتوقّعة سارع الأب إلى إشـــغال البناء الشاغر، وملئه بمرضى ومحتاجين، وفي الحال أمطرت عليه السماء غوثها.

مدهشًا كان الأب كُتُّلِنْغو: إنّه يجود قبل أن يحسب، ويصلّي قبل أن يطلـــب.

والتزامه بهذا النهج أكسبه سجوّ نفسٍ لا يشوبه عكرٌ، وإقدامًا على تلبية نداءات المحبّة لا يعيقها خوفٌ، ولا تثبّطها عقباتٌ.

ومن المشاريع التي اتّضحت للأب ضرورة إقامتها، بناء مستشفًى للنساء، يُكمل به مجموعته الاستشفائيّة. ولكنّه كان يفتقر إلى كلّ شيء: فالبيت في ضائقةٍ ماليّةٍ، ولا أرض للبناء، ويمرّ بين مباني *البيت الصغير* طريقٌ عامٌّ، ولا يمكن لا شراؤه ولا تخطّيه، ووجوده يعيق تحقيق المشروع بأكمله. ولا مخرج إلاّ الاستغراق في الصلاة، ولو على حساب نوم الأب وراحته. وأخيرًا ومضت بارقة حلٍّ، فمع انبلاج صباحٍ داكنٍ، وإذ كان الطريق قد تحوّل إلى مستنقع، وكانت الأجواء المكفهرّة والصاخبة تدعو إلى الانكفاء، ما انفكّت ضرورة إنشاء المستشفى تحرم الأب طعم الراحة، وتلحّ، بلا هوادةٍ، على واجب الشروع بالعمل. خرج، وأكبّ، تحت وابل المطر، على رسم مخطّط المشفى. وجاء بأصمّ أبكم، واهن العقل، وأوعز إليه بحفر خندقٍ. واتّفق أن مرّت بقرب المكان راهبةٌ، فهرعت إلى الأب، قائلةً: "يبدو أنّ هذا المسكين قد فقد بقايا عقله الهزيل، فهو منذ ساعات النهار الأولى عاكفٌ على الحفر في الوحل، وتحت المطر".

ودهشت الراهبة من جواب الأب: "اطمئنّي، يا ابنتي، لم يفقد الفتى عقله. بل أنا طلبت منه القيام بهذا العمل. واعلمي أنّ العناية الإلهيّة تريد أن ينهض، في هذا المكان عينه، مستشفًى للنساء، يمتدّ من مستشفى المحبّة حتّى دار الرجاء. وسيكون رديفًا لمستشفى القدّيس يوحنّا، ولا تخافي من أن يُحظَر علينا هذا البناء، فالذي أوحى لي، هذه الليلة، مخطّطه، هو الذي سيُقنع الملك والبلديّة بالموافقة عليه. ولحظت الراهبة أنّ وضع أساس البناء في الطريق العامّ سيكون عقبةً كأداء أكيدةً، يتعذّر تذليلها، ولكنّ الأب أكّد لها، بكلّ ثقةٍ، أنّ المستشفى سينهض في ذلك الموقع عينه، لأنّ العناية الإلهيّة تريده، ولن يجرؤ أحدٌ على معارضتها، وستؤول كلّ مقاومةٍ ومعارضةٍ إلى مجد الله. وسينشأ ممرٌّ عامٌّ علويٌّ متينٌ وأمينٌ، عوضًا عن الطريق السفليّ الحاليّ.

ودُعي البنّاء "كوپــاسّو" إلى مباشرة البناء، فامتثل متوجّسًا، في كلّ لحظةٍ، أن يُمنع من المتابعة. وسرعان ما تحقّقت خشيته، بل أدهى منها. فسُجّلت بحقّه محاضر مخالفةٍ، وسُجن أحد عمّاله، وكُلِّف، هو، بدفع غرامةٍ باهظةٍ. وظلّ الأب، وحدَه، ساكنًا هادئًا. ثمّ قابل وزير الداخليّة الذي استمع إليه بهدوءٍ، وتفهّم الظروف التي دفعته إلى مخالفاتٍ، والأسباب المقنعة التي تشفَع بها. واستمهل بضعة أيّامٍ ريثما يُشبعِ القضيّة درسًا، وينتهي إلى حلٍّ يوفّق بين بناء مستشفًى، اتّضحت الحاجة إليه، وتخطّي مخالفاتٍ صارخةٍ. وفي هذه الأثناء سارع الأب إلى الإيعاز ببناء جدرانٍ حجريّةٍ، وإقامة عمدٍ متينةٍ على مكان الطريق القديم، وإقامة ممرٍّ علويٍّ يحلّ محلّ الطريق المسلوب.

ثمّ حضر الوزير، وجال مع الأب في الورشة، ومــع مشــاهدته للمخالفــات الجسيمة، اكتفى باقتراح تعديلاتٍ فنّيّةٍ تضفي على البناء تناسقًا كان يفتقر إليــه. واقتضى اقتراحه رفع الجدران ما لا يقلّ عن ثلاثة أمتارٍ. وقبل مغادرتــه، طمــأن الأب قائلاً: "لا يراودنّك قلقٌ بشأن نفقات البناء، فأنا أتولاّها". ونهض المستشفى، واستُعيض عن الطريق السفليّ بممرٍّ علويٍّ، قائمٍ على أُسسٍ شديدة المتانة. وكــاد جذلُ الملك بهذا الإنجاز يوحي بأنّه هو المموّل، وأنّه هو المحسن الخفيّ.

لم يكتفِ وزير الداخليّة بمكرمته الثمينة، بل وعد بأن يرسل إلى *البيت الصغير*، بمناسبة عيد القدّيس ڤنسان دي پول، عربتَي نبيذٍ. ولكنّه في ذلك اليوم، أرســل عشر عرباتٍ بدلاً عن عربتين. وأمست تلك الهديّة تقليدًا دائمًا.

وفضلاً عن توسيع *البيت الصغير* المستمرّ، كان إيــواء، وإطعــام، وإلبــاس، ومعالجة زهاء ألفٍ وخمس مئة شخصٍ يستلزم نفقاتٍ هائلةً. ومع ذلك لم يتقاعس الأب عن الإنفاق بسخاءٍ، حتّى عندما يكون مصفرًا لا يملك فلسًا، غــير عــابئٍ بالديون الهائلة التي تتراكم على كاهله. ولم يكن يؤيّد موقفه هذا معظم أصــدقائه، ومحبّيه. وحتّى الملك الذي كان يقدّر أرفع تقديرٍ كلّ ما كان يقوم به الأب، قــد

حذّره من الإسراف في الاستدانة، ومن الاستمرار في الإقدام على مشاريع تفوق طاقاته، لكيلا ترهقه، وتودي بكلّ ما بناه إلى الانهيار. واكتفى الأب بالردّ: "سترى جلالتكم أنّ العناية الإلهيّة لم تفلس قطّ، ولن تفلس أبدًا".

وتنامى، مرّةً، إلى علم الملك أنّ ديون *البيت الصغير* قد شارفت معادل مئة ألف فرنكٍ، فاستكبر هذا المبلغ، واستفسر الأب عن مبرّر لهذا الدين الجسيم، وعن قدرته على وفائه، فأجاب بكلّ بساطة: "ليس مبلغ مئةِ ألفٍ مستهجنًا، فهو لا يتخطّى الحدود المعقولة، ويكاد يغطّي نفقات ثلاثة أشهرٍ".

لم تكن تقلق الأب جسامة الديون، مع حرصه على وفائها بالكامل، مستندًا على يقينه بأنّ العناية الإلهيّة لن تخزي بيتًا يحمل اسمها. وفي الواقع سدّدت العناية الإلهيّة كلّ ديون *البيت الصغير*، حتّى الفلس الأخير، وكلّ مرّةٍ بطريقةٍ عجيبةٍ مختلفةٍ.

لقد علّمته التجربة أنّه بقدر ما كان ينفق كانت العطايا والإحسانات تفيض، ويتنامى عدد المقبلين إلى مائدة الربّ، وكان يعدّ كلّ ضيفٍ جديدٍ، قضمًا من مملكة الشرّير.

كان يعتمد على صلوات معاونيه، وسكّان *البيت الصغير*، ولكنّه كان يحذّر الجميع من طلب خيراتٍ أرضيّةٍ، أو أيّ مطلبٍ محدّدٍ، لأنّه كان شديد التشبّث بوصيّة الله: "اطلبوا ملكوت الله وبرّه، والله العليم باحتياجاتكم يهبكم ما تحتاجون إليه". ولم يكن يكفّ يردّد على مسامعهم: "اطمئنّوا، ولا تخافوا. فنحن أبناء أبٍ عطوفٍ يفكّر فينا أكثر ممّا نفكّر نحن فيه، فحسبنا أن نحسن التعامل معه كي يحمينا. وإذا كنّا نحن له، فيستحيل أن ينسانا. فلنتجنّب إهانته، ولنحبّه بصدقٍ، ولننبذ كلّ خوفٍ. ولا نظنّنَّ أنّ هذا أو ذاك هما يديران البيت، لأنّ من يفعل كلّ شيءٍ، في *البيت الصغير*، ومن هو كلّ شيءٍ فيه، إنّما هو العناية الإلهيّة وحدَها، هي التي تأتي إلى هنا بالمرضى، والعميان، والصُمّ والبكم، والمصابين بالصرع، وفي الآن عينه هي تزوّدنا بوسائل العناية بهم. نحن واثقون بأنّها لن تهملنا أبدًا. وإن افتقرنا إلى

شيءٍ، فلأنّ ثقتنا بها قد ضعفت... أَوَليس الذي يُلبس أبهى حلًى أزاهير الحقل التي تنبت اليوم وتُحرَق غدًا، أكثر اهتمامًا بنا نحن أبناءه؟...".

وكان الدعاء الذي يرغب في هتافه وسماعه، كلّ يومٍ: "أيّتها العذراء مـــريم، أُمّ يسوع، إجعلينا قدّيسين!".

لقد التزم الأب كُتُّلِنْغو، دائمًا، بتعاليم الربّ، ولم يطلب سوى الخبز اليوميّ لــ *البيت الصغير*. وحتّى هذا الخبز كان يتلكّأ، أحيانًا، بالحضور، فيثير غيابُه قلق المسؤولات عن الإطعام واضطرابهنّ، ولكنّ ثقة الأب لم تتزعزع، يومًا، فكان يدعو إلى المائدة الفارغة، وكان الله يملأ المائدة ملئًا سخيًّا وعجيبًا.

دعته راهبةٌ، ذات مساءٍ، إلى العشاء، وبدافع غيرتها على البيت اقترحـــت أن تُزاد كمّيّة المؤونات، في المستقبل، لأنّ الأُسرة لا تكفّ تنمو، يومًا فيومًا. فأجابهـــا الأب: "يا أُختي، أليس غريبًا أنّك لا تعلمين حتّى هل يكون طعام اليوم كافيًا، ومع ذلك تحتاطين للغد؟". وكان شقيق الأب الراهب واقفًا بقربه، منصتًا إلى حديثهما، فعاتبه، على انفرادٍ، معتبرًا جوابه للراهبة حذلقةً باطلةً، ومؤكّدًا إيثاره موافقتـــها على ضرورة زيادة المؤونات، بدافع الحيطة. فأجابه: "وأتظنّ أنّني أفعل ذلك بدافع التقتير؟ لو كانت الحيطة ضروريّةً لما أحجمت عن إنفاق مئة ألف فرنكٍ من أجـــل زيادة المؤونات، ولكنّي أريد أن يعلم الجميع أنّنا حتّى إذا ســـبحنا في البحبوحـــة فعلينا الالتزام بروح الفقر، وألاّ نعتمد إلاّ على العناية الإلهيّة".

ووفاءً لثقة الأب بالعناية الإلهيّة، حرص على رفض كلّ أساليب جمع المال مـــن أجل الفقراء، والاحتفالات الخيريّة المقامة لهذه الغاية. ولم يكن يعتبر أيّ شـــخصٍ، مهما أجزل العطاء، عاملاً أساسيًّا في وجود البيت، ونموّه، لأنّ الجميع هم أدواتٌ، والواهب الوحيد هو العناية الإلهيّة.

وكان يتوثّب ابتهاجًا كلّما تأزّمت أمور البيت تأزّمًا يبدو تخطّيه مستحيلاً، ليقينه بأنّ العناية الإلهيّة هي التي ستخرج البيت من أزماته، ويشهد الجميع، بأُمّ

العين، أنّ الأب كُتُّلِنْغو ليس هو من يسيّر أُمور البيت. ولم تكن المحن المستعصية تهدّه أو تثبط عزيمته، بل كانت له مدرجةً إلى الترقّي في الثقة بالعناية الإلهيّة، وإلى تخطّي ذاته في هذا المضمار.

ولم يخشَ، قطّ، الإقدام على مشروعٍ يلبّي احتياجاتٍ روحيّةً أو مادّيّةً ملحّةً، مهما غلت كلفته، ومهما اقتضى تحقيقه من جهدٍ ومشقّاتٍ، لأنّه كان وطيد الثقة بأنّ من دعاه إلى العمل هو الذي سيزوّده بالقدرة على المضيّ به إلى غايته، وسيوفّر له أسباب تنفيذه.

كان اعتماده على العناية الإلهيّة كاملاً. وعملاً بصلاة الربّ كان راسخ الإيمان بأنّ العناية الإلهيّة ستوفّر، كلّ يومٍ، لـ *البيت الصغير*، الخبز اليوميّ، بلا حاجةٍ إلى ميزانيّاتٍ معدّةٍ مسبّقًا، ولا إلى احتياطيٍّ يكفل احتياجات الغد. فكان يستغرق في الصلاة، ويمعن في الإنفاق.

فذات مساءٍ جلس الجميع إلى مائدة العشاء، والمائدة خاويةٌ خواءً مرعبًا. وسحق الاضطراب الراهبات الواجمات، فيما ظلّ الأب ساجيًا، صامتًا. وإذ بدويّ عرباتٍ تتوقّف عند باب البيت. وهبّ المسؤولون مستطلعين، وما إن أُشرع الباب، حتّى دخلت إلى الفناء شاحنةٌ عسكريّةٌ، فثانيةٌ، فثالثةٌ، فرابعةٌ، وشرع الجنود الذي هبطوا منها يُنـــزلون قدورًا تتصاعد منها أبخرة أطعمةٍ شهيّةٍ. وتبيّن أنّ هذا المنّ الهابط من السماء كان مُعَدًّا لعشاء كتيبة مدفعيّةٍ، تُجري مناورةً في الجوار. ولكنّ قائد الكتيبة قرّر مكافأة رجاله بغتةً، وسمح لهم قضاء سهرهم في المدينة، فآثروا تمتيع ذواهم بطعامٍ وشرابٍ مختلفَين عن طعام الجيش والماء، وتبرّعوا بالعشاء المعدّ لهم لـ *البيت الصغير*.

وافتقر مطبخ البيت، يومًا، إلى الموادّ اللازمة لإعداد عشاءٍ، وشكت الراهبات الأمر للأب، فأوعز لهنّ: "إغلينَ الماء، وسترسل العناية الإلهيّة ما تعدّون به عشاءً. وما كاد بخار الماء يتصاعد حتّى دخلت إلى فناء الدار عربةٌ آتيةٌ بحمولةٍ وافيةٍ من مقوّمات الطعام.

وجاءته راهبةٌ شاكيةً: "ليس لدينا خبزٌ". فأجابها: "وأنا ليس لديّ مالٌ!"، والأمر لله. وصلّى بحرارةٍ، وأوعز بتفقّد صندوق الحسنات، حيث وُجدت قطع نقدٍ صغيرةٌ يعادل مجموعها ألفي فرنكٍ.

وفي نوبةٍ أُخرى افتقر المطبخ إلى ملحٍ من أجل الحساء، وبحث الأب في جيوبه، فلم يعثر إلاّ على حفنةٍ ضئيلةٍ من السنتيمات، أعطاها للراهبة قائلاً: "اشتري بها ملحًا. وستكون العناية الإلهيّة بعونك". وفيما كانت الراهبة تتأمّل السنتيمات اليتيمات، في كفّها، متسائلةً عن عدد غرامات الملح التي يمكن ابتياعها، ومتردّدةً في تخطّي العتبة، أودعت سيّدةٌ غريبةٌ لفيفة مالٍ بين يديها... وأصبح للحساء نكهةٌ.

وقيل للأب: "لقد فرغت براميل النبيذ"، فأجاب: "ومع ذلك استمررْنَ بملء الأباريق منها!". وظلّ النبيذ، على مدى أيّامٍ، ينساب من البراميل الفارغة.

وهكذا لم يفتقر *البيت الصغير* ، مع احتياجاته اليوميّة الجسيمة، إلى ما يشبع جميع نزلائه ومرضاه وفقرائه، ولم ينم أحدٌ منهم على الطوى، لأنّ ثقة الأب كُتُّلِنْغو بوعود الربّ لم تهتزّ، ولم تفتر، لحظةً واحدةً، ولأنّه التزم دائمًا التزامًا لا خلَل فيه، ولا وهن، بإيمانٍ يحرّك الجبال ويحتّم المعجزات.

وجاءته راهبةٌ شاكيةً: "لم يبقَ في البيت شيءٌ: لا ثيابٌ، ولا أغطيةٌ، ولا حطب تدفئةٍ، ولا نبيذٌ"، فهتف الأب:

"يا له من خبرٍ سارٍّ! أنا فرحٌ مثل عصفورٍ حرٍّ. أعطوا ما هو فائضٌ عندكم، لأنّ الله مزمعٌ أن يغدق علينا عطاياه، فيجب أن تكون خزائننا فارغةً كي تستوعب فيض خيراته، وإلاّ لن يكون لدينا متّسع لإيداع ما سيجود علينا به. عندما نقع في

ضيقٍ، حينئذٍ، يجب أن نتخلّى عن كلّ شيءٍ، كي نفسح طريقًا لعبور العناية الإلهيّة. وحين لا يكون لدينا أسرّةٌ، فلنرحّب بمرضى جددٍ، وحين لا يكون لدينا خبزٌ فلنحشد فقراء جياعًا".

وأروعُ ما في هذه المفارقة أنّه كان ينفّذها، وكانت تتحقّق.

وبالإجمال أنتجت ثقة الأب كُتُلِنْغو المطلقة بالعناية الإلهيّة أحداثًا تبدو وكأنّها أساطير من نسج الخيال، ولكنّها وقائع راهنةٌ، تثبت أنّ وعود الربّ، ولو بدت خياليّةً، هي واقعيّةٌ. فالذي قال إنّ ذرّة إيمانٍ راسخٍ، قادرةٌ على تحريك جبالٍ لم يكن يقطع وعودًا جوفاء.

وقد تجلّت معجزة مكافأة العناية الإلهيّة لثقة الأب المطلقة، تجلّيًا ساطعًا مدهشًا، من خلال طريقة تسديده ديونه الجسيمة. ومن المحقّق أنّ الأب لم يكن كَلِفًا بالاستدانة، ولم يكن يلجأ إليها رغبةً في التباهي بإنماء *البيت الصغير* إنماءً يفوق كلّ توقّعٍ. بل كان يستدين كلّما دوّى، في داخله، نداءٌ إلى مشروعٍ تدعوه إليه المحبّة، فلا يقوى على تجاهله أو مقاومته، وإلاّ لكان عانى استشهادًا لا يُطاق. وحينئذٍ، كان يتحرّر من كلّ خوفٍ وحيطةٍ، ما خلا خوفه من أن يتّهمه الفقراء بإهمالهم وأن يدينه الله على هذا الإهمال، وأن تتّهمه راهباته بخيانته لهنّ، بعد أن وقفنَ كلّ حياتهنّ على مؤازرته في ميدان المحبّة. لم يكن يعبأ بأن تقع عليه مغبّة فشل أيّ مشروعٍ، ولكنّه كان يرتعد جَزَعًا من أن يدفع تقاعسُه أيّ فقيرٍ إلى التجديف، وفقدان الثقة بالله.

صحيحٌ أنّه كان قد نقل عدوى ثقته المطلقة بالله إلى حفنةٍ من معاونيه، أنقياء القلوب. ولكنّ سواد دائنيه لم يشاطروه في شيءٍ منها. ومع أنّهم كانوا يجنون أرباحًا مجزيةً من بيع *البيت الصغير* مستلزماته اليوميّة الجسيمة، كانوا قصيري النفَس، وحسيري البصر، وقليلي الصبر. فاستدعاه شَطْرٌ منهم إلى المحاكمة الدينيّة والمدنيّة، كي يُكرهوه على تسديد ديونهم في الحال. وكان هو، مذ يلمحهم، يخرج لمحاورتهم، ويجهد في تهدئة روعهم، ولكنّهم كانوا يطلقون لغيظهم الوقح العنان،

ويوسعونه شتمًا، ووصفًا بأقذع النعوت. وغالبًا ما كان يحاول طمأنتهم قائلاً: "أنتم محقّون، فأنا جاهلٌ، فاشلٌ، ولكنّي أستجديكم مزيدًا من صبرٍ، ورأفةً برجلٍ واقعٍ في أزمةٍ. ومع ذلك اطمئنّوا، فلن تخذلكم العناية الإلهيّة، ولن تفقدوا فلسًا ممّا لكم على هذا البيت".

وكان إذا أهانه دائنٌ، على انفرادٍ، يُبقي الأمر سرًّا، أمّا إذا شُتم وأُهين علنًا، فيسأل الشهود أن يصفحوا عنه، ويعذروه، قائلاً: "مع ذلك إنّه إنسانٌ طيّبٌ، فلا نسيئنَّ به الظنّ. فهو قلقٌ على مال ذويه، وعلى مصير تجارته. قد يكون عصبيّ المزاج، ولكنّه مسيحيٌّ صالحٌ، وأنا آسفٌ لأنّني لم أُرضِهِ، ولكنّي سأرضيه قريبًا". وكان حالما يرِدُه مالٌ يسارع إلى تسديد ما يستطيع من الديون، ويستأنف الشراء من المدينين أنفسهم، الذين غالبًا ما كانوا يسلّفونه ثانيةً، وطوعًا، ما يحتاج إليه *البيت الصغير* .

ولّما كانت أُموره الماليّة تتعقّد تعقيدًا يبدو الخروج منه متعذّرًا، كان يقول: "الربّ قدّوسٌ في مشوراته، وقدّوسٌ في أعماله، ويسمح بأن يتعكّر مزاجي، وأن يعاني قلبي آلام الاستشهاد... ومع ذلك إنّه لا يحرمني نِعَمه، ومداعبات يده الإلهيّة. وأنا لن أتوقّف عن تنفيذ مشيئته القدّوسة... خيرٌ لي أن أتألّم أنا، وأن يتدبّر هو الأُمور". ومع ذلك لم يرضَ بأن يصلّي سكّان *البيت الصغير* التماسًا لإعفائه من هذه المِحَن.

ولطالما أجرى الله معجزاتٍ رائعاتٍ، في سياق تسديد ديون *البيت الصغير* ، مكافأةً لثقة الأب كُتُّلِنْغو المطلقة بعنايته. ومن الممتع والمفيد أن نورد شواهد منها.

استُدعي الأب، يومًا، إلى المجلس الأُسقفيّ للردّ على دعوى أقامها عليه دائنٌ مطالبًا بتسديد دينٍ. وفيما كان الأب يتأهّب للشخوص إلى المجلس، وصلت والدة إحدى راهباته من قريةٍ بعيدةٍ آتيةً ببائنة ابنتها – وفقًا للتقاليد الجارية آنذاك – وفي الآن عينه وصل والد راهبةٍ أُخرى، كانت قد تُوفّيت حديثًا، آتيًا بحصّتها من

الميراث، وطُلب من الأب الترحيب بالضيفين قبل انطلاقه، واستلام ما جاءاه به، وإذ بالمبلغ المقدّم يفوق مبلغ الدين الذي أُقيمت الدعوى من أجله، فقفز الأب قفزتين، هاتفًا: "يا لها من عنايةٍ إلهيّةٍ!". وأعطى الكاهنَ والمحامي اللذين كانا سيرافقانه إلى المجلس، المبلغ الذي جاءه، كي يدفعا به الدين، وتطوى القضيّة.

وذات يومٍ دخل دائنٌ حجرةَ الأب، وقد أخذت به سورة الغضب كلّ مأخذٍ. وكان قد سبق له أن طالب الأب بدَينٍ له، مرّةً إثر مرّةٍ، ولم يتلقّ سوى التسويف، لأنّ الأب لم يكن يملك ما يرضي به ذلك الدائن الغاضب، حتّى نفد صبر الرجل، وفقد عقله، وراح يشتم ويهدّد، مؤكّدًا أنّه لن يبارح المكان إلاّ وماله بيده. وعبثًا حاول الأب استزادته إمهالاً، واعدًا بتسديد دَيْنه في أقرب مهلةٍ. وحينئذٍ شَهَر الرجل سلاحه، وفي الآن عينه، وبحركةٍ لاشعوريّةٍ دسّ الأب جيوبه، وإذ في أحدها لفيفةٌ لم يكن له بها علمٌ، ولم يدرِ كيف وصلت إليه، فأعطى الرجل منها كامل دينه، وحينئذٍ وقعت على الأرض قطعةٌ ذهبيّةٌ، لم يهتمّ بها أحدٌ. وبعد انصراف الدائن، دخلت حجرة الأب راهبةٌ، فطلب منها أن تبحث عن قطعةٍ ذهبيّةٍ، وتحتفظ بها دليلاً على أُعجوبةٍ حدثت منذ لحظاتٍ.

بعد نحو أسبوعين حلّت بـ *البيت الصغير* ضائقةٌ قصوى، وكأنّ العناية الإلهيّة قد تخلّت عنه. وفي الآن عينه، تكالبت عليه قوى الجحيم، وحرّضت جميعَ دائنيه على محاصرته بمطالباتهم الملحاح. ولم يبقَ للأب القدّيس سوى اللجوء إلى فردوس الصلاة. فانكفأ إلى حجرته، وأوصد بابها، وأوعز ألاّ يُسمحَ لأحدٍ بإزعاجه، لأيّ سببٍ. ونَعِم بأربع ساعات عزلةٍ وسلامٍ، كان البشر يحرمونه منهما. وحينئذٍ قرع باب البيت غريبٌ قادمٌ من وراء البحار، وطلب مقابلة الأب. ولكنّ الراهبات، التزامًا بالتعليمات أعلمنَه أنّ هذه المقابلة متعذّرة، ونصحنَه بالانتظار، ولكنّه لم يصبر على الانتظار سوى دقائق، وازداد إلحاحًا. وحثّ راهبةً على إخبار الأب أنّه لا يقوى على الانتظار طويلاً، مؤكّدًا أنّ الأب لن يؤنّبها. وامتثلت الراهبة،

وجاءت إلى غرفة الأب بالغريب الذي اكتفى بوضع مبلغٍ جزيلٍ من المال على منضدةٍ في حجرة الكاهن، وانصرف، ولم يتفوّه بكلمةٍ. ولّما وقعت عينا الأب على الكمّيّة الوفيرة من النقود الذهبيّة التي تركها الغريب، استدعى راهباته، ورفع عينيه إلى السماء، هاتفًا: "الشكر لله!". وللراهبات قال: "انظرنَ! يا لعطف العناية الإلهيّة، ويا لألطاف الله! غريبٌ لا معرفة لي به يأتي من بعيدٍ، ويسلّمني هذا المال الجزيل! يا للعناية الإلهيّة!". واستدعى دائنيه، ووفّى كلاًّ منهم حقّه.

وجاءه، يومًا، مصنّع معجّناتٍ غذائيّةٍ، مطالبًا بدَيْنٍ له، ولم يكن لدى الأب ما يعطيه، فاستشاط الرجل غيظًا، وهدّد وشتم؛ ولكنّه، في صباح اليوم التالي عاد معتذرًا، وشاكرًا استلامه مبلغ دينه، وراجيًا الأب ألاّ ينقطع عن شراء حاجات البيت منه. ولم يكن الأب قد أرسل له مالاً، لأنّه لم يكن يملك ما يرسله. ومع ذلك قبّل الرجل، وحثّه على ألاّ يفقد أبدًا الثقة بالله.

مرّةً أُخرى، دخل بائع حطب تدفئةٍ، عند الساعة الثامنة مساءً، غرفة الأب، طالبًا ثماني مئة فرنكٍ، كان *البيت الصغير* مدينًا له بها. وإذ لم يكن لدى الأب ما يدفعه، أمعن الرجل في إطلاق الشتائم السفيهة. فخرج الأب إلى الرواق، وصلّى بحرارةٍ، وفي غضون دقائق امتلأت يداه قطعًا ذهبيّةً، وفّى بها دين بائع الحطب، وهتف بصوتٍ متهدّجٍ يخنقه التأثّر: "معجزة... معجزة... عناية إلهيّة... صلّوا".

وجاءته صاحبة دكّانٍ تبيع فيه الاحتياجات اليوميّة الصغيرة، كالملح، والخيوط، وما إليها، وكان لها دينٌ على *البيت الصغير* يبلغ ألف فرنكٍ. وطالبت به كي تتمكّن من تسديد ديون مورّديها. وبما أنّه لم يكن بيد الأب ما يؤدّيه لها، نصحها بالدخول إلى الكنيسة، والصلاة، ريثما يبحث عمّا يرضيها به. وكلّف كاهنًا بتفقّد صندوق الصدقات. وكان هذا الكاهن قد تفقّد الصندوق قبل لحظاتٍ، ولم يجد فيه سوى حجارةٍ وأزرارٍ، وتساءل عن جدوى تفقّده ثانيةً. غير أنّه، خضوعًا لواجب الطاعة، فتح الصندوق مجدّدًا، ودهش لوجود ما يساوي ثلاثة آلاف فرنكٍ. فوفّى

الأب المرأة حسابها كاملاً، وسلّفها دفعةً على الحساب، وكانت المرأة تعدّ هذه السلفة هديّةً من السماء، وتحرص على الاحتفاظ بها. وعندما تضطرّ إلى دفع قطعةٍ منها، كانت تودّعها بقبلةٍ، غاصّةً.

وقد أسلفنا الحديث عن البنّاء "كوپاسّو" الذي كان يقوم بمعظم أعمال أبنية *البيت الصغير*، ويموّلها، غالبًا، بماله الخاصّ حتّى غدا معظم ثروته دينًا على البيت. وكان الأب يدفع له قسطًا من ديونه المتراكمة كلّما توفّر لديه مالٌ. وتعيّن على البنّاء، ذات مساء، أن يُعِدّ مبلغ أربعة آلاف فرنكٍ من أجل دفع أجور عمّاله عن أسبوعين، ولم يكن لديه منها شيءٌ. فقصد الأب كُتُلِنْغو آملاً في الحصول على قسطٍ من مستحقّاته. وإذ بخادم الله أكثر منه افتقارًا إلى السيولة الماليّة، ولا يملك سوى الثقة بالعناية الإلهيّة. وصارح البنّاءُ الأبَ بأنّه وطيد الثقة بالعناية الإلهيّة، ولكنّ عمّاله يحتاجون إلى مالٍ حسّيٍّ يُطعمون به أُسرَهم. فأكّد له الأب أنّ العناية لن تخذله ولن تخيّبه، وستنتشله من مأزقه، فما عليه إلاّ العودة إلى بيته مرتاح البال. وكانت الساعة التاسعة، فلاحظ:

– كيف لي أن أطمئنّ، وأنا قد وعدت عمّالي بأن أدفع لهم أُجورهم قبل الساعة الثامنة صباحًا، ونحن كلانا مصفرا اليدين؟
– مع ذلك، اطمئنّ. فغدًا، حتّى قبل الساعة السابعة صباحًا سيكون الأمر قد سُوّي، صدّقني.

وعاد "كوپاسّو" إلى بيته تتنازعه مشاعر الرجاء والقلق، معًا. وما كاد يجلس إلى مائدة العشاء حتّى ناداه رجلٌ من فناء بيته، فتطلّع من النافذة، وإذ بمدينٍ قديمٍ كان قد سبق له أن طالبه مرارًا بحقّه، ولم يحصل منه على أدنى جزءٍ من هذا الدين، حتّى يئس من تحصيله. ولكنّ المدين، آنذاك، قد جاء من تلقاء ذاته كي ينبئه بأنّه حاملٌ له نصف مبلغ دينه، وأنّه كلّف رجلاً آخر بأن يدفع النصف الآخر عند الساعة السادسة صباحًا. وتمنّى له نومًا هنيئًا، ومضى.

ولطالما روى "كوپـــاسّو"، من بعدُ، هذا الحادث العجيب، معلّقًا: "لقد تحقّقتُ، حينئذٍ، وما زلتُ أومن أنّ خادم الله هو على توافقٍ تامٍّ مع العناية الإلهيّة".

وفي يومٍ آخر، دفعت الحاجة "كوپـــاسّو" هذا عينه إلى طلب جزءٍ من دينـــه. واعترف الأب بأنّ دين الرجل تجاه *البيت الصغير* هو جسيمٌ جدًّا. وبحث في جيوبه فلم يعثر إلاّ على ثلاثة سنتيمات، وقدّمها لبنّائه الشهم، قائلاً، "بما أنّ هذا المبلـــغ جميل، أرجوك ألاّ تكتفي بقبوله فحسبُ، بل أرجوك أن تدوّنه في سجلاّتك، لكي يعلم أبناؤك نوع العلاقات التي قامت بينك وبين *البيت الصغير*، ومدى صـــبرك على هذا البيت".

وما حدث مع البنّاء حدث ما يماثله مع النجّار "ديفيليــــــپــــــي" (Defilipi)، الذي جاء مطالبًا بقسطٍ من ديونه من أجل دفع مستحقّات عمّاله. فرحّـــب بـــه الأب، ورجاه أن ينتظر قليلاً. وانطلق الأب يتحدّث مع راهبةٍ، فأُخرى، فأُخرى، وكأنّه نسي النجّار، ولم يعد يُلقي عليه ولو نظرةً، حتّى كاد يتفجّر نفـــاد صـــبرٍ، وشرع يتسرّب إلى روعه أنّه سيعود بوفاضٍ أكثر خلوًّا ممّا جاء به. وبعد نحو ساعة انتظارٍ ممضٍّ، دخل رجلٌ، وحيّا الأب، وقبّل يده، وأعطاه رزمةً ومضى. وحينئـــذٍ دعا الأب النجّار قائلاً: "تعالَ، خذ مالك، وأعطِ، من هذه الرزمة، ثلاثين فرنكًا، تفيض عن حقّك، للأُخت "ماري القصيرة"، من أجل مشتريات بعض لوازم اليوم.

وكان الرجل قد عيل صبره، فأخذ الرزمة وانصرف. وفي بيته تبيّن أنّ الرزمة، تحتوي، فعلاً، كامل دينه، فضلاً عن ثلاثين فرنكًا. فصُعِق، وعاد، لتوّه إلى *البيت الصغير* وأدّى الثلاثين فرنكًا للأُخت مريم، قائلاً: "ما أغرب هذا الكاهن! لا يعدّ المال الذي يُعطاه، كما تفعل عامّة الناس، ومع ذلك يعرف مبلغه بدقّةٍ! إنّي أقرّ بأنّه قدّيسٌ".

ومن أكرم المحسنين إلى *البيت الصغير* كان الخبّاز "كوڤيرتينو" (Cuvertino)،

الذي كان يقدّم الخبز للبيت بانتظامٍ، مكتفيًا بدفعاتٍ متواضعةٍ كان البيت يؤدّيها له كلّما فاض لديه بعض مالٍ. وكانت ديون البيت تجاه الخبّاز تتراكم، يومًا فيومًا، ومع ذلك كانت محبّة الخبّاز للكاهن القدّيس الذي يُفني ذاته في خدمة المحتاجين والمرضى، تُمسكه عن مطالبته بمستحقّاته. ولكنّ حاجةً ضاغطةً أكرهته، ذات يومٍ، على طلب مبلغ ثلاثة آلاف فرنكٍ. وبما أنّ الأب لم يكن قادرًا على تلبية طلبه، وكان حريصًا على إخراجه من أزمته، قصد صديقًا محسنًا، سعد بزيارته، فأفصح الأب عن داعي تلك الزيارة، وحينئذٍ استبقاه الرجل على العشاء، ولّما همّ الأب بالانصراف، سلّمه مضيفه ثلاثة آلاف فرنكٍ. وهرع الأب إلى الخبّاز كي ينتشله من أزمته، ولكنّه فوجئ بقول الخبّاز إنّ شخصًا جاءه من قِبَل *البيت الصغير*، ودفع له الآلاف الثلاثة التي كان يحتاج إليها... فعاد الأب أدراجه إلى المحسن كي يعيد له المبلغ الذي انتفت الحاجة الملحّة إليه. ولكنّ المحسن أكّد له أنّه لم يقرضه ذلك المبلغ من أجل مواجهة حاجةٍ طارئةٍ، بل وهبه إيّاه تضامنًا مع أعماله الخيريّة. وتبيّن للأب، لاحقًا، أنّ المحسن عينه الذي استبقاه على العشاء هو الذي أرسل إلى الخبّاز الثلاثة آلاف فرنكٍ.

ومع ذلك، استمرّت ديون ذلك الخبّاز تتراكم حتّى ناهزت العشرين ألفًا. وكان، بين فينةٍ وأُخرى، يلتمس من الأب، بتهذيبٍ بالغٍ، أن يدفع له ولو قسطًا منها. ولم يكن يتلقّى من الأب سوى قول: "اصبر، ثق بالله الذي يدبّر كلّ شيءٍ". فكان يصمت، ويصبر، ويرجو، ولكنّه لا يتلقّى مالاً، حتّى تفاقمت أُموره الماليّة سوءًا، وغدا على شفير كارثةٍ. وفيما كان، ذات مساءٍ، جالسًا، واجمًا، مقلّبًا الأفكار والهموم، جاءه غريبٌ وحيّاه، واستفسره عن المبلغ الذي يدين له به *البيت الصغير*، ونقده إيّاه كاملاً، وطلب إيصالاً يبرّئ ذمّة مؤسّسة كُتُّلِنْغو. فدبّج الخبّاز الإيصال، ووقّعه، وقدّمه للغريب، ولكنّ هذا الأخير رفض استلامه، بل طلب من الخبّاز أن يقدّمه بيده إلى الأب. وحيّاه وانصرف. ولم يعرف الخبّاز

الطيّب للنوم طعمًا، في تلك الليلة، لشدّة تأثّره بما حدث. ومنذ إشراقة الشمس مثل بين يدي الأب، مقدّمًا له سند تبرئته من كلّ دينٍ تجاهه، واكتفى الأب بهتاف: "الحمد لله"، وقال للخبّاز: "يا عزيزي، إنّ العناية الإلهيّة لا تخذلنا أبدًا، فاعتمد عليها دائمًا. وإذا اقتضى الأمر معجزاتٍ فهي تصنعها. مساءَ الأمس كنّا، كلانا، لا نملك فلسًا. وها أنت معك مبلغٌ جزيلٌ، وأنا تحرّرت من دينٍ باهظٍ".

ومن أطرف أحداث مداخلات العناية الإلهيّة أنّ الراهبة المكلّفة بشراء مسلتزمات البيت اليوميّة، طلبت من الأب، ذات صباحٍ، ما تبتاع به، فقال: "لكنتُ أعطيتك، لو كان معي. ولكنّي لست أملك فلسًا واحدًا". وكانت ديون الباعة على *البيت الصغير* قد تراكمت تراكمًا مقلقًا، ولم تعد الراهبة تجسر على المرور في الشارع. فهذا يطالبها بدينه، وهذا يعاتبها على تلكّؤ البيت في إيفاء ديونه، وهي لا تملك سوى الوعد بالوفاء في غضون يومين أو ثلاثة، وتكرّ الأيّام، والديون ديونٌ، ولم يعد أحدٌ يصدّق وعودها. ولكنّ الأب هدّأ روعها، وناشدها الاختلاء، بضع دقائق في الكنيسة، والصلاة بحرارةٍ، ثمّ الانطلاق إلى السوق مطمئنّةً، لأنّ العناية الإلهيّة لم تتخلّ، قطّ، عن بيتها. وامتثلت الأُخت لنصيحة الأب، وخرجت إلى السوق محاولةً التواري عن أنظار الدائنين. ولكنّ تواريها لم يُجدِها نفعًا، وكأنّ جميع الباعة كانوا يتحرّقون توقًا إلى رؤيتها. ولّما استدعتها البائعة الأولى، التي لمحتها، خفق قلبها جَزَعًا من قسوة العتاب الذي توقّعته، وكادت تختنق. ولكنّها فوجئت بما أذهلها، فقد رحّبت بها الدائنة مشرقةً، وشكرت للبيت إيفاءه كامل دينه، وسلّمتها إيصالاً يبرّئ ذمّة البيت حيالها، وحتّى بالقروض الماليّة التي كانت قد سلّفتها للبيت. وقدّمت لها مساعدةً مجزيةً، ورجتها ألاّ تتردّد في طلب ما تريد، في كلّ حينٍ. وهتفت الأُخت شاكرةً الربّ، إذ كانت تتوقّع عتبًا، وصدًّا، وإهانةً، فقوبلت بالشكر، والترحيب، والعطاء، ومع ذلك، حاولت التواري عن أنظار بائع الأرزّ، وبائع المعجّنات، ولكنّهما كانا يترصّدان مرورها، وسلّماها إيصالاتٍ بكامل ديونهما على

البيت الصغير ، قائلَيْن: "إنّ سيّدةً مجهولةً، مرّت مساء الأمس، ووفّتهما كلّ ما كان *البيت الصغير* مدينًا به لهما حتّى الفلس الأخير.

وخيّل إلى الراهبة أنّها في بلاد العجائب. وبلغ ذهولها ذروته عندما سلّمها الجزّار إيصالاً يبرّئ ذمّة *البيت الصغير* عن كلّ مشترياته السابقة من اللحوم موضحًا أن سيّدةً دفعت مساء الأمس كلّ ما تدين به مؤسّسة كُتُّلِنْغو له. وفيما هي كانت عائدةً بالمؤونة الوفيرة، وببراءات الذمّة العجيبة، كانت تردّد في سرّها: "هذه هي العناية الإلهيّة المباركة التي لا يكفّ الأب القدّيس يتكلّم عنها، ويدعونا إلى الثقة بها. كم تدابيرها عجيبةٌ!".

واكتمل مشوار تلك الراهبة بمكرمةٍ أُخرى. ففيما كانت تدخل البيت مثقلةً بمشترياتها، شاهدت امرأةً تملأ صندوق الصدقات قطعًا ذهبيّةً، فطلبت فتح الصندوق، فإذا به مترعٌ ذهبًا، فجيء به إلى الأب، وأخبرت الأُخت عن مغامراتها في السوق، ومفاجآتها العجيبة، فقال الأب: "أرأيتِ يا صغيرتي، الخائفة من المضيّ إلى السوق، بسبب افتقارك إلى المال؟ تعلّمي، إذن، إيلاء العناية الإلهيّة مزيدًا من الثقة".

وقد جاء، يومًا، رجلٌ سيّئ التهذيب، له على *البيت الصغير* دينٌ زهيد المبلغ، وطلب من الأب، بقحةٍ، أن يدفع له دينه في الحال. فاستمهله الأب بضعة أيّامٍ، ريثما يتهيّأ له ما يرضيه به. ولكنّ الرجل استشاط غيظًا، وأمعن في شتم الأب والعناية الإلهيّة. وفيما كان الأب يجهد في تهدئته، جاء محامٍ وقدّم للأب عشرين فرنكًا قدّمتها له شقيقته. فناولها الأب للرجل الوقح، قائلاً: "هذا هو دينك. خذه، واذكر أنّ، ثمّة، عنايةً إلهيّةً تقود كلّ شيءٍ، وتفكّر بكلّ شيءٍ، وبالجميع".

ولطالما انضمّت السيّدة العذراء إلى العناية الإلهيّة من أجل انتشال الأب كُتُّلِنْغو و *البيت الصغير* من المآزق التي توصلهم إليها التلبية السخيّة لنداءات المحتاجين. فذات يومٍ خرج الأب، قُبَيْل الظهر، وما لبث أن عاد شاحبًا، منهارًا، محطّمًا،

فقلقت الأخت المسؤولة عن الاستقبال، واستوضحت هل أصابه سوءٌ، وهل يحتاج إلى شيءٍ. فأجابها أنّه لا يحتاج إلاّ لفترة راحةٍ، وأوعز إليها ألاّ تدع أحدًا يزعجه، واختلى في حجرته.

وبعد فترةٍ قصيرةٍ، طلبت سيّدةٌ مجهولةٌ مقابلة الأب، وطمأنت راهبة الاستقبال، بصوتٍ عذبٍ ساحرٍ، أنّ زيارتها لن تزعج الأب، بل ستُسعده. ووقعت الراهبة تحت تأثير وقار السيّدة، وعينيها المتألّقتين، حتّى إنها لم تجسر على إطالة التحديق إليها. وجرت فأطلعت الأب عن الزائرة، وأفصحت عمّا داخلها من احترامٍ وانسحاقٍ أمام القداسة المنبعثة منها. ومذ دخلت السيّدة شرعت تواسي الكاهن عمّا كان يعانيه، وحثّته على المضيّ قدُمًا في اعتماده على العناية الإلهيّة، وقدّمت له خاتمًا مرصّعًا بماسةٍ نفيسةٍ، ثمينةٍ، قائلةً: "بهذا ستوفي نصْف دينِك، والباقي سَيُوفّى بطريقةٍ أُخرى". وشدّدت من عزيمته، ومضت. وكم رغبت الراهبة في الاستمتاع بالتحديق إلى الزائرة الغريبة، ثانيةً! ولكنّ جلالها أجبر الراهبة على خفض أنظارها. ومع ذلك لم تقوَ على كبح فضولها، فجاءت إلى الأب الذي وجدته مشرقًا، مرتاحًا، وقد استعاد عزيمته وتفاؤله. فسألته: "من هي هذه السيّدة الجليلة التي لم أجسر حتّى على تأمّلها؟". فأجاب: "ليست هذه السيّدة من بنات الدنيا، بل هي آتيةٌ من السماء. إنّها السيّدة العذراء!". وحينئذٍ، فقط، أوضح لها سبب عودته محطّمًا. فقد كان أحد دائنيه قد أهانه إهانةً بالغةً، عند خروجه من البيت.

وبالإجمال، التزم الأب كُتُّلِنْغو بثقةٍ مطلقةٍ بالعناية الإلهيّة، لم تعهد، قطّ، خوَرًا، ولا فتورًا، ولا ريبةً. ومع ذلك امتحن الربّ خادمه الأمين، أحيانًا، كي يرسّخه ثقةً، وثباتًا، وقداسةً، ولم يخذله، يومًا. ولم يقتصر على انتشاله من أزماته الماليّة، بل لم يضنّ عليه بالمعجزات، كلّما كان الحلّ هو المعجزة.

فذات يومٍ، خلت الصيدليّات من دواءٍ لم يكن ممكنًا الاستغناء عنه، فملأ الأب كأس ماءٍ، وباركه، وأوعز إلى الراهبة الممرّضة بتقديمه للعليل، بديلاً عن الدواء،

فكان للماء مثل نجاعة الدواء. وتجلّت للأب وجوهٌ أخرى: الممرّض، والصوفيّ، وصانع العجائب، مع احتفاظه بصفات الحكمة، والحذر في إدارة *البيت الصغير*.

لقد كان الأب كُتُّلِنْغو، دائمًا، مطمئنًّا بين يدي العناية الإلهيّة، اطمئنانَ طفلٍ بين ذراعي أمّه. وهذا ما تأكّدت منه راهبةٌ بسيطةٌ، كانت مكلّفةً بجلب المؤونة الضروريّة لدير "كافّوريتّو" من تورينو، على ظهر حمارٍ تجرّه بيدها. فسمّيت "الأُخت كاترين صاحبة الحمار". وكانت مؤمنةً بوفرةٍ فضائل الأب، وبسموّها. ولكنّها سألت الله أن يريها، رؤيةً حسّيّةً، أكثر فضائله تألّقًا. واستعذب الله بساطتها، فأراها الأب على شكل طفلٍ فرحٍ، ساكنٍ، لاطٍ على صدر أمّه. وأيقنت أنّ الأب القدّيس، يستسلم مطمئنًّا، استسلامَ طفلٍ، للمشيئة الإلهيّة، ومن خلالها يحكم على جميع الأحداث والأحوال، السارّ منها والمحزن، وقد علّقت تلك الراهبة، بحكمة البسطاء، الذي يتجلّى لهم الله: "إنّ العيش في مثل هذا الاستسلام المطلق لله، هو العيش في فردوسٍ".

وكافأ الله بساطة تلك الراهبة، فأتاح لها هذه الرؤية عينها، كلّ يومٍ، وكافأ استسلام الأب لمشيئته بفيض معجزاته.

وقد دأب الأب، بإصرارٍ وانتظامٍ، على إنكار كلّ فضلٍ له في نجاح *البيت الصغير*، والردّ على الذين يهنّئونه بإنجازاته الرائعة: "إنّ من أنجز كلّ شيءٍ هنا هو الله وعنايته. وما نحن إلاّ عملةٌ واهنون. أتزعمون أنّني، أنا، أنبتُّ القمح والكرم، وجعلت الأشجار تزهر وتثمر؟ من المؤكّد أنّ لا شأن لي في ذلك. ولست أنا من يسيّر أُمور *البيت الصغير*. إنّ العناية الإلهيّة هي التي تحقّق كلّ شيءٍ.

"عندما يخلو البيت من حبّة حنطةٍ لصنع الخبز، ومن الخضراوات، والنبيذ واللحم، وفي لحظةٍ غير متوقّعةٍ تأتي عربات نبيذٍ، وطحينٍ، وفواكه، وخضراواتٍ، فهل أنا من يأتي بها؟ أو العناية الإلهيّة هي التي ترسلها، لأنّها تحبّكم حبًّا جمًّا، وتريد لكم كلّ خيرٍ...؟ إنّ هذه الأُمّ العطوف هي التي تجود علينا بكلّ شيءٍ. أمّا أنا فلا أفعل شيئًا. وكم سيكون خطؤكم جسيمًا، إن لم تحبّوا تلك الأُمّ، وإن فقدتم، لحظةً واحدةً، الثقة بها، مع كلّ براهين حبّها. فلنُحكم خطّتنا، ولنبقَ على وفاقٍ مع الله. حينئذٍ، لا نخشينّ شيئًا!

"لطالما أكّدتُ أنّنا لا نسير إلاّ بقدرة المعجزات. فعلامَ نفقد ثقتنا بالله، ولا نستسلم له؟ تشجّعوا، يا أعزّائي. ولنكنْ جميعنا مع الله، ومن أجل الله، ولندعه يعمل عمله! إنّه يُعنى بالجميع. لقد أعطانا كلّ ما احتجنا إليه، حتّى اليوم، وسيظلّ يعطينا، مستقبلاً. وكلّ ما يهبنا على الأرض، إنّما هو ضمانٌ لما سيعطينا في السماء!".

ويبدو أنّ ثقة الأب كُتُّلِنْغو بالعناية الإلهيّة، قد أصابت بعدواها العديد ممّن مدّوا له يد العون، أمثال البنّاء "كوپاسّو"، الذي لم يخشَ تقديم كلّ جنى حياته دينًا لـ *البيت الصغير*، ومع ذلك، لم يفقد منه فلسًا واحدًا، ولطالما كوفئ على نحوٍ عجيبٍ، كما أسلفنا، وانتُشل من الأزمات التي وقع فيها. ومن المحقّق أنّ مثال الأب قد أكسبه إيمانًا يزحزح الجبال.

ورأينا، أيضًا، كيف كوفئ الخبّاز "كوڤيرتينو"، والنجّار "دي فيليپي"، عن الثقة التي أولياها لمؤسّس *البيت الصغير*.

واتّفق أن كان الأب قاصدًا مدينةً إيطاليّةً بغيةَ افتتاح فرعٍ لراهباته فيها. والتقى، في الطريق، طبيبًا صديقًا يدعى "هنري". فاستقرضه ألف فرنكٍ. ولمّا استلمه هتف: "الشكر لله". وحدّق إلى الطبيب وقال له:

- يا صديقي هنري، أذكر قولي: خمسون لقاء واحد.

– ما تعني؟
– اذكر فقط: خمسون لقاء واحد.

وبعد بضعة أشهرٍ ربح الدكتور المذكور، في اليانصيب، خمسين ألف فرنكٍ. خمسون ألفًا لقاء ألف أقرضها للأب.

وتذكّر رجلٌ بسيطٌ يُدعى "مالانو" (Malano) أنّ له على *البيت الصغير* دينًا قديمًا، قدره مئةٌ وخمسون فرنكًا، واحتاج إليه، فاعتزم الشخوص إلى الأب ومطالبته به. وقبل انطلاقه، أخذ، تلقائيًّا، من درجه، عشرة فرنكاتٍ. ولكن سرعان ما جال بخاطره أنّه ذاهبٌ لاسترجاع ماله، فعلامَ يأخذ معه مالاً؟ وأعاد المال إلى مخبئه. وفيما هو كان ينحدر على الدرج راوده الشكّ ثانيةً، وتساءل أَليس من الحكمة التزوّد بشيءٍ من المال احتياطًا للطوارئ؟ فعاد إلى حجرته، ودسّ الفرنكات العشرة في جيبه، ومضى. وما إن وصل إلى *البيت الصغير*، حتّى رحّب به الأب، قائلاً: "جئتَ في الوقت المناسب. أَليس معك عشرة فرنكاتٍ أُعطيها لأصحاب العربة القادمين من أجل أخذ مؤوناتٍ إلى دير "كوڤيريتّو"؟ حينئذٍ، أدرك "مالانو" الطيّب أنّه لم يكن ألعوبة الصدف، بل أداة العناية الإلهيّة.

موقف الأب "كُتُّلِنغو" من المـــال

بما أنّ الأب كان راسخ اليقين بأنّ العناية الإلهيّة هي التي توفّر كلّ شيءٍ في وقته، لم يحسب للمال أيّ حسابٍ، ولم ينكر أنّ المال هو الوسيلة التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل غوث البائسين، وتزويدهم بالطعام والكساء، والمأوى والعلاج. ولكنّه أبى أن يكون نقص المال مبعث قلقٍ. أو أن يفرض المال على الإنسان أسلوب عيشه.

لقد وصفته صحفٌ، بعناوين بارزةٍ، بأنّه الرجل الذي يرمي المال من النافذة. ولكنّ هذا الوصف لا يتطابق مع الواقع. صحيحٌ أنّه رمى من نافذةٍ قطع نقدٍ صغيرةً، كانت هي كلّ ما تبقّى لراهبةٍ مكلّفةٍ بابتياع اللوازم الأساسيّة الجسيمة من أجل معيشة *البيت الصغير*. وإنّما فعل ذلك، كي يرسّخ في أذهان راهباته أنّ كمّيّة المال ليست هي ضمانة عيشهنّ وعيش سكّان *البيت الصغير*، بل إنّ الضمانة الوحيدة هي الثقة بأنّ الله لا يهمل أبناءه الساعين إلى نشر ملكوته، إن أولَوه ثقةً مطلقةً.

ولطالما جهد في تسريب هذا اليقين إلى نفوس معاونيه بوسائل مختلفةٍ. فقد سألته راهبةٌ، مرّةً، مالاً من أجل ابتياع احتياجات اليوم التالي. ونقّب في جيوبه فلم يعثر إلاّ على أربعة فلوسٍ. وكان المكان غاصًّا بمساعديه، فقال لهم إنّ هذه الفلوس هي كلّ ثروة فقرائه، وإنّه سعيدٌ جدًّا لأنّ الجميع تبيّنوا وتأكّدوا أنّ الله هو الذي يعيل البيت، لا الأب كُتُّلِنْغو.

وقدّم شاهدًا بليغًا عن نظرته إلى المال، عندما جاءه أخوه الراهب بفلسٍ وجده مرميًّا في الطريق، وقدّمه له مازحًا، وربّما متهكّمًا، قائلاً: "هذه هديّةٌ من العناية الإلهيّة، قد تحتاج إليها!". فأخذ الأب القدّيس الفلس شاكرًا، مقرًّا: "هذا الفلس، مثل المبالغ الطائلة التي تهبط على البيت، هو هبةٌ من العناية الإلهيّة، وأتلقّاها جميعها بشكرٍ".

ولطالما أكّد الأب لمعاونيه أنّ *البيت الصغير* سيمضي قدُمًا في النموّ، ما دام اعتماده قائمًا على العناية الإلهيّة، وزاهدًا في اكتناز المال. ولكنّه سينهار وسيضمحلّ حالما يشرع بجمع المال والاعتماد على احتياطيّه منه، مستبدلاً به العناية الإلهيّة. وكان يحذّر معاونيه، بلا هوادةٍ، من أيّ ازدهاءٍ بالاغتناء، مهما ضخمت مبالغ التبرّعات والهبات المقدّمة للبيت، وينهيهم عن الشعور الوبيل بالامتلاك، ويذكّرهم بواجب الزهد في كلّ امتلاكٍ خاصٍّ، لكيلا ينهار البيت ويندثر. وبلا انقطاعٍ، كان يردّد على مسامعهم: "حتّى إذا أتتنا مبالغ جسيمةٌ، إيّانا أن نعدّ ذواتنا أغنياء، وأن نعتمد على المال المتوفّر. فيجب أن يكون معتمَدنا هو العناية الإلهيّة. وليظلّ مستوى عيشنا هو مستوى عيش الفقراء. مكتفين بما لا غنى عنه من خبزٍ وكساءٍ". وسُئل: "فما نفعل بالفائض؟". أجاب: "نبني مزيدًا من الأماكن من أجل استقبال مزيدٍ من محتاجين، ونوفّي ديوننا، ونتصدّق على فقراء من خارج البيت".

ولقد رفض، دائمًا، بعنادٍ، إيداع المبالغ الطائلة التي كانت تمنح، أحيانًا، لـ *البيت الصغير*، في المصارف، بغية الاستفادة من فوائد قد تساعد على اجتياز أيّام الجفاف، إذ كان يعدّ هذا العمل ارتيابًا في وفاء العناية الإلهيّة وسهرها اليقِظ، مذكّرًا معاونيه: "إنّ العناية الإلهيّة هي التي ترسل لنا هذه الهبات، لكي ننفقها، لا لكي نوفّرها. ولو هي شاءت أن نحتفظ بها، لكانت احتفظت بها عندها، فهي مكان الحفظ الأوفر أمنًا".

ولم يكن له خزائن يودع فيها الأموال الجزيلة التي تأتيه، ولم يكن يعدّها ويرتّبها رزمًا، كما يفعل عموم البشر، بل كان يودعها كما هي أتته، في خزانةٍ خشبيّةٍ، لا قفل لها، في المخبز المجاور للبيت. أمّا ما كان يأتيه، ساعةً فساعةً، فكان يودعه في كيسٍ من قماشٍ ملقًى على طرف أريكةٍ في حجرته. وكان يودع مبالغ صغيرةً في جيوبه، وفي أدراج مكتبه كي يستطيع تلبية الطلبات الجارية، بلا تلكّؤٍ.

كان يزدري المال ازدراء مطمئنٍّ إلى وجود نبعٍ ثرٍّ يستقي منه ما يرويه، كلّما استولى عليه العطش. ولم يخشَ قطّ الإقرار بأنّه غارقٌ في لجّة الديون، مستندًا على ثقته بحرص العناية الإلهيّة على تمكينه من وفاء تلك الديون. ولم تساوره، قطّ، ريبةٌ في أن يكون تلكّؤ العناية الإلهيّة، أيّامًا، أو أسابيع، عن غوثه، دليلَ تخلّيها عن بيتها الصغير.

ويبدو أنّ كرهًا فطريًّا للمال كان مستحوذًا على شعوره، ومقتًا عنيدًا يحاكي مقت راهبٍ ملتزمٍ بنذور الفقر، كان ينفّره من كلّ ما يشير إلى المال. فكان وجود مالٍ على مقربةٍ منه يحرقه ويؤرّقه، ويطرد النوم عن جفنيه. فكان يفرغ جيوبه من كلّ ما فيها قبل إخلاده إلى النوم، ويضع كلّ مالٍ في غرفةٍ أُخرى؛ أمّا إذا انتابه شعورٌ بأنّ في حجرته مالاً، قليلاً أو كثيرًا، فكان ينهض، ويبحث عنه، ويدعو من يُبعده عنه. وإذا وقعت قطع نقودٍ أرضًا، فلم يكن ينحني لالتقاطها، بل كان يركلها بقدمه حتّى يخرجها من غرفته، وإذا شعر بذلك أحدٌ، واستفسره عمّا يفعل، يجيب: "في غرفتي شيءٌ مزعجٌ، أطرده بعيدًا عنّي". وإذا وجد في جيبه قطعتَيْ نقدٍ صغيرتَين كان يرميهما بعيدًا، خوفًا من أن تتشاجرا وتحرماه الإغفاء.

ويُروى أنّه، ذات مساءٍ، بعد أن أفرغ ثيابه من كلّ مالٍ، ووضعه على منضدةٍ، حاول النوم، وإذ بالمنضدة تضجّ وكأنّ هزّةً أرضيّةً تحرّكها. وحاول، بادئ الأمر، اللااكتراث، ولكن الضجيج المستمرّ حرمه النوم، فنهض ونقل المال إلى غرفةٍ أُخرى، فخرس الضجيج.

ومع كلّ نفوره من المال، أو ربّما بسبب نفوره منه، كانت تهبط عليه من حيث لا يدري، كلّما اشتدّت الحاجات وتهديدات الدائنين الشرسين، لفائف تعادل مبالغ الديون المطلوبة، أو تمتلئ كفّاه بنقودٍ ذهبيّةٍ يرضي بها دائنين آخرين.

ومع عدم اكتراثه بالمال، قلّما عبرت أموالٌ ونقودٌ ذهبيّةٌ بين يدي أيّ مسؤولٍ بقدر ما عبرت بين يديه. ومع ذلك، لم يكن للذهب أيّ أثرٍ على نفسه، ولم ينفق أحدٌ من المال على أعمال المحبّة في مثل حرصه ودقّة معاييره، وانسياقه لإلهام قلبه،

ونأيه عن كلّ تبذيرٍ نافلٍ أو طائشٍ. وقد برهن، دائمًا، عن براعةٍ عبقريّةٍ في قرن الفقر بالسخاء. مثال ذلك أن أهدى القصرُ *البيت الصغير* ، مرّةً، ما فاض عن مأدبةٍ ملكيّةٍ كبرى. ولّما شهد الأب عدد الأطباق الجسيمة، والسلال العديدة المترعة بالطيّبات الفاخرة، وأدرك أنّها ستفيض عن استهلاك البيت اليوميّ، لم يرضَ الاحتفاظ بجزءٍ منه لليوم التالي، بل آثر اقتسام ما أُهديه مع جمعيّةٍ خيريّةٍ أُخرى في تورينو. وظلّت الحكمة المشبعة بالمحبّة هي التي تقود إدارة *البيت الصغير* .

ومع كلّ ما عبر بين يدي الأب من مبالغ، لم يمسك لها سجلاّتٍ. بل إنّ السجلاّت الوحيدة التي حرص على دقّتها، هي سجلاّت ديونه، لكي لا يغمط أيّ دائنٍ فلسًا، حتّى إذا اضطرّ، أحيانًا، إلى إرجاء إيفاء الدين أيّامًا معدوداتٍ.

وقد نصّت بوضوحٍ تعليماته لراهباته، في هذا الشأن، على ما يلي:

"لا تسجّلنَ لا مداخيلنا، ولا نفقاتنا. فلا يسوغ أن نقيم حسابًا مع العناية الإلهيّة، فهي وحدها تحسن العمل. إنّ ما يتحقّق يتحقّق بيد الله، وحسبُنا أنّه عليمٌ به. ولا يكنْ لدينا سجلٌّ سوى سجلّ الديون، التي تعهّدت العناية الإلهيّة إيفاءها خيرًا من كلّ مصرفٍ.

"ولا يسوغ أن نحفظ مالاً، احتياطًا لليوم التالي. خشية أن تتخاصم قطع النقود الراقدة معًا.

"وعلام تقلقنَ بشأن الغد؟ إذا عُنيتنَّ، أنتنَّ، بالغد، فلن تُعنى به العناية الإلهيّة. فدعنَها تعمل، ولا تفسدنَ عملها".

بعض أصدقائه، وأحدهم الملك، استهجنوا هذا السلوك، واستنكروه، أحيانًا، وربّما عدّوه غير مسؤولٍ. ولكنّ تبريره كان تجلّي عطف الله وسخاءه، ردًّا على ثقة البيت المطلقة بالله، وتأكيد أنّ *البيت الصغير* هو عمل النعمة وليس عملاً بشريًّا عبقريًّا.

وكان قد خطر للأب، ولبعض معاونيه، في سنوات التأسيس الأُولى، إحصاء المرضى، والراهبات، والعاملين، والنـزلاء. وهو أمرٌ مألوفٌ وطبيعيٌّ في مؤسّسةٍ ناشئةٍ. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ *البيت الصغير* ليس مؤسّسةً كالمؤسّسات البشريّة، من جرّاء تعذّر أيّ إحصاء. وقد جاءت الأب، يومًا، راهبةٌ بثبتٍ عن موجودات الفرع التي كانت مسؤولةً عنه، وعن العاملين فيه. فعاتبها، قائلاً: "أيّتها الحمقاء، يجب ألاّ تحصي عدد الراهبات والأشخاص الذي نعينهم في هذا البيت. واعلمي أنّي سأفرض عليك كفّارةً إذا كرّرتِ عملك هذا".

معظم موارد البيت كانت ترد على شكل حسناتٍ صغيرةٍ، يوميّةٍ، وتُنفَق في الحال. غير أنّ عطايا جسيمةً كانت تهبط عليه بين حينٍ وحينٍ. فقد توفّي كاهنٌ وورّث *البيت الصغير* معادل ثلاثين ألف فرنكٍ. وترك محسنٌ آخر للبيت معادل مئة ألفٍ. ووهب صاحب مصرف البيت معادل مليون فرنكٍ معفيّةً من الضريبة. ولا ريب أنّ هذه المبالغ كانت تغري باستثمارٍ يوفّر دخلاً ثابتًا ومجزيًا. ولكنّها لم تفلح في ثني الأب عن عزمه إنفاق كلّ ما يأتيه على توسيع رقعة المحبّة توسيعًا لا يتوقّف. وكانت أولويّته تتّجه صوب إيفاء الديون المتراكمة، ثمّ بناء أماكن جديدةٍ من أجل استقبال قوافل جديدةٍ من المرضى والفقراء والمحتاجين، مع يقينه بأنّ ذلك سيؤدّي إلى مضاعفة أعبائه اليوميّة.

طالما عجب الملك "شارل ألبير" من قدرة الأب كُتُّلِنْغو على إدارة مؤسّسةٍ لا تني تنمو نموًّا مذهلاً، مع استخفافه بالمال. وطالما أوضح الأب أنّ السرّ يكمن في عمل العناية الإلهيّة. وكان الملك ينحني تقديرًا للكاهن القدّيس، مثلما كان الكاهن ينحني أمام روح الله الذي أظهر له أنّ مشيئة الله تثوي في التجرّد المطلق، وفي هذا التجرّد يتجلّى سهر العطف الإلهيّ. واتّضح لكلّ متبصّرٍ أنّ *البيت الصغير* هو نعمةٌ مُنحت، أكثر منه بناءٌ ارتفع مدماكًا مدماكًا. وربّما هذا يفسّر تعذّر قدرة الأب ومعاونيه على إحصاء عدد نزلائه ومرضاه، رغم المحاولات المتكرّرة، ويفسّر،

أيضًا، رفضه لحملات جمع إحساناتٍ ومساعداتٍ، ولعدم اعتماده على تبرّعاتٍ محدّدةٍ في تواريخ منتظمةٍ، حرصًا منه على أن تبقى العناية الإلهيّة هي صاحبة *البيت الصغير*، وأمّه، وأباه، ومعيلته، ويكون جميع المحسنين أدواتٍ لها، مثله.

هذا الحرص وسم مواقفه وردود فعله بدمغةٍ غير مألوفةٍ تتباين تباينًا واضحًا مع مواقف عموم الناس وردود فعلهم، فهو وحدَه كان يضجّ فرحًا كلّما تعقّدت أُمور البيت تعقيدًا يتعذّر معه، تصوّر مخرجٍ منه. فيتألّق، حينئذٍ، عمل العناية الإلهيّة. وفي مثل تلك الظروف، طالما كان يتوثّب فرحًا، ويُشرق محيّاه، ويطلق أناشيد حبٍّ وعرفانٍ جميلٍ، طالما حبسها في صدره، مسفرًا عن شيءٍ من سرّه، وهاتفًا: "سيتأكّد الجميع أنّ الأب كُتُّلِنْغو ليس هو من يدير *البيت الصغير*".

من البدَهيّ أن تعترض مؤسّسةً بحجم *البيت الصغير*، في غمرة نموّها، أزماتٌ ومِحَنٌ، ولكن ليس من البدَهيّ ولا المألوف أن تسبّب الأزمات والمحن، لمدير المؤسّسة – بديلاً عن الإحباط، والهمّ، والقلق – ابتهاجًا، وتفاؤلاً، ودعوةً منعشةً إلى اجتياز مرحلةٍ جديدةٍ، في ميدان الثقة بالله.

ولم يختلف تعامل الأب مع ماله الخاصّ عن تعامله مع مال *البيت الصغير*. فهو، منذ صباه، كان يقتسم حتّى طعامه، ومصروف جيبه، مع أترابٍ كانوا أشدّ منه فقرًا. وترعرع على هذا الزهد، والتجرّد، ومارسهما طوال حياته.

إثر وفاة والده، جاءه أحد إخوته من أجل التوافق على اقتسام التركة، التي كان له منها حصّة الأسد، وفق التقاليد المرعيّة، حينذاك، والتي تميّز الابن البكر بحصّةٍ طاغيةٍ، فردّ، ممتعضًا، ومصرّحًا بأعلى صوتٍ، أنّه لا يريد من مال الدنيا شيئًا.

وعرض عليه أخوه الراهب، يومًا، مساعدته على تخطّي أزمةٍ ماليّةٍ، باستدرار سخاء أثرياء يعرفهم، ورأى الأب في هذا العرض، إهانةً للعناية الإلهيّة، فطلب من أخيه الصمت، والعزوف عن مثل هذا العرض ثانيةً.

وقد اعترف أخوه الراهب هذا، الذي لم يكن يملّ من نهيِه عن الإمعان في الاستدانة، من أجل الإنفاق على المرضى، والفقراء، ومشاريع المحبّة، بعد أن تبيّن عمل الله العجيب، بواسطته: "لم أستطع مقاومة رأيه ونصائحه، رغم تعارضها مع أنانيّتي. فقد كانت أقواله تهبط من علٍ، عميقةً، حارقةً، تفيض قوّةً، وسخاءً، ودفعًا إلى التضحية".

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأب، كلّما اضطرّ إلى الغياب بضعة أيّامٍ، عن البيت، كان يسلّم أحد معاونيه، أو أحد أخوَيه الكاهنين، كيسًا يحتوي حفنة نقودٍ، ويوصيهم بإيداع التبرّعات الزهيدة الواردة فيه، والإنفاق منه، على الاحتياجات اليوميّة. وكان الذين يوكل إليهم الكيس يظنّون الأمر مزاحًا، وهم يروزون ضآلة محتوى الكيس، وشحّ الواردات، ويتساءلون كم ساعةً سيستطيع الكيس الصمود، والاستمرار في الإنفاق الذي لا يتوقّف. ولكنّهم كانوا يفاجأون بأنّ أيديهم كانت تتعب من الغرف، والكيس لا يفرغ.

إدارة "البيت الصغير"

مثلما تميّزت نشأة *البيت الصغير*، واتّسم نموّه بالفرادة في اعتماد عوامل ومقوّماتٍ غير مألوفةٍ، كذلك تميّزت إدارة الأب كُتُّلِنْغو لذلك البيت. ففي فترة التأسيس لم يكن للبيت مجلس إدارةٍ. وظلّ الأب، طوال فترة إدارته للبيت، لا يستسيغ مجالس الإدارة التي تسبّب الخلافات والفوضى، وآثر الأبوّة التي تقتضي من الأب العمل بعقليّة الوالد الحريص على اطمئنان جميع أبنائه، وتقتضي من الأبناء الاطمئنان إلى أنّ الأب لا يبتغي سوى صالح كلٍّ منهم.

وقد نجح الأب في إدارته لأنّه كان عليمًا بدخيلة جميع العاملين معه، ولأنّه كان يكلّف كلاًّ منهم بما يتوافق مع مؤهّلاته ودعوته. وربّما بدت بعض تكليفاته ملهمةً من الله، ولكن من المؤكّد أنّها لم تكن، أبدًا، اعتباطيّةً، بل كانت مبنيّةً على معرفةٍ دقيقةٍ للعاملين معه. وكان يعيّن كلّ فردٍ في المركز الملائم له.

وكان يصغي إلى أصغرهم مثل إصغائه إلى أكبرهم، بلا تمييزٍ. وبذلك أضفى على إدارته جدوى، واكتسب ثقة الآخرين به.

إذن كان الأب هو المدير والحكَم، غير أنّه كان يحكم ويدير بإلهامٍ إلهيٍّ، وانقيادٍ للمشيئة الإلهيّة، ولمقتضيات المحبّة. وكان يستمع إلى رغبات كلّ فردٍ، وتمنّياته، وشكاواه، وفي حالات الخلافات كان يتبيّن بصبرٍ وتمييزٍ مواطن الخطأ والصواب، ويسعى إلى المصالحة والتفاهم، داعيًا جميع الأطراف إلى التماس بركة العذراء، ملكة السلام والمصالحة. ولم يحِدْ، قطّ، عن مقتضيات الإنجيل.

لم يكن يتحرّج من استشارة كلّ صغيرٍ أو كبيرٍ يستشفّ فيه نصاعة النفس، وسلامة الحكم، ولا يحجم عن الاستعانة بمن يستطيع مساعدته على القيام بقسطٍ من أعبائه الباهظة، على أن يكون ملتزمًا بمبادئه الأساسيّة.

ومع تنامي *البيت الصغير* استعان بنخبةٍ من الأطبّاء والممرّضين للعناية بالمرضى، وبإخوة القدّيس ڤنسان دي پول على أعمال الخدمة المادّيّة، وبنخبةٍ من الكهنة والراهبات، الذين كانوا يقاسمونه أهدافه ومبادئه، على توفير خدماتٍ روحيّةٍ أساسيّةٍ، كان يرى فيها شرطًا لا غنى عنه لبقاء البيت ونموّه، ولتزويد العاملين فيه بالطاقات والقدرة على المثابرة.

وقد انتهج أُسلوب إدارةٍ يتباين عن كلّ نهجٍ مألوفٍ، فاتّكأ نظامه على دعامتين، وأربعة مبادئ.

الدعامتان هما الإيمان والمحبّة.

إيمانٌ راسخٌ بأنّ الله لا يخدع، وأنّ عنايته تزوّد جميع مَن يرومون، أوّلاً، ملكوت الله وبرّه، بكلّ ما يلزمهم.

ومحبّةٌ قائمةٌ على قول الربّ إنّ كلّ ما يُفعَل من أجل الصغار، يُقدَّم له شخصيًّا.

أمّا المبادئ الأربعة فهي:

- حصريّة حقّ الإقامة في *البيت الصغير* ، بمن لا داعم له، ولا معنيًّا به.
- معارضة الحكمة البشريّة. فعندما يُقدم حكماء البشر على مشروعٍ، يبدأون بالتخطيط له، ثمّ يحشدون الأموال اللازمة، ويلحظون احتياطيًّا وافيًا يضمن المضيّ به إلى نهايته، واستمراره. وعلى نقيض هذه الحكمة البشريّة، كان الأب كُتُّلِنْغو، حالما تتّضح له الحاجة إلى مشروعٍ تقتضيه المحبّة، ينبري له، بلا تردّدٍ، ولا تحفّظٍ، ولا حسابٍ، ولا معتَمَدٍ سوى الثقة بأنّ العناية الإلهيّة ستوفّر كلّ ما يلزم، في أوانه.
- العمل بوصيّة الربّ: "لا تهتمّوا للغد، فالغد يهتمّ لنفسه، وحسبُ كلّ يومٍ همّه". وبالتالي، كلّ مالٍ يؤتى به يُنفق، في الحال على بناءٍ ضروريٍّ، وشراء مؤونة اليوم الراهن، ووفاء ديونٍ مستحقّةٍ.
- العمل بحكمة الربّ: ماذا ينفع الإنسان إذا أنقذ جسده، وخسر نفسه؟ وقد

تجسّد تنفيذه هذه الحكمة بالقرن المحكَم بين الانعطاف على الأجساد المحطّمة، التي واجهت مخاطر البطالة والمذلّة، فاحتاجت إعادة تأهيلٍ يعيد لها كرامتها، وقدرتها على العمل، وفرح الحياة، ومن جانبٍ آخر، تزويدها، حالةً فحالةً، وبمحبّةٍ، بالخدمات والمبادئ الروحيّة التي تقودها إلى معرفة الله ومحبّته.

أمّا المعيار الذي كان يقود أحكامه، فاتّسم، دائمًا، بهمّ المحبّة العادلة. كما يتبيّن من الحدث التالي:

وقف أربعة مرضى أمام باب *البيت الصغير*: رجلٌ مصابٌ بعلّةٍ جلديّةٍ، وعجوزٌ مطويّة الظهر، وشابٌّ مصابٌ بالسيفيليس، والرابع مصدورٌ يرافقه خادمٌ. ولم يكن في البيت أسرّةٌ جاهزةٌ لاستقبال أيٍّ منهم. ولمّا تبيّن الأب أوضاع كلٍّ منهم، أوعز إلى راهبةٍ بإعداد ثلاثة أسرّةٍ، وقال للشابّ المصاب بعلّةٍ جلديّةٍ: "ارجع بعد غدٍ، وللعجوز قال: سيكون سريرك جاهزًا في غضون أسبوعٍ، أمّا المصاب بالسيفيليس، فقال له: سريرك جاهزٌ في الحال، فليُبدأ بمعالجتك". أمّا المصدور فقال له: "يستحيل استقبالك، فما من مكانٍ متوفّرٍ". فاحتجّ الخادم المرافق له، مذكّرًا بأنّ الكونت... قد أوصى به. فردّ الأب: "ولهذا السبب أنا لستُ قلقًا بشأنه، لأنّه لن يُرمى في الشارع، ولن ينام في العراء". وفي الواقع رقد المصدور، في ذلك المساء نفسه، في مستشفًى راقٍ، بفضل الكونت، الذي أقرّ: "لا يمكن مناقشة هذا الكاهن القدّيس، فهو دائمًا على حقٍّ".

غير أنّ الذي اعترض على قرار الأب كان صديقه الدكتور "غرانيتّي"، الذي لم يبتلع أسلوب الأب، وعدّه غير منصفٍ، محتجًّا أنّ الشابّ المصاب بالسيفيليس هو الذي جلب الداء لنفسه بسبب أفعاله الفاحشة، فيما المصدور غير مسؤولٍ عن علّته. والمحبّة السويّة كانت تقضي بقبول هذا، وردّ ذاك. وكان ردّ الأب قاطعًا: "يا صديقي الطبيب، أنت والعدل على طرفَي نقيضٍ، فليس علينا، نحن، أن نحاكم

البشر، ونبحث عن سبب عِللهم. بل عندما يمثل عليلٌ أمامنا، ويكون قد رفضه الجميع بسبب علّته، علينا أن ندرك أنّ العناية الإلهيّة هي التي ترسله لنا. وحينئذٍ، عليك أنت، بصفتكَ طبيبًا، أن تشفي جسده، وعليّ، أنا الكاهن، أن أسعى إلى شفاء نفسه".

وكم، في ما بيننا من أمثال الدكتور "غرانيتّي"، الذين يقيسون العدالة بمقاييس الأنانيّة البشريّة، وحساباتها الضيّقة، ويذكّرون بموقف أخي "الابن الشاطر"، الذي استنكر احتفال أبيه بعودة أخيه العاقّ، الضالّ، احتفاله بابنٍ كان يعدّه ميتًا وعاد إليه حيًّا، في حين لم يبادره أبوه، هو، يومًا، بأيّة مكافأةٍ، مع أنّه لم ينأَ قطّ، عنه، وقضى عمره كلّه جاهدًا، دائبًا على إنماء ثروة الأُسرة، متناسيًا أنّ هذه الثروة ستؤول إليه بصفته بكر الأُسرة. وما أكثر مَن يأخذون على الله إسراف رحمته المزرية بعدالة الأرض!

وبالإجمال نفث المؤسّس القدّيس روحانيّته الفذّة، من خلال إدارته الفريدة، في روح *البيت الصغير*.

روح "البيت الصغير"

منذ صغره تعاطف جوزيف كُتُّلِنْغو مع وجع الآخرين، وترعرع مشاطرًا، بعمقٍ، معاناة المرضى والمحرومين والمعاقين، فسعى إلى بثّ العزاء في نفوسهم، وتخفيف وطأة آلامهم، حتّى إذا اضطرّه ذلك إلى الاستدانة، والتماس المعجزات. وكانت أعمال محبّته مغلّفةً، دائمًا، بالرقّة، والحنان، والورع، لأنّه كان يرى فيهم صورة الربّ. أوَلَم يقلْ لمساعديه في *البيت الصغير*: لو تبيّنتم حقيقة هويّة الذي يمثّله المرضى الفقراء، لخدمتموهم راكعين"؟

وانسحب موقفه هذا على إدارته لـ *البيت الصغير*، فاتّسم بالبسمة، وساده السلام والرجاء، بفضل سهر الأب على جعل حياة المحرومين لا مقبولةً ومحتملةً فحسب، بل ممتعةً، أيضًا. وكمنت نجاعة مسعاه هذا في إيمانه بأنّ العليل والفقير ليسا محرومَيْن يحتاجان، فقط، إلى مواساة، أو عاجزَيْن لا يفتقران إلاّ إلى مساعدةٍ، بل إنّهما مختاران من الله يجهلان هذا الاختيار. فعليه، وعلى مساعديه أن ينظّموا سلوكهم وفق هذا الإيمان ومقتضياته.

وكان يؤمن أنّ المرض والحرمان هما امتحانٌ إلهيٌّ يساعد على ممارسة التضحية وصولاً إلى القداسة، وجهد في ترسيخ هذا الإيمان في أذهان مرضاه.

وسرعان ما أضحى *البيت الصغير* أكثر من مستشفًى، ومأوًى، فقد أصبح بؤرة حياةٍ مسيحيّةٍ، تقود إلى القداسة، حيث تحيا نفوسٌ رائعةٌ في أجسادٍ معطوبةٍ. وبدل كونه ملتقى نفوسٍ مختارةٍ، كان الملاذ، والأمل الأقصى لكلّ مهمّشٍ ومزدرًى ومُهمَلٍ، ومركزًا لإعادة التأهيل، وللقيامة، والاندماج في حركة تصعيدٍ دائمٍ، وأتّون صهرٍ روحيٍّ يدمج من جاؤوا من أجل ممارسة أفعال المحبّة، ومن قدموا طمعًا في نيل مبادرات محبّةٍ، ومنبتًا لقدّيسين وأبطالٍ.

وفي ذلك البيت تعلّم حتّى البائسون التضحية بعاداتٍ وبيلةٍ، مثل التبغ، والكحول، والمخدّرات، التي تخيّلوا فيها مهربًا من همومهم فكانت لهم جادّةً إلى الهلاك، وتلقّنوا عرفان جميل من يمدّون لهم يد العون، والدعاء من أجلهم، سواءٌ عرفوهم أو جهلوهم، وبذلك تحرّروا من الحقد على كلّ ناعمٍ بالصحّة والهناء.

خضعوا لنظامٍ فأكسب إرادتهم مناعةً، وغاصوا في الورع فسما بنفوسهم، وألِفوا صلاةً لا عهدَ لها ببطالةٍ أو مهادنةٍ، فغلّفت الصلاة حياتهم وأخصبتها، وحوّلت آلامها ثوابًا، ودرب خلاصٍ. ولذلك أقام الأب، في كلّ قاعةٍ، هيكلاً كي يستطيع حتّى العاجزون عن الحركة الانتفاع من نِعَم القدّاس اليوميّ، ومن حضور الربّ في القربان المقدّس.

ولهذه الغاية، أيضًا، عمّم الأب، في كلّ أُسر *البيت الصغير*، عبادةً مستمرّةً ومنظّمةً للقربان المقدّس، ورسّخ عادة تطوافاتٍ تقوم بها كلّ أُسرةٍ، يوميًّا، تكريمًا لحضور الربّ في القربان، يتقدّمها صليبٌ، وتسير فيها فتياتٌ ونساءٌ متلفّعاتٌ بحجابٍ أبيض، وفتيانٌ، وشبّانٌ بثيابهم الرثّة المزركشة. والجميع يركعون أمام القربان، ويتلون صلواتٍ بسيطةً، عن نوايا كثيرةٍ تبدأ بتمجيد الله، وتسأل خلاص الوطن، والبيت، والنفوس. وعلى نقيض المزارات الشهيرة حيث يلتمس كلّ حاجٍّ شفاء جسده، أو جسد عزيزٍ عليه، يقتصر دعاء نزلاء *البيت الصغير* على ترديد: "يا مريم، أُمّ يسوع، اجعلينا قدّيسين!".

وقد تعلّم كلّ مقيمٍ في *البيت الصغير*، حتّى غير الكاثوليكيّين، وغير المسيحيّين، رفع أنظارهم إلى السماء، والثقة المتينة بالرحمة الإلهيّة.

وورّث الأب هذا الروح لخلفائه الذين تعاقبوا على إدارة *البيت الصغير*، فآمنوا بواجب الصلاة المستمرّة، والالتزام بتعاليم الإنجيل، وتلبية نداءات المحبّة، بلا جَزَعٍ، ولا تحفّظٍ، والثقة بعمل العناية الإلهيّة.

ثبات "البيت الصغير"

في حين تستنجد الدول بالمعاهدات، ويلجأ الشعوب والأفراد إلى عقودٍ موثّقةٍ، حمايةً لمصالحهم الخاصّة، من جرّاء انعدام الثقة المتبادلة بينهم، وثق الأب بكلّ خلائق الله، ووثق، فوق كلّ شيءٍ بالله وبعنايته. وبفضل هذه الثقة، وبدعمٍ من التزامه الدائم بتعاليم الإنجيل، نَعِمَ *البيت الصغير* بالثبات، واطّراد النموّ.

ومع أنّ معظم المؤسّسات، والجمعيّات، والشركات، تلجأ إلى تعديل أنظمتها على وقع تبدّل الظروف، لم يحِدِ *البيت الصغير* عن النظام الروحيّ والإنسانيّ الذي أقرّه الأب كُتُّلِنْغو القدّيس. فمن لا يستهدف سوى ملكوت الله وبرّه، لا يُكرهه تبدّل الظروف على تغيير وجهة مسيرته. فالعناية الإلهيّة لا تتغيّر. ولكم لزم قدّيسنا من جرأةٍ، وقوّة شكيمةٍ، وبُعد نظرٍ، كي يمنع السلطات المدنيّة من دسّ أنفها في "حسابات بيت العناية الإلهيّة"!

وما دام الموكلون بإدارة ذلك البيت أوفياء لروح مؤسّسه، وخاضعين لمشيئة الله وحده، فلا شيء يزعزع أُسس البيت.

عند وفاة المؤسّس، كانت دواليب الصناعة قد دارت، وأخذت مظالم أربابها تنتج ضحايا لاإنسانيّتهم وجشعهم. ولم يكن لهؤلاء البائسين الجدُد من منقذٍ سوى *البيت الصغير* ، الذي حضنهم، وآواهم، وعالجهم، وأطعمهم، وذاد عن حياضهم، وأعاد إليهم كرامتهم المسلوبة، وأنقذهم من المهانة، وحماهم بحضارة الحبّ.

ومضـــات

« خوفُـنا من الصليب هو صليبُنا الأكـبـر »

خوري أرس

« ينبغي أن نصلّي مثلما نحـبّ، بكلّ كيـاننا »

الأخت إيمّانويل

« عندما تحملون صليبَكم بفرحٍ، يحملكم يسوع »

القدّيس توما الأكوينيّ

« كلّ حبٍّ حقٍّ هو ضربٌ من الجنون. والمحبّة جنونٌ سافرٌ وهي، من جميع أصناف الجنون، أكثرها جنونًا »

فرنسوا مورياك

الفَصْلُ الخَامِسُ

وجــــهٌ ونفـــــسٌ

« يحتـاج المسيح، من أجل الشـهادة لـه، والـذود عن قضـيّتـه، إلـى مغـامرين، وفـاتحين، رافعين شعار العيش في خطرٍ »

"فرنسوا موريـاك"

« ليس كلّ ألمٍ هو عـامل فـداءٍ. بل وحـدَه الألم المتقبَّـل، والمحتمَل في اتّحـادٍ مع الـربّ، واستغفارٍ، هو نبعُ فداءٍ »

فرنسوا مورياك

« تصبح الحياة فاتنةً، عندما تُختزَل في لقاء اللّه بالإنسانيّة، أي بإخوتنا وأخواتنا السائرين تحت أنظار اللّه »

الأخت إيمّانويل

« في كلّ امرئٍ يثوي كائنٌ مكمومُ الفم، يختنق بسبب فشله في أن يكون قدّيسًا »

ستان روجييه

« تكمنُ العظمة في الخلق والإبداع، لا في الاقتصار على الموجود. وما الحضارة سوى استنباط ما يفتقرُ إليه البشر وتحقيق ما يحلمون به »

سانت اكسوپيري

قداسته

ربّما لم يولد مكتملَ القداسة إلاّ يسوع وأُمّه. أمّا سائر القدّيسين فقد صنعوا قداستهم بمقاومتهم العنيدة لأهوائهم، ولشهواتهم، ونحتوا قداستهم في صخر فطرتهم، بأزاميل الجهد والجهاد، وبترويض ذواتهم على الممارسات الخلاصيّة الشاقّة، وعجنوها بعرق العناء، ودماء التضحية والإماتات، واستعانوا عليها بإرادةٍ فولاذيّةٍ مسقيّةٍ بالصبر، والعناد، والمثابرة، ومدعومةٍ بالصلاة، والنعمة، وممارسة الفضائل.

لا يبلغ القداسة، إذن، إلاّ من يبتغيها، ويصرّ على اكتسابها، منفّذًا كلّ مقتضياتها، بجرأةٍ بطوليّةٍ.

كانت القداسة هي حلم صبا "جوزيف كُتُّلِنْغو"، ولطالما ردّد: "سأظلّ أعلن رغبتي في أن أُصبح قدّيسًا، ومع أنّي ما زلت بعيدًا عن هذا الهدف، فلن أتخلّى عنه أبدًا. وبمعونة الله سأصبح قدّيسًا".

كان موقنًا أنْ ما من إنسانٍ يولد قدّيسًا. ولكن كلّ فردٍ يستطيع، بل من واجبه، أن يصبح قدّيسًا. ومن أقواله، في هذا الشأن:

« خَلقَنا الله لكي نحبّه، ونصبح قدّيسين. قد ترعبنا لفظة "القدّيس". ونظنّ أنّ القداسة أمرٌ استثنائيٌّ، أو مستحيلٌ. مع أنّه كان للكنيسة، وسيكون لها دائمًا قدّيسون، لأنّ تعليمها مقدّسٌ، ووصاياها مقدّسةٌ، وكلّ شيءٍ فيها مقدّسٌ. ولكنّ القداسة لا تتحقّق تلقائيًّا، بل يُصار إليها من خلال ممارسة الفضائل: الصبر، وحبّ يسوع، والسيّدة العذراء. لقد كان للقدّيسين عيوبٌ، ولكنّهم اجتثّوها، وكانت لهم أهواءٌ ولكنّهم قضوا عليها، وعاشوا في عالمٍ فاسدٍ، ولكنّهم تغلّبوا على شروره. لا يفتقر إنسانٌ إلى نعمة الله. وما فعله القدّيسون، فلنسعَ إلى فعله، كي نصبح قدّيسين ».

ولا ريب أنّ جوزيف كُتُّلِنْغو كان، بفطرته، مهيّأً للقداسة، فقد كان محبًّا، عطوفًا، طيّب القلب، ولكنّه كان غضوبًا وعصبيًّا. غير أنّه، بدأبه وتضحياته، حوّل طيبة القلب بوتقة محبّةٍ متفجّرةٍ، ولم يضنّ بأيّة تضحيةٍ في سبيل الترقّي على معارج القداسة، سالكًا منهجيّةً محكمةً، وسيطرةً صارمةً على ذاته، ومتسلّحًا بإرادةٍ فولاذيّةٍ، قاطعةٍ، ثابتةٍ، لا تخور ولا تنثلم، ساعدته على التمرّس بها قوّة شكيمته، وهي قوّةٌ قد تُمنح بالفطرة، ولكنّها لا تنمو، ولا تؤتي ثمارًا إلاّ بجهدٍ دائبٍ، وسلوكٍ قاسي الانضباط.

وقد جلّى الأب كُتُّلِنْغو في ميدان الزهد والتقشّف والتضحيات.

وكانت قد برزت لديه هذه النـــزعة منذ صباه. وأقرّت والدته أنّها لم تلحظ لديه نفورًا من أيّ طعامٍ. أمّا الطعام الذي كان يستسيغه فكان يُقلّ من تناوله، كي يتيح لسائر أفراد أُسرته، نيلَ ما يشتهونه منه. ولاحظت والدته أنّه كان يملأ جيوبه بالفواكه التي يستطيبها، ويخرج كي يوزّعها على أترابه المحرومين منها، وأنّه كان غالبًا يُعرِض عن تناول ما يستطيبه.

ونمت هذه النـــزعة مع نموّه وترعرعه. فلمّا انضمّ إلى جمعيّة "جسد الربّ"، لم يشكُ، قطّ، من الطعام المقدّم، واعتاد الحضور إلى قاعة الطعام متأخّرًا، حين يكون معظم الطعام قد استُهلك، ويكون الطيّب منه قد نفد، فيكتفي بالفائض؛ وغالبًا ما كان لا يجد ما يتناوله، ومع ذلك لم تُسمع منه شكوى.

وفي *البيت الصغير* عزف عن تناول النبيذ الذي كان يرافق طعام الجميع، وزهد في تناول الحلويات، لكي يتناول نزلاء البيت منها بقدر ما يشتهون. ومع حرصه على أن يكون الطعام المقدّم للنـــزلاء ممتعًا، كان يكتفي لنفسه بقليلٍ من الخضراوات، بلا منكّهاتٍ.

ولّما أسّس جمعيّة "كهنة الثالوث الأقدس"، ألغى المائدة الكبيرة المشتركة، وأوعز بخصّ كلّ كاهنٍ بمائدةٍ صغيرةٍ فرديّةٍ، واتّفق مع الراهبة المكلّفة بتقديم الطعام على

أن تأتي لكلّ كاهنٍ بطبقين مغطّيين، وأن تأتيه، هو شخصيًّا، بطبقٍ يحتوي القليل من الخضراوات، وبآخر يحتوي بصلاً، بحيث يخفى تقشّفه عن الآخرين.

وقد أفضى به هذا النظام الغذائيّ الشحيح إلى الهزال، وإلى شيخوخةٍ مبكّرةٍ، وإلى نوبات دوخةٍ أحيانًا. وغالبًا ما تخلّى عن العشاء وأمضّ الجوع أحشاءه، ليلاً. فكان يسكته بمضغ فتات ورقٍ ثمّ يبصقه. ولما تبيّنت الراهبات ذلك، ادّعى أنّه يخرس بها آلام لثّته. ولكن، أفلت منه، ذات يومٍ، اعترافٌ أسفر عن الحقيقة، إذ لاحظت راهبةٌ مضغه للورق، فاستفسرته عن السبب، وعفويًّا قال، عن غير قصدٍ: "لأنّني جائعٌ!". وذهلت الراهبة، وهمّت بإعداد طعامٍ له، فرفض، حينئذٍ استأذنته بأن تأتيه، على الأقلّ، بكسرة خبزٍ، ولكنّه منعها قائلاً: "لا يجوز أن يتناول الحمار علفه خارج معلفه!". ولطالما أجاب من كانوا يستفسرونه عن سبب هزاله: "عليّ أن أُعاقب هذا الجسد المتمرّد، وأن أكبحه لكي لا يحول دون أن تؤدّي نفسي واجباتها".

ومع ذلك كان ينصح أصحاب الطباع الهادئة بالعزوف عن مثل تلك الإماتات لكيلا تسلبهم القدرة على أداء مهمّاتهم الشاقّة.

وفي أيّامه الأخيرة، تناول، ذات ليلةٍ، العشاء مع أخيه، الأب لويس، واعترف له أنّ حساء الخضار الذي تناولاه كان الطعام الوحيد الذي دخل فمه، في ذلك اليوم. وقُبَيْل احتضاره وصف له طبيبٌ حساءً دسمًا، فقال له إنّه منذ سنواتٍ عديدةٍ، لم يذقْ طعمه، وخاف أن تنبذه معدته.

ولم يكتفِ بحرمان جسده الطعام، بل حرمه النوم، أيضًا. فلمّا شرع بتأسيس *البيت الصغير* ، كان في نهاية كلّ يومٍ مُنهِكٍ، يستمع إلى زميلٍ له يتلو على مسامعه فصلاً من "كتاب الاقتداء بالمسيح"، ثمّ يتلوان معًا المسبحة، ويزيّنانها بلازمةٍ: "أيّتها العذراء مريم، أُمّ ربّنا، اجعلينا قدّيسين!". وبعد انصراف زميله كان يتفقّد قاعات البيت، ويتثبّت من وجود كلّ شيءٍ في مكانه، ويعود إلى غرفته عند منتصف الليل، فيستغرق، ثانيةً، في الصلاة، ثمّ ينال قسطًا من الراحة، ويهبّ للعمل قبل الرابعة صباحًا.

وقبيل وفاته انتفخت ساقاه، وتقيّحتا، وألزمه الطبيب باستخدام كرسيٍّ متحرّكٍ، له متّكأٌ لساعديه، استبدله، لاحقًا، بأريكةٍ، أصبحت مرقده، يقضي عليها ليلته، بلا حاجة إلى خلع ثيابه، وإعادة ارتدائها، صباحًا، وكان يشبّه ذاته بالرهبان الكبّوشيّين الذين يكتفون، عند استيقاظهم، بنفضة رأسٍ ونفضة كتفٍ، قبل مباشرة نهارهم الجديد.

ومع ذلك، كان إذا أدركه النعاس، واستحوذ عليه، ينسى سريره وأريكته، ويطّرح على منضدةٍ، أو سلّمٍ، أو حصيرةٍ، أو أيّ شيءٍ. ولما رقد على سرير موته، في منزل أخيه، بدا القلق والأسى على هذا الأخير فطمأنه الأب قائلاً: "أنا في أحسن حالٍ. فمنذ أربع سنواتٍ لم أرقد على سريرٍ".

ومن التضحيات التي كان يكبح بها أهواءه، عزوفُه عن استشمام كلّ رائحةٍ عذبةٍ، وتطوّعه لمعالجة الجروح المتقيّحة التي تبعث روائح مقزّزةً تزكم الآناف، وتَقلب الأمعاء، والتي يأنف الآخرون من الاقتراب منها. وكان، أحيانًا، يُشفق على فقراء يزورهم، ويشاهد قذارة غلالاتهم الداخليّة، فيستبدلها بغلالاته، متحمّلاً سريان الحشرات والهوامّ على جسده، متمثّلاً بصديقه شريد الله القدّيس "بينوا جوزيف لابر" (Labre)، الذي قال كردينالٌ في تأبينه: "يا أهل هذا الزمن، أإلى هذا المدى تزدرون القذارة وتنفرون منها؟ وهل هوامّ الجسد أكثر مدعاةً للخجل والنفور من هوامّ الفكر؟ ألا تعرفون قول يسوع المسيح: الروح أعظم شأنًا من الطعام، والجسد أغلى شأنًا من اللباس. صحيحٌ أنّ القدّيس بينوا كان يأكل نفاياتٍ، ويرتدي ثيابًا ممزّقةً. ولكنّ نفسه عاشت بإلهاماتٍ إلهيّةٍ ساميةٍ، وارتدت ثوب النعمة الرائع، ومعطف المحبّة المقدّس...".

وإمعانًا في ترويض جسده، كان الأب يرتدي مسحًا تحت ثيابه، ويتمنطق بزردٍ حول خصره، كانت أطراف حلقاته تنغرس في لحمه، ولكنّه كان دائم الحرص على إخفائه. وكان، بين حينٍ وآخر، يجلد كتفيه وظهره بعنفٍ أيقظ، مرّةً، الكاهن الراقد

في غرفةٍ مجاورةٍ، فقد ظنّ أنّ الأب يعاني أزمةً، فقرع بابه، ولكنّ الأب أجابه من الداخل أنّه بخيرٍ، وأنّه عندما سيكون في حاجةٍ إلى معونةٍ، سيقرع جرسًا صغيرًا.

ومثلما فرض تضحياتٍ على جسده، فرض تضحياتٍ موجعةً على فكره وقلبه، وضحّى بالعلاقات المشروعة التي ربطته بذويه، مع أنّ محبّته لهم لم تفتر. وقد آثر الموت بعيدًا عن إنجازه الأكبر *البيت الصغير*، وعن الجمعيّات التي أسّسها، وكان له فيها أبناءٌ وبناتٌ روحيّون، بمثابة ثروته الأغلى ثمنًا.

ومن التضحيات التي احتملها، لا بدّ من الإشارة إلى أنّه، مع حبّه الآسر لوالديه، لم يواكبْ وفاة أُمّه ووالده، ولم يشترك في تشييعهما، مثبتًا أنّ حبّه ليسوع يفوق حبّه لذويه، وفقًا لرغبة الربّ.

ولطالما ضحّى بحبّه لذويه في أثناء حياته. ففي مستهلّ عهده بالكهنوت كان يقضي عطلته السنويّة بين ذويه. وخلال الفصول الأخرى، كان يستسنح كلّ فرصةٍ كي يمرّ بالبيت الوالديّ، وفي كلّ يوم إثنين، عندما لم يكن ملزمًا بسماع الاعترافات، كان يؤمّ بيت الأهل برفقة أخيه الكاهن "لويس". ولكن، منذ تأسيسه القنطرة الحمراء، والتزامه بمسؤوليّاتٍ جسامٍ حيال فقراء ومرضى محرومين، حصر اهتمامه بهم، وزياراته لمسقط رأسه على المناسباتٍ الكبرى. وازداد نأيًا عن ذلك البيت إثر تأسيسه *البيت الصغير*، وانقطع حتّى عن مراسلة ذويه. وبذلك أعطى مثالاً حيًّا لمعاونيه، الكهنة والراهبات، في التجرّد التامّ. وكان يسهر على نقل الراهبات، بانتظامٍ، من مكانٍ إلى آخر، تفاديًا لتعلّقهنّ بمكانٍ أو بأشخاصٍ معيّنين. من المؤكّد أنّه كان يدعوهنّ إلى حبّ ذويهنّ، ولكنّه كان يحذّرهنّ من التعلّق المفرط بهم، حرصًا على متانة دعوتهنّ، وصيانةً لخشوعهنّ، وسلامهنّ الداخليّ.

واتّفق أن كان على الأب المضيّ إلى مركزٍ جديدٍ لجمعيّاته، مرورًا بقرية "بْرا"، وتيقّن ذووه أنّه سيتوقّف عندهم، ولو لسوَيْعاتٍ. وكان أشدّهم شوقًا إلى حضنه وتقبيله والده الشيخ. ولكنّه أحجم عن التوقّف لدى ذويه، في ذهابه وإيابه،

وأحدث في قلوبهم جرحًا عميقًا. وتساءل والده، بأسًى: "بِمَ أسأتُ لابـني البكـر فحرمني عزاء تقبيله؟". ولا ريب أنّ جرح قلب الكاهن كان أعمق وأشدّ إيجاعًـا من جرح والده، ولكنّه آثر الوجع على الضعف والإخلال بنذر التجـرّد الـذي التزم به. ومن المحقّق أنّه تحمّل هذه التضحية الأليمة، كي يضرب لكهنته وراهباته مثالاً حسّيًّا في التجرّد.

وقد كرّر هذه الأمثولة عينها، في نوبةٍ أُخرى، إذ كان ماضيًا إلى المقصد عينه، وأخبر الراهبات المرافقات له أنّه سيجتاز معهم بمسقط رأسه، حيث يوجد رجـلٌ مسنٌّ طيّبٌ، هو والده. فقلنَ له إنّه هو أبوهنّ، فأبوه جدّهنّ، ووعدنَ أنفسهنَّ بمتعة التعرّف عليه. ولكنّه أمر سائق العربة بعدم التوقّف، ومتابعة مسيرته إلى مقصـده النهائيّ. ولمّا اعترضت الراهبات، أمرهنّ بالصمت.

وكان يراسل، يومًا، رئيسة أحد المراكز، وكان إلى جانبه، أخوه الراهب الذي أخذ عليه أُسلوبه في المراسلة، المقتضب والجافّ، وناشده أن يكون أكثر مـودّةً، فالراهبات العاملات بعيدًا عن موطنهنّ، يقاسينَ مشقّاتٍ، ويستأهلنَ لهجةً أوفـر رقّةً. ولكنّ الأب ذكّره بأنّه، فطريًّا، ميّالٌ إلى الرقّة، ولكنّ حرصه على أن يكـون دائمًا سيّد عواطفه، يوجب عليه أسلوب الإيجاز والجفاف.

وبالإجمال، مارس قدّيسنا حياة تقشّفٍ أقصى، وأوصى العديد من جمعيّاته بممارسته، بدافع قناعته أنّ خشونة الحياة تضفي مناعةً على النفوس والأجساد.

لقد تمرّس الأب بروح الفقر، ومارس الفقر حتّى أقصى تخومه، فسُمِّي "أكثر أهالي تورينو فقرًا". وسار في تيّار "الفقير الصغير" أمير الفقر، القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ. واستحقّ أولى تطويبات الربّ التي تغبط كلّ من يحدوه روح الفقر. وربّما كانت تلك أقسى تطويبات الربّ ممارسةً، لأنّها تقتضي التضحية بآلاف الروابط التي نرى فيها وسائل رفاهنا وهنائنا. وقد ضحّى الأب بكلّ ما كان يجد

فيه متعةً، كي يستطيع التوغّل في العطاء والغوث، والاستغراق في الفقر الطوعيّ. حتّى غدا يساوي بين الفلس والمليون، لأنّ العناية الإلهيّة تعطي الفلس والمليون بالسهولة عينها، والسخاء ذاته. وكان أكثر التزامًا بروح الفقر من الرهبان الذين ينذرون الفقر، لكنّهم يفتقرون إلى روح الفقر الحقّ. فقد تنازل عن حصّته في إرث والده، وهي الحصّة الكبرى لأنّه بكر أبناء الأُسرة، مثلما تنازل عن كلّ المنافع المادّيّة التي توفّرها ممارسة الأعباء الكهنوتيّة، وضحّى بكلّ ما كان يرى فيه عائقًا دون ديمومة *البيت الصغير* ونموّه.

لقد أحبّ فقراءه أكثر من نفسه، ولطالما باح لراهباته أنّه يحبّ فقراءه أكثر من كلّ ثروات تورينو، وأكّد أنّه لو وعده الملك بجعله أميرًا، لأجابه أنْ ما من أمارةٍ أحبّ إلى نفسه من الفقر، ومن المؤسّسة الفقيرة التي يقيم فيها، ولآثر أن يبقى حيث هو.

ولكم من أمثلةٍ على تشبّثه بالفقر. فهو، مع حرصه على إمتاع فقرائه بالطعام الجيّد الكافي، والإقامة المريحة، والثياب اللائقة، اختار لنفسه الجوع، والفراش الخشن والثياب المهترئة.

ووجدت راهبةٌ سريره ممعنًا في البؤس، فأعدّت له سريرًا آخر أوفر راحةً. ولكنّه اعتبر عملها إلهامًا شيطانيًّا. وأكرهها على إعادة الوضع مثلما كان، وظلّ حريصًا على أن تسود في غرفته الفوضى، واللاتناسق، وأمارات الفقر.

ولم يكن يستبدل ثيابه المهترئة إلاّ عندما يُهدى بديلاً عنها. وإذا أُهدي ثيابًا أو معاطف نفيسةً كان يسارع إلى التخلّص منها بإهدائها. ولكنّه، مع حرصه على رداءة نوع ثيابه، كان يحرص على نظافتها وخلوّها من الرقع واللوثات.

ومثلما زهد في متاع الدنيا، زهد في الشهرة. واعتاد التذكير بأنّه ابن أُسرةٍ متواضعة الحال. وكان يثير غيظ إخوته بادّعائه أنّ والده كان بائعًا متجوّلاً. ولم يحجم عن أيّ ادّعاءٍ كفيلٍ بتصغير شأنه في عيون الناس، والحؤول دون تقديرهم له، ولم يخشَ إيهام العامّة بأنّه هزيل الثقافة.

وكان يأبى ألقاب الشنوان والرئيس، مؤكّدًا أنّه مجرّد سكّيرٍ، وإسكافيٍّ جاهلٍ وفاشلٍ. ولم يكن يوقّع رسائله إلاّ بصفة الكاهن. ولم يحجم، يومًا، عن الانخراط في أيّ عملٍ يدويٍّ، من بناءٍ، ونجارةٍ، ونقل المعدّات والأواني، وغسل الأرض، وتنظيف النوافذ، وإلباس "الأولاد الطيّبين" (الواهنين عقليًّا) أحذيتهم. هذه الأعمال الوضيعة كلّها كان يؤدّيها بحبٍّ جمٍّ، وتواضعٍ سحيقٍ، وبساطةٍ ملائكيّةٍ.

وكان، بدافع الزهد والتواضع، يحتذي، داخل البيت، قبقابًا. واستُدعي، يومًا، إلى قصر الملك، فنسي استبدال القبقاب بحذاءٍ أكثر لياقةً بصاحب الجلالة. ولم يعبأ الملك بالأمر، والأرجح أنّه لم يلحظه، أو ربّما اعتبره ضربًا من التواضع. ولكـنّ الراهبات صُعِقنَ لمّا رأينَه عائدًا من القصر، قارعًا الأرض بقبقابه، ولكنّه طمـأنهنّ بقوله: "وما به قبقابي، فهو جيّدٌ، ولم يرَ الملك فيه عيبًا!".

وكان للأب عربةٌ صغيرةٌ عتيقةٌ، باليةٌ، يجرّها حمارٌ. وغالبًا ما كان، إذا اضطرّ إلى مشوارٍ بعيدٍ، أو احتاج إلى نقل أمتعةٍ، يمتطي الحمار فخورًا بهذه الراحلة، وكأنّه ممتطٍ أغلى فرسٍ في العالم. وإذا سخر أحدٌ منه كان يردّ: "وما الغرابة في أن يحمل حمارٌ حمارًا؟" ويمضي في سبيله. وعندما يعود جارًّا الحمار كان يربّت على رأسه ويقبّله، على مرأًى من الناس، ويمتدح متانته وصبره، ويصفه بالأخ، ويقتسم معه كسرة خبزٍ.

وفي يوم أحد شعانين، علّق الأب في رقبته صليبًا، كان قد مُنِحه وسامًا، وركب الحمار، وطاف به حول *البيت الصغير* مثيرًا دهشة أطفال البيت وبهجتهم، ولمّـا انتهى من طوافه، سأل الأطفال: "هل رأيتم كيف أُجيد ركوب الحمير؟" ولكنّه لم يقلْ إنّه كان يتمثّل بتواضع المخلّص، في مثل ذلك اليوم.

من كلّ ما تقدّم يتّضح تمرّس الأب كُتُّلِنْغو بالتواضع السحيق. وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلاّ أنّه لم يحمل، قطّ، مفتاح *البيت الصغير* ، لأنّه آمن أنّ صاحب

ذلك البيت هو الآب السماويّ. فكان كلّما جاء إليه يقف أمام الباب، ويقرعه مثل أيّ غريبٍ، وينتظر حتّى يفتحوا له.

ولا ريب أنّ أجوبته للدائنين المتوحّشين الذين كانوا يكيلون له أشدّ الإهانات إسفافًا وتحقيرًا، والتي بها كان يهدّئ سورات غضبهم، معترفًا لهم بجهله وفشله، قد دلّت على مدى عمق تواضعه، ونُبْل نفسه.

ومع أنّ آلاف المشاغل كانت تتخاطفه بلا هوادةٍ، وأنّه كان يقضي ساعاتٍ طويلةً من النهار والليل في الصلاة، كان يُقرّ بأنّه عاطلٌ عن العمل، وحائرٌ بما يُشغل أصابعه العشر.

ورأينا كيف حرص على نفي كلّ فضلٍ له في ما تحقّق بواسطته. ولطالما شبّه الذين عزوا إليه فضل ازدهار *البيت الصغير* ، بالذين يدّعون قدرة إنسانٍ على إثمار الكرمة، وإنضاج عنبها، وصبّ الحلاوة في الثمار، وطلاء الوردة بألوانها، وتفجير الشذا منها، معلنًا: "هذا البيت لا يعيش ولا ينمو إلاّ بفضل عجائب مستمرّةٍ".

وبفضل عمق تواضعه تغلّب، دائمًا على كلّ شعورٍ بالتعالي على فقراء الروح، وواهني العقل، ولم يتحرّج من اللعب معهم، وكان يقول عنهم: إنّهم جواهر *البيت الصغير* ، ونحن غير جديرين بهذه الهدايا التي يمنّ بها علينا الربّ. وعلينا أن نستحقّ شرف خدمتهم.

وما انفكّ يردّد القول: "سأصبر إذا وقعتْ على عاتقي تبعات فشلٍ. ولكنّي أخشى أن يُهين أيّ إنسانٍ الله بسبب عجزي عن غوثه. هذا هو مبعث عذابي، ولست أخشى أيّ شيءٍ آخر".

وقد ساعده تواضعه على ممارسة فضيلة الوداعة، ممارسةً أحلّته في قلوب الناس، واستمطرت على مشاريعه بركات الله. فكان قاسيًا على ذاته، وصارمًا في احترام المبادئ، صبورًا إذا أرشد راهباته، وقلّما رفع صوته. فقد كان يرشدهنّ، مستخدمًا عباراتٍ مثل:

"إذا سمحتنّ، أسألكنّ ألاّ تسلكنَ على هذا النحو..." أو "لو كنتُ مكـانكنّ، لسلكتُ على هذا النحو..."

ولم يعرف الحقدُ، يومًا، سبيلاً إلى نفسه، بل، عملاً بتعليم يسوع، كان يحـبّ أعداءه، ويبارك لاعنيه، ويحسن إلى مبغضيه والمسيئين إليه. وكان ينتقم من أعدائه ومناوئيه بخدمتهم، وتنفيذ رغباتهم، بطيبة خاطرٍ.

ولم يكن يطيق أن يُهان أحدٌ أو أن تطاله نميمةٌ. فقد جاءه أخٌ برسالةٍ كان قـد ملأ سطورها نميمةً عن راهبةٍ. وبادره الأب بالسؤال: "ما الجميل في هذه الرسالة؟" فأجاب الأخ: "بل هي فضائح اقترفتها الأُخت...". وللحال، مزّق الأب الرسالة، رافضًا تصفّحها، وصارح الأخ: "يا أخي، أنت لا تصلح للإقامة في *البيت الصغير*، ولا يصلح *البيت الصغير* لك. وإنّي أمهلك ساعتين كي تغادر هذا المكان. وحينئذٍ دبّجْ رسائل كما يحلو لك. ولكن هنا لا أطيـق وجـود وُشـاةٍ، وإذا وُجِـدوا، فسأطردهم".

وربّما كان لدى الأب آراءٌ في السياسة، ولكنّه لم يُبدِ، قطّ، ميلاً إلى أحدٍ دون آخر. ومع أنّ صداقته للملك كانت عَلنيّةً، وأنّ معظم الوزراء كانوا يحترمونه، ولا يردّون له مطلبًا، فهو، جريًا على خطى مثاله الأعلى القدّيس ڤنسان دي پول، لم يُعلن انحيازه لأيّ جانب. فأثّر على الجميع واحترمه الجميع. ولطالما نصح أعوانه: "السياسة ليست شأننا. فلنصلِّ كي يبارك الله الملك وحكومته، ولندعهم يعملون..."

وأثبت الأب أنّ الوداعة هي خصلة أقوياء النفوس.

وقد اقترنت وداعته بالعطف. وقد امتاز جوزيف، منذ صغره، بعطفٍ فطريٍّ، فكان يجود على أترابه بمدّخراته، ويقتسم معهم زاده. وما انفكّ هذا العطف يتنامى مع تنامي الفتى قامةً وحكمةً، حتّى غدا تعاطفه هوًى لا يُقاوَم.

وعندما كان ما زال إكليريكيًّا يتأهّب للكهنوت بشّره ذووه، ذات سـنةٍ، أنّ

الموسم وفيرٌ، فتوثّب فرحًا، لأنّ ذلك يتيح لذويه السخاء في إغاثة المحرومين. مؤكّدًا لهم أنّ الله لم يبارك موسمهم إلاّ لكي يوسعوا العطاء. فالله هو النبع وهم القناة. فحين تكون القناة ضيّقةً تكون المياه العابرة فيها ضحلةً، ولكنّه إذا اتّسعت فسيُفيض الله فيها نِعَمَه.

وتعاظم سخاء الأب حتّى بات يجود بثيابه، وبغلالاته، وبأغطية سريره، وحتّى غدا يستعطي ويستدين أفضل الأطعمة، كي يُسعِد بها الفقراء، ولكي يكون لهم طعامٌ طازجٌ، كلّ يومٍ، فهم سادة البيت، يستحقّون الأفضل.

لقد جعله حبّه للفقراء عبدًا خاضعًا لهم، وفسّر هذا الخضوع بقوله: "الفقراء هم أيتام الله وممثّلوه. ومن يبتغِ إرضاء الربّ يعلم ما ينبغي فعله، وما يطلبه يسوع منه. وفي واقع الأمر، نحن جميعنا فقراؤه".

في كلّ فقيرٍ كان يرى شخص يسوع، فأحبّه، واقعيًّا، لا حبًّا عقليًّا، نظريًّا، وأجلّه مثل إجلاله ليسوع ذاته، فبلغ قمّة كمال المحبّة والعطف.

وقد خلا عطفه من كلّ تفرقةٍ بين جنسٍ وآخر، ولغةٍ وأُخرى، أو بين لونٍ ولونٍ.

ولم يقصر عطفه على الأجساد التي عالجها، وأطعمها، وأراحها، بل عطف أيضًا على النفوس، وكان لها أبًا. وكان قد اعتاد التعليق على صفحة الإنجيل، كلّ يوم أحدٍ. وذات يومٍ، نصحه أخوه الكاهن بتكليف آخرين بالوعظ، فأجابه: "قد يعظ آخرون خيرًا منّي، ولكنّ الأبناء يؤثرون تناول الخبز الذي يقطّعه لهم أبوهم، وكان يستشفّ، أثناء وعظه، ما تعانيه بعض الراهبات من همومٍ ضميريّةٍ، فيرشدهنّ إلى ما يتعيّن عليهنّ فعله، ويردّ على تساؤلاتهنّ، ويهدّئ روعهنّ، وفيما كان وعظه موجّهًا لجميعهنّ، كانت المعنيّات يشعرن أنّه يخاطبهنّ شخصيًّا.

وما *البيت الصغير* إلاّ ثمرة عطفه المتفاني.

وبالإجمال حقّق الأب كُتُّلِنْغو ما قاله اللاهوتيّ "غوارديني" في العطف: "إذا كان العدل ضمانًا للنظام، فالعطف خلاّقٌ. العدل ينظّم ما هو موجود، والعطف يصنع جديدًا. العدل يُمتع العقل برؤية النظام سائدًا، والعطف يفجّر فرحَ ولادة حياةٍ، ويرتقي بالمرء فوق السلوك الأحمق، والوبيل إلى قمّةٍ شامخةٍ، وضّاءةٍ، حرَّةٍ".

وقد أعدّه التواضع لممارسة الطاعة ممارسةً بطوليّةً. فرفع شعار الرسول بولس: "وضع نفسه، وصار طائعًا حتّى الموت، موت الصليب" (فيل: ٢/٨).

ربّما كان من شأن آخرين مكافأة تضحياتهم بدغدغة أناهم في رؤية مئات الرؤوس مطأطئةً أمامهم، خاضعةً لسلطتهم، منفّذةً أوامرهم. ولكنّ هذه المشاعر لم تلامس نفسه قطّ، بل كان، هو، يخضع طوعًا، لأوامر رؤسائه، ويستجيب لرغباتهم المحقّة. ولطالما انحنى، صامتًا، أمام تأنيب رئيسه في جمعيّة "جسد الربّ" وإذلاله بحضور رفاقه.

أثناء تأهّبه للكهنوت كان يردّد قول: "سأمضي إلى حيث يريد رؤسائي إرسالي، ولستُ أرغب في شيءٍ لنفسي، ولست أبتغي سوى إرضاء الله".

وبُعَيْد سيامته الكهنوتيّة راودته الرغبة في الانضمام إلى الأوراتوار، والانقطاع لحياة صلاةٍ وتأمّلٍ. غير أنّ مرشده الروحيّ، الأب "فونتانا" ثناه عن هذه الرغبة، فتحطّم قلبه، وتبدّدت أحلامه، ولكنّه أطاع، ونهج الدرب الذي وجّهته إليه المشيئة الإلهيّة، من خلال مرشده المذكور، الذي بيّن له أنّ الله يريد انصرافه إلى خدمته في أجساد أبنائه المتألّمين، وفي نفوسهم، فأطاع. وكافأ الله طاعته بما فاق كلّ تخيّلٍ وحلمٍ. ولأنّه أطاع أضحى رئيسًا مطاعًا باحترامٍ وحبٍّ.

ومع نزعاته التجديديّة، خضع، دائمًا، للكنيسة، والتزم بالتعليم المسيحيّ الذي أقرّته الكنيسة، وناشد، باطّرادٍ، مساعديه: "تيقّنوا أنّ الطاعة هي التي ستخلّصنا".

خضع، بتواضعٍ، لأُسقفه، وخضع خضوع تلميذٍ لنصائح مرشده الروحيّ،

الأب "فونتانا"، ثمّ خضع للمرشد الذي عيّنه له الأب "فونتانا" قُبَيْل وفاته. المدعوّ الأب "جيرو"، مع تباينهما، إلى أبعد مدًى، في الطباع. فهو كان حادًّا، مندفعًا، فيما كان مرشده الجديد ممعنًا في التأنّي والجمود، وقياس كلّ حركةٍ بمقياسٍ محكم الدقّة، لا يتخطّى الخطّ المرسوم، قيْد شعرةٍ.

فعلى سبيل المثال، كان يأمره بالمجيء للاعتراف في ساعةٍ محدّدةٍ، من يومٍ معيّنٍ. وإذا اتّفق أن تأخّر حضور الأب بضع ثوانٍ، أو دقائق – وكان ذلك يحدث غالبًا لأنّ ساعة الأب "جيرو" كانت تسبق كلّ ساعات العالم بخمس دقائق – فكان حينئذٍ يقول له: "سأغضّ النظر، اليوم، ولكن تعلّم أن تكون أكثر دقّةً في التزام الموعد!". وكان، أحيانًا، يردّه بحجة إهماله الدقّة، ويحدّد له موعدًا آخر.

وكان الأب كُتُّلِنْغو قد اعتاد سماع اعترافات جميع الراهبات الـڤنسانيّات. ولكنّه فاجأهنّ، يومًا، بقوله: "لن أستطيع، بعد اليوم، سماع اعترافاتكنّ، فقد منعني الأب "جيرو"، الذي ارتأى من غير اللائق أن يستمع رئيس *البيت الصغير* إلى اعترافات راهباته. واحتجّت الراهبات مؤكّداتٍ أنّهنّ يثقنَ به دون سواه. ولكنّه أجابهنّ: "ومع ذلك، لا يريد الأب "جيرو" أن أعرّفكنّ. وعليّ أن أخضع لمن هو لي بمثابة "حنانيا". (حنانيا هو الذي عمّد الرسول بولس في دمشق، وهداه إلى حقيقة يسوع، فالتزم الرسول بها)

ولم يكتفِ الأب بالخضوع لمرشديه ورؤسائه. فذات يومٍ، كان آتيًا بعددٍ من راهباته من محلّة "أنديزّانو"، حيث كان عليهنّ تولّي التدريس. وكانت الرعيّة تحتفل، يومذاك، بعيد القدّيسة كاترينا شفيعة الفتيات. وكان إكليرس المدينة قد قرّر دعوة الأب إلى إلقاء عظةٍ تكريميّةٍ لتلك القدّيسة، ولم يكن للأب علمٌ بهذا القرار. ومذ دخل إلى الكنيسة دعاه خادم الرعيّة إلى السكرستيّا، وطلب منه وضع البطرشيل في عنقه، وإلقاء عظةٍ تقريظيّةٍ للقدّيسة، واعتذر الأب بشدّةٍ. وكان خادم الرعيّة أشدّ إلحاحًا في طلبه، وظلّ الأب أشدّ إصرارًا على الرفض. وحسمًا

للخلاف قال له خادم الرعيّة: "إلقِ، إذن، العظة التي تريد!". فسأله الأب: "هـل تأمرني بذلك؟"، وتردّد خادم الرعيّة في الإجابة، احترامًا للأب كُتُّلِنْغو، الذي كرّر سؤاله: "هل تأمرني؟"، وحينئذٍ لكيلا يستطيع الأب الرفض، أجابه: "أجل آمرك!". فاعتلى قدّيسنا المنبر، وارتجل عظةً رائعةً.

ومن المحقّق أنّ العفّة كانت إحدى كبريات فضائل قدّيسنا. فقد أجمع الـذين عايشوه عن كثب أنّه حمل إلى لحده نقاء عماده، وأنّه كان منـزّها مـن سـطوة الشهوات الجسديّة، وأنّ كلّ ما فيه كان يوحي بالعفّة والنقاء. وقد اعترف هـو نفسه، بأنّه لم يتعرّض لتجارب منافيةٍ للطهر. واعترفت إحدى أقـدم الراهبـات الـڤنسانيّات أنّ عفّته، وثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة يمكن اعتبارهما علامته المميّزة.

ولا ريب أنّ حبّه، منذ صباه، للسيّدة العذراء، واستغراقه الدائم في الصـلاة، وكبحه الصارم لجسده، قد صانت فيه فضيلة العفّة، وأكسبته طهرًا صافيًا من كلّ عكرٍ، أهّله ليكون حامي العذارى وأبا الفقراء، في آنٍ معًا.

كان شديد الصرامة في ما يتعلّق بطهر القلب، والفكر، والجسد، ودائم اليقظة في تحاشيه عن كلّ ما قد يوقظ فكرةً عكرةً، أو يوحي ميلاً ملوّثًا بالفسق. وصونًا لعفّته، كان ساهرًا بيقظةٍ على نقاء علاقاته بالآخرين. فكان يحجم عن محادثة الراهبـات أو نزلاء البيت إلاّ في الأماكن المفتوحة للجميع، وكان حديثه، دائمًا، موجزًا. وإذا رغب أحدٌ في محادثته على انفرادٍ، كان يؤثر متابعة حديثه معه علنًا، أمام الجميع.

وكان يحذّر الراهبات من الاقتراب منه أو من لمسه، ويمنعهنّ من الإشادة به. وحظر عليهنّ الدخول إلى غرفته عندما يكون فيها وحيدًا، وكان يستقبلهنّ عند باب غرفته، وسط حركة المارّة. وإذا تعيّن على راهبةٍ العمل داخل غرفته، كان يطلب منها انتظار خروجه قبل دخولها.

واتّفق أنّ راهبةً حديثةً ودّت التحدّث إليه، وشاهدته يصعد سلّمًا، فلحقت به مسرعةً، ووضعت يدها على كتفه، بغية استيقافه، فتجهّم، وقال لها بلهجةٍ حادّةٍ: "لولا معرفتي بطيبتك، وبساطة قلبك، لطردتك في الحال. فتذكّري لمرّةٍ، ولكلّ مرّةٍ، أنّي لا أُطيق أن يلمسني أحدٌ".

وقرعت راهبةٌ باب حجرته، وطلبت الدخول للتحدّث عن شؤون العمل، فأمرها، بجفوةٍ، أن تبقى عند الباب. ولّما شهد استهجانها لموقفه، حاول تخفيف وقع قسوة لهجته، قائلاً: "لقد أخافني طول قامتك".

هذه المواقف لقّنت الراهبات الإحجام عن أيّ مظهر أُلفةٍ مع أبيهنّ.

ومثلما حظر على أيٍّ كان أن يمسّه، امتنع عن جسّ نبض أيٍّ كان، وقاوم بحزمٍ ميله الفطريّ إلى إظهار المودّة، حسّيًّا، وحرص على خلوّ محادثته مع الراهبات من كلّ لفظةٍ تعبّر عن مودّةٍ شخصيّةٍ.

قد يبدو موقفه هذا مضحكًا لمجتمعنا الذي أفلت من كلّ قيدٍ وتحرُّزٍ، وأمسى تبادل المكرّسين والمكرّسات القبلات مع الجميع أمرًا عاديًّا، "حضاريًّا". أمّا هو فكان يدرك كم سهلٌ أن تجرّ هذه المبادلات إلى انزلاقاتٍ وبيلةٍ. وقد صارح أخاه الراهب، في هذا الشأن: "لن ندرك أبدًا، كم يجب أن نحذر من ذواتنا".

ولا ريب أنّ استغراقه في الصلاة، وتغذّيه الدائم بالإفخارستيّا، كانا له حصنًا منيعًا وقى عفّته من كلّ زلّةٍ أو عكَرٍ.

لقد تغذّى، كلّ حياته، بالصلاة التي اعتبرها حجر زاوية كلّ بناءٍ، وعليها أسّس

أُسَرَ *البيت الصغير* الروحيّة. والصلاة هي حقّقت المعجزات التي واكبت نشأة *البيت الصغير* ونموّه. ولم تكن صلوات *البيت الصغير* طلبًا للخبز ولمقوّمات العيش، بل كانت تمجيدًا لله، وتعظيمًا له، والتماس تحقيق ملكوته على الأرض. وهي لم تُفرَض فرضاً، بل تغلغلت بتؤدةٍ إلى النفوس وغيّرها. وهذا ما باح به مريضٌ للاهوتيٍّ، إذ قال له: "لقد مررت بمستشفياتٍ أُخرى، حيث رفضتُ، دائمًا، تلقّي الأسرار. أمّا هنا، فالصلاة تُتلى بصوتٍ عالٍ في القاعات. ولا أُخفي أنّني، في البدء، وجدت تكرار "السلام عليك يا مريم"، مملاً. ولكنّ الصلاة تغلغلت إلى داخلي، شيئًا فشيئًا، والآن أنا أتلوها بفرحٍ. وها قد اعتدتُ الاعتراف والمناولة، رغبةً منّي في أن تكون علاقتي بالله طيّبةً. ليس فعل الصلاة خارجيًّا، فالصلاة تعمل من الداخل، ولا تحدث ارتدادات مباغتةً، بل هي تحدث عودةً إلى الله وئيدةً وواعيةً".

ومع أنّ الأب كُتُّلِنْغو أنفق ساعاتٍ طويلةً في الصلاة، فقد امتلأت حياته بالإنجازات المذهلة، التي حملت بصمة العناية الإلهيّة.

ولم يدعُ الأب راهباته، ونزلاء البيت إلى الصلاة المستمرّة إلاّ لأنّه كان قد خبر آثارها المعجزة على حياته. ففي عزلة محرابها، كان يستمدّ كلّ مقوّمات القداسة، ويُحرز كلّ فضائلها، وفي قلعتها كان يصون عفّته وطهره.

كان رجل صلاةٍ، والصلاة جعلته رجل عملٍ. وبالصلاة غدا إيمانه الكثيف جمًّا، وأصبح لهيب محبّته أتّونًا متّقدًا، وبها أنكر ذاته، وروّض جسده، وأكمل تجرّده، ورذل أناه، كي يصبح مسكنًا لله. وبات بوسعه القول مع الرسول بولس: "لست أنا حيًّا، بعدُ، بل هو المسيح حيٌّ فيّ".

ومن أمتن الدعائم التي أسند عليها طُهره وعفّته، كان إقباله الدائب على الإفخارستيّا. فقد كان القربان المقدّس هو غذاءه السماويّ، وقوام حياته الروحيّة، أكثر ممّا كان الطعام قوامَ حياته الجسديّة. وقد أقام ترابطًا وثيقًا بين الغذاء السماويّ،

وتوفّر الغذاء المادّي لـ *البيت الصغير* ، ولطالما حذّر مساعديه ونزلاءه، قائلاً: "عندما تبقى كؤوس القربان ملأى، تفرغ أكياسنا، وكلّما فرغت كؤوس القربان امتلأت أكياسنا". ولم يكن هذا الشعار مجرّد نظريّةٍ ذهنيّةٍ، بل كان واقعًا، أثبتت التجربة اليوميّة صحّته. وقد قاده هذا اليقين إلى تعميم المناولة اليوميّة التي لم تكن آنذاك مألوفةً. واضطرّته هذه المبادرة إلى خوض مجابهةٍ شرسةٍ مع الذين لم يتحرّروا بعدُ من آثار "الجنسينيّة". وقد ناضل ببسالةٍ في سبيل تعميم هذه الممارسة التي كان يرى فيها منبع قوّةٍ للنفوس الضعيفة، ومصدر مناعةٍ للنفوس القويّة الطاهرة، يساعدها على الثبات في طهرها. وما زال يحاور ويجادل حتّى أقنع كهنةً مقاومين منح المناولة اليوميّة لراهباته، بحججٍ لاهوتيّةٍ يتعذّر دحضها، داعمًا حججه بقوله لهم: "ألا ترونَ خيرًا في أن يقيم ربّنا فينا، وأن نقيم نحن باستمرارٍ فيه؟".

وقد سبق الأبُ، في هذا المضمار، البابا القدّيس بيّوس العاشر، الذي سمح، بعد سبعين سنةً، منح المناولة، لأطفال، منذ بلوغهم سنّ السابعة.

كانت السعادة تغمر نفسه كلّما احتفل بمنح المناولة الأُولى لأطفالٍ، وتبلغ سعادته ذروتها عند احتفاله بمنح الصمّ والبكم هذه المناولة، موقنًا أنّ تحرّر هؤلاء الأبرياء من الضوضاء والثرثرة يساعدهم على تركيزٍ أعمق، واستيعابٍ أوسع لعظمة السرّ الذي ينعمون به.

بقوى الإفخارستيّا، إذن، تمكّن الأب من صون طهر نفسه وعفّته، ومن مواصلة مسيرته البطوليّة نحو القداسة. وبدعمها، أيضًا، اقتاد خرافه على دروب الكمال المسيحيّ.

وعلى غرار القدّيس توما الأكوينيّ، كان يفزع إلى الهيكل، ويركع أمام مخبأ القربان، ملتمسًا أنواره كلّما واجهته معضلةٌ عويصة الحلّ. وتعبيرًا عن إجلاله لهذا السرّ الفائق كان يستغرق في الصلاة والخشوع قبل إقامته القدّاس، ولا يقوى على حبس دموعه، وهو يكسر جسد الربّ.

وتكريمًا لهذا السرّ، أولى اهتمامًا خاصًّا للاحتفال بعيد الجسد، وحرص على أن تنظّم كلّ أُسرةٍ من أُسَر *البيت الصغير* طقوس عبادةٍ مستمرّةٍ للقربان المقدّس. وكان يرى في هذه الطقوس الحدّ الأدنى من واجب كلّ مسيحيٍّ بالتعويض عن شعور المخلّص بتخلّي تلاميذه عنه، وهو في غمرة نزاعه الروحيّ في بستان الزيتون.

ومع دعم الإفخارستيّا الفائق استعان قدّيسنا بمؤازرة أُمّ المعونة التي واكبت كلّ مسيرته منذ نعومة أظفاره. وكانت له الأُمّ والدليل، والحارس، والحامية، والقدوة المثلى، وصانت عفّته، ومكّنته من اكتساب أسمى الفضائل. وهو كان قد اعتاد، منذ صغره، جمع أفراد أُسرته، والعديد من جيران أهله، من أجل تلاوة المسبحة الورديّة معًا. وإكرامًا للأُمّ العذراء عزف عن شرب الخمرة، وبدعمها حصل على دكتورا في اللاهوت، وفي مزارها – مزار سيّدة العزاء – كان يُلقي بهمومه وهواجسه بين يديها الحانيتَيْن، ومنها كان يستمدّ العزيمة والثبات، والتقدّم على جادّة القداسة. وطالما التقى في ذلك المزار قدّيسين معاصرين له، كان أبرزهم القدّيسان جان بوسكو، وجوزيف كافاسّو، وقد جمع ثلاثتهم حبٌّ مضطرمٌ للأُمّ السماويّة.

وفي ذلك المزار كانت تُلمَس، لمس اليد، حرارة إيمانه، ونار محبّته للعذراء، وإصراره على التمثّل بطهارتها الدائمة.

وقد ورّث الأبُ هذا الحبّ لبناته الـڤنسانيّات، اللائي ما انفكّ يؤكّد لهنّ أنّ مريم العذراء هي الخليقة التي آثرها الله بأعظم حبٍّ. وقد رسّخ في يقينهنّ أنّ تكريم الابن، يتجلّى، أبهى تجلٍّ، في تكريم أُمّه. ولطالما كرّر على مسامعهنّ: "من يجرؤ على ادّعاء أنّنا لسنا سعداء بأن تكون لنا أُمٌّ على هذا القدر من العطف. إنّها هي التي يجب أن نحبّها أعظم حبٍّ، بعد الله. إنّها أُمّي وأُمّكنّ، وأُمّ البشر أجمعين. ليتكنّ تدركنَ كم السيّدة العذراء عطوفٌ، وجديرةٌ بالحبّ. فهي أعطتنا يسوع، وبواسطتها ننال النعم".

لقد وضع الأب جميع أُسَر *البيت الصغير* تحت رعاية أُمّ المشورة الصالحة، والمعونة الدائمة، وأُمّ جميع الفضائل والصفات السامية: تماثيلها وإيقوناتها حاضرةٌ في كلّ ممرّات وزوايا *البيت الصغير*، وأمامها تُضاء الشموع والمصابيح، وتنير تمثالها الذي يرحّب بكلّ داخلٍ، فتضيء العذراء درب الجميع.

وقد لقّن الأب جميع أهل البيت لازمةً يردّدونها بلا هوادةٍ، وتقول: "يا مريم العذراء القدّيسة، اجعلينا قدّيسين!". ويتّضح لزائر البيت أنّ تماثيل السيّدة العذراء المنتشرة في كلّ أرجائه، ليست مجرّد زينةٍ، بل هي تعبيرٌ صادقٌ عن تكريم سكّان البيت، العميق والصادق، لأُمّ الله.

الشيء الثمين الوحيد الذي زيّن حجرة الأب كان مصباحًا فضّيًّا يضيء ويكرّم إيقونة العذراء، التي كان هو يركع أمامها عند دخوله وخروجه، وإذا كان عليه أن يغيب طويلاً كان يكلّف كناريّيه بالإنشاد لها.

ولكأنّه كان ينفّذ نصائح القدّيس "لويس ماري دي مونفور" (Louis-Marie de Monfort)، قبل إعلانها: "اعمل كلّ شيءٍ بمريم، ومع مريم، وفي مريم، ومن أجل مريم، كي يكون العمل كاملاً بيسوع، ومع يسوع، وفي يسوع، ومن أجل يسوع".

وما انفكّ الأب كُتُّلِنْغو، حتّى نفَسه الأخير، يعبّر عن توقه الحارق إلى التقاء أُمّه السماويّة، لقاءً أبديًّا.

وبالإجمال، رأى الأب كُتُّلِنْغو في الإنجيل دليل حياةٍ يوميّةٍ بمتناول الجميع. وآمن أنّه يكفي كلّ إنسانٍ اتّباعُ الإنجيل حرفيًّا، كي ينال كلّ ما يحتاج إليه، وكي يظفر بالحياة الأبديّة. وخير مصداقٍ لهذا الإيمان هو *البيت الصغير*، الذي نبت، ونما متحدّيًا كلّ منطقٍ بشريٍّ. ولئن أدهش نموُّه الذين لا يسترشدون إلاّ بالعقل والمنطق، إلاّ أنّ الأب رأى في هذا النموّ نتيجةً طبيعيّةً لمبدأٍ إلهيٍّ، ولكان دهش لو لم يتحقّق ما تحقّق، على نحو ما تحقّق.

ومن المؤكّد أنّ قداسة الأب كُتُّلِنْغو كانت ثمرة عيشه الإنجيل عيشًا كاملاً، منــزّهًا من كلّ تفسيرٍ اعتباطيٍّ، وكلّ ترويضٍ يلطّف عنفه، وتزويقٍ يحلّي حدّة مقتضياته.

ومع أنّ معجزة *البيت الصغير* كانت خير شاهدٍ على قداسة الأب، غير أنّ الأب ما انفكّ يؤكّد: "أريد أن أصير قدّيسًا، وما زلت سيّئًا. ومع ذلك أريد أن أُصبح قدّيسًا. وبمعونة الله سيتحقّق ذلك". ولم يكفّ، يومًا، عن التماس هذه النعمة من الأُمّ السماويّة".

وهل كان بإمكان عطف الربّ وأُمّه الإغضاء عن هذا الطلب؟

لقد أشاد الربّ بالعين البسيطة، فهي تشاهد الحقيقة وتشهد لها. وهذا ما حدث يوم أحدٍ، كان يُحتفَل فيه بعيد العنصرة. ووعظ الأب كُتُّلِنْغو في دير الشفاعيّات واشتركت معهنّ في الاحتفال راهبات الرأفة. وكانت إحداهنّ مغرقةً في البساطة والبراءة، وقد أخذت بها الدهشة، طوال عظة الأب. وبعد القدّاس باحت، أمام الجميع: "يا أبتِ، رأيتُ حمامةً بيضاء ترفّ فوق رأسك، ورأيتُ محيّاك يتألّق نورًا". فاحمرّ وجه الأب خجلاً، وأمرها، حازمًا، بالصمت. ولكنّ الراهبة، مع بساطتها وخَفَرها، لم تستطع إلاّ أن تؤكّد: "بلى، يا أبتِ، رأيت الحمامة البيضاء، لمّا جثمت على رأسك، مشعّةً نورًا".

ملامح وخِصَـــالٌ

لسوء طالعنا أنّ التصوير الفوتوغرافيّ كان ما زال بدائيًّا في زمن القدّيس كُتُّلِنْغو، فلم نحظَ بصورةٍ تُظهر دقائق ملامح وجهه. والصورة الوحيدة التي رسمها له شقيقه الرسّام "أُغستينو" افتقرت إلى الدقّة لأنّ محبّة الرسّام، فيها، قد طغت على الأمانة الفنّيّة.

بيد أنّ شهادات حفنةٍ من الأشخاص الذين عايشوا القدّيس، عن كثبٍ، أجمعت على الأوصاف التالية:

متوسّط القامة، متناسق الأعضاء، مهيب المنظر. تنير محيّاه عينان متألّقتان تشعّان ذكاءً، ورقّةً، وطيبةً، وظرفًا، ومرحًا يقنّع جدًّا عميقًا. ويظلّل عينيه حاجبان مقوّسان كستنائيًّا اللون. وجهه مستديرٌ يقطر طيبةً، يتوسّطه ثغرٌ دائم الابتسام، يعلو ذقنًا عريضةً منتهيةً بغمّازةٍ فسيحةٍ. ولون بشرته مزيجٌ من بياضٍ وقرمزيٍّ، ويداه صغيرتان بلون العاج.

وهناك من وصفوه، بعد تقدّمه في السنّ، ورأوا فيه وجهًا مسطّحًا، بارز العظام، وفمًا عريضًا، بشفاهٍ رقيقةٍ، وعينين غامرتَيْن، قصيرتَي الرموش، وقد غزت التجاعيد وجهه وجبينه، وحفرت ثلومًا بين حاجبيه، وغضونًا على جانبي شفتيه، ورسمت على كلّ محيّاه آثار الجهد والتضحيات. ولولا تعابيره الجذّابة، لبدا وجهه سوقيًّا.

غير أنّ نورًا فاتنًا كان ينبعث من خلال خصاله الإنسانيّة المتميّزة بالبساطة، والطيبة، والمرح، والتسامح، ومن خلال مرآة نفسٍ نحتها إزميل النعمة والقداسة.

فمنذ صباه وسمت البساطة كلّ مناحي حياته، فنأى، فطريًّا، عن كلّ مظاهر العظمة والتباهي، وعن كلّ لقبٍ يوحي بالرفعة. وقد زاده تواضعه توغّلاً في البساطة، والامّحاء، ونأيًا عن الأنظار. غير أنّ معجزة *البيت الصغير* الذي نما نموًّا مذهلاً، في خلال سنواتٍ معدوداتٍ، وعلى شكلٍ غير مألوفٍ، دفعت نحوه، من كلّ صوب، مواكب الفضوليّين والمعجبين، الراغبين في معرفته والتواصل معه، فخيّب توقّعات الكثيرين، الذين كادوا لا يصدّقون أنّ ذلك الكاهن الذي طبّقت شهرته الآفاق هو هو الذي يحاور العاملين والموظّفين بعفويّةٍ وبساطةٍ، ويلعب في الباحة مع أولادٍ ذوي احتياجاتٍ خاصّةٍ، أو معتوهين أو معاقين عقليًّا، ويروي لهم قصصًا مضحكةً. وإذا قيل لهم إنّ هذا هو مؤسّس *البيت الصغير* الجسيم، لظنّوا هذا القول مزاحًا. أمّا أصحاب النظرة الثاقبة فكانوا يُقرّون تلقائيًّا: "هذا قدّيسٌ لا لَبْسَ فيه".

وبذلك أثبت الأب كُتُّلِنْغو أنّ البساطة هي أبرز صفات العظمة الحقيقيّة. فمع عظمة إنجازاته، واتّساع شهرته، خلا سلوكه من كلّ أمارات العظمة المتعالية الزائفة، وكلّ وقارٍ مصطنعٍ، مثلما خلا من كلّ ازدواجيّةٍ، قولاً وفعلاً، سواءٌ في تعامله مع أصغر الفقراء أو مع الرؤساء والملوك، فكان نَعَمْه يعني دائمًا نعَمْ، ولاه، لا. وقد انحنى، طوعًا، على آلام الضعفاء، وواهني الأذهان، والمهمّشين فحادثهم، وعالجهم، وداعبهم، وأتاح لهم أن يحدّثوه، وكأنّه واحدٌ منهم. ولكنّه ظلّ شامخ الهامة أمام الحكّام والملوك.

وقد حرص على أن تكون البساطة هي سمة *البيت الصغير* وعلامته المميِّزة. ولطالما أسمع راهباته: "إنّه خيرٌ لمن لا يقوى على ممارسة البساطة ألاّ يقيم معنا". وحدّد معيار الحكم على المبتدئات بقوله: "إذا كنّ بسيطاتٍ ومطيعاتٍ، فسيؤدّينَ خيرًا لذواتهنّ وللآخرين، لأنّ الربّ يحبّ البسطاء. وإذا خلونَ من البساطة فلا جدوى منهنّ، لا لذواتهنّ ولا للآخرين".

وكان الأب يمقت كلّ مظاهر مداهنة الرؤساء، والإسراف في إبـــداء مظـــاهر الاحترام. فإذا لحظ راهبةً دائبةً على لفت أنظار رئيستها إليها، والاستحواذ علـــى حظوتها، كان يسارع إلى نقلها إلى مركزٍ آخر، أو يكلّفها بالعمـــل في مستشـــفًى خارج تورينو.

ومثلما كان، هو، صادقًا مع الآخرين، لم يخامره شكٌّ في صدق الآخرين، ونصح راهباته بالإحجام عن مساومة الباعة، وعن بخسهم حقّهم، لأنّه كان يرى فيهم مسيحيّين صالحين.

ولم يتزلّف إلى الزعماء، قطّ، بل إنّه، في مناسباتٍ عديدةٍ، اعتذر عن تقبّل زيارة الملك، حرصًا على منع تنافس الرعاية البشريّة ورعاية العناية الإلهيّة، ولكنّه رحّب بابني الملك الصغيرَيْن، بمناسبة عيد الميلاد، وأمسك بأيديهما، وطاف معهما على مختلف أُسَر *البيت الصغير*، وأراهما مغارات الميلاد التي أعدّها المرضى و"الأولاد الطّيّبون" بأيديهم، وفسّر لهم لوحاتها، التي لم يشهدا لها مثيلاً من قبل، وانتهى المشوار في الإسطبل، حيث سعد الطفلان برؤية حمارٍ وعجولٍ صغيرةٍ حقيقيّةٍ. وقبل عودتهما إلى القصر قال لهما: "اشكرا عنّي والدكما، وقولا له إنّه رجلٌ طيّبٌ".

وذات يومٍ، جاد عليه الملك بهبةٍ سخيّةٍ، فأطلق صيحةً دوّت في أرجاء القصر، هاتفًا: "الحمد لله، الشكر لله، يا للعناية الإلهيّة! يا للعناية الإلهيّة!". وأقبل، عفويًّا، على تقبيل الملك، وكأنّه يقبّل أخًا، قائلاً: "يا لك من ملكٍ طيّبٍ. كرّر فعلتك هذه، بين حينٍ وآخر، فهي تسعدني جدًّا".

وكانت مركيزة "بارولو"، التي اشتهرت بدعمها أعمـــال الخـــير، وســـاندت مشاريع القدّيس "دون بوسكو"، مساندةً جوهريّةً، قد قدّمت، أحيانًا، مساعداتٍ سخيّةً لـ*البيت الصغير*، متوقّعةً كلمة شكرٍ من القدّيس كُتُّلِنْغو. ولكنّه كان يقـــول لها مازحًا: "سيّدتي المركيزة، من المعروف أنّك لا تساوين كثيرًا، ومع ذلك، فبابنا

مفتوحٌ لك دائمًا". وكانت المركيزة تتقبّل مزاحه، راضيةً، لأنّه صادرٌ عن قـدّيسٍ صادقٍ، ونقيّ القلب.

وكان أحد عظماء المملكة قد بعث إلى الأب، مع أحد خدّامه، برسالة حافلةٍ بتقريظ أفضال *البيت الصغير*، وبتفخيم مؤسّسه، وأوصى فيها بفتاةٍ. فأعطى الأب الرسالة للخادم، قائلاً: "اقرأها لي، ريثما أهتدي إلى جوابٍ عليها". ولّما فرغ الخادم من تلاوة الرسالة، قال له الأب: "بلّغ سيّدك أنّنا سنستقبل الفتاة، حتّى إذا كانت لا تساوي شيئًا، أمّا باقي الرسالة فكلامٌ فارغٌ".

ربّما لم يكن قدّيسنا لامع الذكاء، ولكنّه كان سديد الحكم، بسيط المنطق، ويمكن القول فيه ما قيل في نابوليون: "يكمن سرّ عبقريّته في تحويل كلّ شيءٍ إلى مبادئ بسيطةٍ".

وهو قد جسّد قول شفيعه القدّيس ڤنسان دي پول: "إنّ العامل ببساطةٍ يتفوّق، دائمًا، على المُخادِع". ولطالما كرّر قول: "ينبغي أن يتّسم عملنا بالبساطة، وحريٌّ بمن لا يمارس هذه البساطة ألاّ يعمل معنا".

وسبق أن أشرنا إلى تخلّيه، منذ سنوات كهنوته الأولى، عن أساليب الوعظ المنمّق الحافل بالاستشهادات اللاتينيّة التي تنمّ عن سعة العلم، وعن البلاغة المصطنعة، وتبنّيه الكلام البسيط الذي تدركه العامّة وتتأثّر به. وقد أثبتت صوابَ نهجه هذا نتائجُ وعظه الذي خالف فيه التقليد السائد، ونصائح المتحذلقين. ومع ذلك تنـزّهت بساطته من كلّ سوقيّةٍ.

وبالإجمال، استخدم الأب دپلوم الدكتورا الذي حصل عليه، الاستخدام الصحيح، أي التعليم، واختار تعليم الكتاب الوحيد الذي ملأ عقله وقلبه: "الإنجيل". وأوعز إلى معاونيه أن يكتفوا بتفسير الإنجيل، وتنفيذ تعاليمه، والدعوة إلى العمل بمحتواها.

وفي ميدان الإدارة، تمثّل بشفيعه القدّيس ڤنسان دي پول، الذي اتّخذ، في البدء، موقف الوقار والتحفّظ حيال مرؤوسيه. ولكن، عندما تبيّن أنّ هذا الموقف لا يليق برئيس جمعيّةٍ، تحوّل إلى موقفٍ أفرغ على وقاره مسحةً أبويّةً، أكسبته احترام مرؤوسيه ومحبّتهم.

اصطبغت بساطة القدّيس كُتُّلِنْغو بالثقة والسذاجة، وهما مفتاح الطفولة الروحيّة، ويتحاشى عنهما "الأذكياء"، خشية أن يظهروا بمظهر الحمقى.

واقترنت بساطة الأب بالتواضع، وقد أوردنا أمثلةً عديدةً على فضيلته هذه.

ومن خصال قدّيسنا سهره على لجم سورات غضبه، وتجنّب تحطيم أيّ شخصٍ مقاومٍ له. ومن المحقّق أنّ الالتزام بالهدوء ليس، دائمًا، أمرًا سهلاً، ولكنّه واجبٌ على كلّ مسؤولٍ عن مؤسّسةٍ كبرى، لأنّ السيطرة على الذات، والاحتفاظ بالهدوء والسكينة، هما شرط الحكم بذهنٍ ساجٍ، صافٍ.

ولكم قضّت همومٌ مضجع الأب، وكم انهالت عليه إهاناتٌ وضرباتٌ، ولكن نادرًا ما أفلت من يده قياد ذاته. وكان، دائمًا، يسارع إلى الاعتذار ممّن ساوره شكٌّ بأنّه أساء إليه. وقد وَقَتْه سيطرته المحكمة على مشاعره من كلّ لهجةٍ قاسيةٍ، أو موقفٍ متعالٍ.

وعملاً بالقول المأثور: "بئس القدّيس الحزين!"، واكب المرح معظم تحرّكاته وأقواله. مثال ذلك أنّ كاهنًا صديقًا له قد زاره، فوجده مرتديًا معطفًا رماديًّا غير لائقٍ، لأنّه كان قد أهدى معطفه الأسود لفقيرٍ. ولّما عاد الكاهن الصديق إلى رعيّته أرسل له معطفًا من قماشٍ فاخرٍ، ولكنّه قصيرٌ، ارتداه، وخرج به إلى فناء البيت

متباهيًا به، معترفًا بقصر قياسه، ولكنّه برّر قِصَره بأنّه يتيح له الجري والقفز، بلا عائقٍ، مردّدًا قول: "الشكر لله".

وذات يومٍ، كان يُلبس فتاةً الثوب الرهبانيّ، ولكنّها كانت ما برحت حائرةً في أمرها. وكان الأب يعلم أنّ حيرتها ناجمةٌ عن وساوس باطلةٍ، فأعطاها الثوب، وأنزل، بمرشّة الماء المقدّس ضربةً خفيفةً على رأسها، قائلاً: "أبارك هذا الثوب، وهذا الرأس!". وفي الحال تبدّدت وساوسها وأوهامها.

كان فرحه ترياقًا لسمّ كآبة الآخرين، وعلاجًا لنفوسهم. وعلى غرار القدّيس أنطونيُس، كان الفرح والسلام اللذان تطفح بهما نفسه، يتجلّيان على جبينه، ويتألّقان في حديثه. براءة سيرته، ومحبّته، وعطفه على جميع المتألّمين، كانت كلّها تشعّ على محيّاه، ومن أقواله البسيطة الموجزة، وتشيع السلام والعزاء.

وقد شهد أخوه الكاهن أنّه كلّما زار ذويه في مسقط رأسه، كان يبثّ فرحه في نفوس جميع من يرونه ويسمعونه. فتنافست أُسَر القرية على دعوته إلى منازلها، استمتاعًا بحضوره. وحيثما حلّ كان يُحلّ السلام والطمأنينة.

وقد أقرّت راهباته: "كنّا نخرج من غرفته دائمًا، ساكنات النفوس مطمئنّاتٍ".

وكان حسبه التلفّظ ببضع كلماتٍ كي يزرع الهدوء والسكينة، حتّى في القلوب الكسيرة، ويشفي النفوس المحاصرة بالوساوس.

وكان مرحه يحمله، أحيانًا، على استخدام تعابير تفاجئ مستمعيه، وتوقعهم في الحيرة، لأنّ حرفيّتها كانت تناقض المعاني السامية التي يقصدها تناقضًا جوهريًّا. فهو على سبيل المثال، كان ينعت الانغماس في التأمّل والعبادة سُكرًا، فيُثير استنكار واستهجان من لم يُدركوا مقصده الحقيقيّ. وقد جاءته، يومًا، فتاةٌ نبيلة المحتد، طالبةً الانضمام إلى راهباته، فبادرها بالقول: "إنّ لقبولنا شروطًا خاصّةً.

فعلى راهباتنا أن يعتدْن النهوض عند الساعة الثانية، ليلاً، والاغتسال، والذهاب إلى حانةٍ من أجل احتساء كأس نبيذٍ. هذا ما أفعله، أنا نفسي، فالنبيذ هو الذي يدعم قواي. وهكذا تفعل الراهبات، وجميع نزلاء هذا البيت". فاستنكرت الفتاة قوله هذا، لأنّها لم تدرك ما كان يقصده من احتساء النبيذ، واعترضت: "إنّ كهنتنا هم أسلم سلوكًا من كهنة تورينو، ولا يرتادون حتّى المقاهي. ولستُ أدري ما سيكون موقف والدي، إذا علم بشروطكم وعاداتكم!". غير أنّها لمّا فهمت أنّ قول الأب كان مجرّد مزاحٍ، وأنّ النبيذ الذي كان يعنيه هو الاستغراق في الصلاة، والانتشاء بها، سكن روعها، وانضمّت إلى الـــڤنسانيّات.

مرحه الطاغي الملازم له جعل جميع نزلاء *البيت الصغير*، يتوقون إلى زياراته، ويتمتّعون بوجوده. ومع ذلك لامه الكلفون بالمظاهر المصطنعة، وخشوا أن يُفقده مرحُه هيبتَه. ولكنّه ظلّ متمسّكًا بمثال القدّيس ڤنسان دي پول، الذي بعد حرصه على مظاهر الوقار، اختار أن يكون عفويًّا وأبويًّا.

ولا شكّ أنّ احتفاظه بالبسمة قد اقتضى منه قدرًا وافيًا من السيطرة على الذات، أحيانًا. فذات يومٍ، كانت راهبات الزيارة قد طلبنَ منه سماع اعترافاتهنّ، وحدّد لهنّ موعدًا، ولكنّه تأخّر في المجيء، ونفد صبرهنّ وهنّ ينتظرنَ حضوره. ولّما وصل انفجرت رئيسة الراهبات، وصبّت عليه غيظها وعتابها القاسي، أمام الجميع. ولكنّها سرعان ما ندمت، وأعلنت اعتذارها، فقال لها: "أدركتِ، إذن، أنّك أسأتِ السلوك. حسنٌ، وآمل ألاّ تخطأي ثانيةً". ثمّ انتحى بها وقال: "أعترف أنّني أخطأتُ. ولكنّك أخطأتِ بمعاتبتي أمام جميع الفتيات. لا شكّ أنّني أستحقّ اللوم، بل أكثر منه، أحيانًا". وطُوي الأمر بسلامٍ وهدوءٍ.

وقد اقترنت بسمته ودعاباته، دائمًا، بحرصه اليقظ على تفادي جرح شعور أيّ إنسانٍ. وغالبًا، ما كان، بكلمةٍ مرحةٍ، أو بفكاهةٍ عذبةٍ يطفئ نيران غضبٍ،

ويواسي أحزانًا هاصرةً. فذات يومٍ زاره محسنٌ، رازحًا تحت وقر أسًى ساحقٍ، سبّبته وفاة شقيقته الغالية. وجهد الأب في تعزيته بأرقّ العبارات، ولكنّه لم يفلح في زحزحة الغمّ عن صدره، ولا في كفكفة دموعه. وحينئذٍ أوحى له عطفه حيلةً هجينةً، ولكنّها أثبتت براعتها، فتجرّأ وقال لصديقه المفجوع: "لست أذكر أنّني رقصتُ معك، يومًا. فلنقفز، معًا، أربع قفزاتٍ، إذا شئت". ولم يستطع الرجل إلاّ أن يلبّي رغبة الكاهن القدّيس، فرقصا، معًا، في فناء البيت، وجفّت دموع الرجل.

ومع كلّ مرح الأب، لم تهادنه أسباب الحزن، ولا سيّما في أيّامه الأخيرة، حين حصد وباء التيفوئيد، كاهنًا من أقدم رفاقه، وكاهنًا آخر شابًّا، كان قد سيم حديثًا، وشمّاسَيْن، وتسعةً وثلاثين شابًّا مقعَدًا من أُسرةٍ مؤلّفةٍ من خمسةٍ أربعين فردًا. وكان الأب أنكليزيو، مساعده الأوّل، الذي كان يُعدّه لخلافته، يتأرجح بين الحياة والموت، من جرّاء إصابته بالوباء. وكان كهنةٌ آخرون يقاسمون المصير عينه. وفوق كّل هذه المنغّصات سرت شائعةٌ، نُسِبت، افتئاتًا، إلى القصر، ادّعت أنّ تفشّي التيفوئيد في *البيت الصغير* ناجمٌ عن تناول خبزٍ معجونٍ بدقيقٍ مخلوطٍ بِجِبْسٍ. واكتفى الأب بالقول للراهبة التي بلّغته هذه الشائعة، وهو محدّقٌ إلى صورةٍ للعذراء حاملةً طفلها الإلهيّ:

« انظري، يا ابنتي، هذين القدّيسيْن، اللذين عانيا أكثر منّا بلا قياسٍ!"

وبغتةً أشرق محيّاه وأعلن: "الآن أُدرك أنّ مؤسّستنا هي صنع الله"، وأخذ يتوثّب فرحًا، وعيناه شاخصتان إلى السماء. وأردف قائلاً: "ألم يقل يسوع لتلاميذه الأحد عشر، ليلة آلامه: "قلت لكم هذا، لكي يكون فرحي فيكم، ويكون فرحكم كاملاً"؟

وفي غمرة هذه الأحزان والمكدّرات، ظلّ الأب باشّ الأسارير. ولم يكن مرحه الظاهر دليل تفاؤلٍ ساذجٍ أو لامبالاةٍ. بل كان إيمانًا بأنّ الله مرحٌ، ومقاومةٌ لروح

الكآبة، السائد في عصره، كنسيًّا، بتأثير رواسب "الجنسينيّة"، وعلمانيًّا، بتأثير التوق إلى العهد الرومنسيّ.

لقد احتفظ، دائمًا، ببشاشته، ومرحه، ومزاحه، وتوثّبه، وإزرائه بمظاهر الوقار والجدّ المصطنعَيْن. وحتّى اليوم، ما زال زائر *البيت الصغير* يدهش من البسمة التي تنير محيّا راهباتٍ قنسانيّاتٍ (أو كُتُّلِنْغويّاتٍ) يقضين عمرهنّ وسط أشدّ مظاهر البؤس، والفظاعة، وكلّ ما يوحي بالتمزّق والنفور.

هذا الفرح الداخليّ لا يتجلّى، فقط، على الراهبات خادمات البائسين، بل يشعّ على وجوه البائسين أنفسهم، الذين أنعش نفوسَهم الشعور بأنّ ثمّة من يهتمّ بشأنهم ويحبّهم.

وللقدّيس كُتُّلِنْغو في هذا السياق، أقوالٌ رائعةٌ:

- **"الحياة الحزينة إهانةٌ لله".**
- **"إنّكنّ تخدمنَ يسوع في الفقراء، والمرضى، والصغار. فكنّ، دائمًا، فرحاتٍ لكيلا تظهرنَ وكأنّكنّ تخدمنَ يسوع مُكرهاتٍ".**

ولم يكن الأب يتحرّج من اختلاق "مقالب" يورّط بها أصدقاءه لصالح *البيت الصغير*. وقد أضفى مرحه على سلوكه وأحاديثه نكهةً مستساغةً، ولطالما غفرت محبّته إساءاتٍ بليغةً!

فذات يومٍ، أصرّ عليلٌ كان قد أمضى وقتًا طويلاً في *البيت الصغير*، على استعادة حياته الخاصّة المستقلّة، وألحّ في طلب العودة إلى بيته. وبذل الأب أقصى جهوده في سبيل إقناعه بالعزوف عن هذه الرغبة الرعناء. فردّ عليه الرجل بالشتيمة والإهانة، وانصرف غاضبًا مزمجرًا. غير أنّه ما إن وصل إلى بيته حتّى استيقظ وعيه، وأرهقه التساؤل عن كيف سيمكنه العيش بوسائله الخاصّة،

المعدومة. وفي مساء ذلك اليوم عينه، قرع باب *البيت الصغير*، ورحّب به الأب بذراعيه الحانيتَيْن، وبقلبٍ يخفق حبًّا وصفحًا.

وكان الأب، لّما ابتاع معظم البيوت والأراضي التي أقام عليها مجمّع *البيت الصغير*، قد اصطدم بعناد مالكٍ رفض بيعه بيته الواقع وسط ذلك المجمّع. ولم يكتفِ بهذا الرفض، بل دأب على تحدّي الأب، والاستهزاء به، واستفزازه كلّما التقى به. ولحظ هذه الاستفزازات الراهب ألبيرتو، شقيق الأب جوزيف، حتى ضاق ذرعًا باستمرارها، فأهاب بأخيه الأكبر أن يضع حدًّا لهذه المهزلة الوقحة. ولكنّ قدّيسنا ذكّره بنصيحة الرسول بولس الداعية إلى مواجهة الشرّ بالخير، وظلّ يردّ على تحدّيات الجار بتحيّات مودّةٍ، رافعًا له قبّعته، احترامًا. وانفجر الشقيق الراهب غيظًا، وعاتب أخاه القدّيس بقسوةٍ: "كم أنت مسرفٌ في اللطف! أنا أفهم أن يحبّ المرء جميع الناس، ولكنّي لا أتقبّل رفع القبّعة احترامًا لمثل هذا الوغد الوقح. ألا ترى أنّه يهزأ بك، ويستفزّك، ولا يردّ لك، أبدًا، التحيّة؟" فقال له الأب جوزيف: "ومع ذلك، سأظلّ أُحبّه، وأُحيّيه، وأرفع له قبّعتي". وانتهى الأمر بترويض الجار الوقح، وبتحويله إلى صديقٍ.

كم كان قدّيسنا بارعًا في الانتقام بالحبّ!

وقد حقّق قول كتاب الاقتداء بالمسيح: "يعلو المرء فوق الأرض مستعينًا بجناحين: البساطة والطهر".

كرامَـاتٌ

أعلن يسوع، في الصوفانيّة، يوم ١٩٨٦/١١/٢٦: "من نظرَ إليّ أرسمُ صورتي فيه".

والقدّيس كُتُّلِنْغو قضى حياته محدّقًا إلى يسوع، في أحبّته المتــألّمين، وفي مخبــأ القربان، فلم يقتصر يسوع على رسم صورته فيه، من خلال الفضائل السامية التي أشادت صرح قداسته، بل أسبغ عليه قسطًا ضئيلاً من قدراته الإلهيّة، مثل قــراءة كمائن الصدور، واستكشاف الغيب، ورؤية ما لا تراه العيون البشريّة.

وقد سبق لنا أن ألمحنا إلى قدرة قدّيسنا على كشف خفايا النفوس وكأنّه يقرأ في كتابٍ مفتوحٍ، حتّى ساورت بعض من كشف أسرارهم ريبةٌ في أن يكون أصدقاء لهم قد وشوا بهم. ولكنّ هذه الريبة لم تستطع ملامسة أذهان الــذين صــارحهم بأسرارهم التي لم يكن بوسع أحدٍ الإلمام بها. مثال ذلك أنّ راهبــةً اعترفــت لــه بهفواتها، ولّما همّت بالنهوض، سألها عن سبب كتمها هفوةً كانت قــد ســجّلتها، ولكنّها أهملت ذكرها، وهي ليست بذات بال، ولكنّها لا تليق براهبةٍ، وكانت قد عبرت بخاطرها عبورًا، ولم يكن بوسع أحدٍ الاطّلاع عليها.

وذات صباحٍ التقى راهبةً في *البيت الصغير*، فسألها هل تناولت، فأجابته نفيًا، مبرّرةً إهمالها المناولة بعدم اعترافها الذي برّرته بكونها اعترفت في اليوم السابق. ولكنّه ذكّرها بالسبب الفعليّ، وبما جال في خاطرها في ساعةٍ محدّدةٍ من ذلك الصباح، وحال دون إقدامها على المناولة. وحينئذٍ أدركت أنّها أمام قدّيسٍ ينعم بكراماتٍ غير عاديّةٍ. هذا الشعور الذي شاع بين جميع الراهبات حملهنّ على عيش القداسة، وعلى مراقبة أفكارهنّ بيقظةٍ.

ولم يوهب الأب، فقط، القدرة على قراءة خفايا الضمائر، بل وُهِب، أيضًا، رؤية ما يحدث بعيدًا، خلف الجدران. فقد رفض، يومًا، منح المناولة لراهبةٍ مبتدئةٍ،

فعادت إلى مكانها باكيةً، وأشفقت عليها معلّمة الابتداء فجاءت بها إليه، محاولةً تبرئتها، ومشيدةً بورعها. واكتفى الأب بطلبه منها تفتيش جيوب المبتدئة، حيث وجدت فواكه وثمارًا اختلستها من المطبخ، وأُسقط في يد المعلّمة والمبتدئة معًا.

وكانت تخطر للأب رؤًى إنقاذيّةٌ. ففي ساعةٍ متأخّرةٍ من إحدى الليالي، طلب الأب إيقاظ مراقب أمن البيت، وأمره بالجري إلى بيت الصمّاوات والبكماوات، من أجل إنقاذ إحداهنّ كانت قد اهتدت إلى منفذٍ يمكّنها من الفرار، وهي على وشك الغرق في النهر. وانطلق المراقب كالسهم في إثرها، ووجدها وقد وضعت قدمًا في الماء، فأمسك بيدها وانتشلها بقوّةٍ. وكان المكان يبعد نحو مسافة عشر دقائق جريٍ، ويستحيل رؤية ما يجري فيه من حيث كان الأب موجودًا.

وفي ليلةٍ أُخرى استدعى الأب راهبةً، وأمرها باستصحاب أربعة إخوةٍ، والمضيّ، في الحال، إلى "دار الرجاء"، الواقعة خلف الطريق العامّ على مسافة خمس دقائق سيرٍ، حيث كانت تُغسَل بياضات الدار. فالتمست الراهبة بركة الأب، وهرعت، برفقة الإخوة الأربعة، إلى الهدف، حيث كان قد تسلّل ثلاثة لصوصٍ، وانتقوا ما راق لهم، وأعدّوه رزمًا، وكانوا يتأهّبون للهرب بها عندما دوهموا، بغتةً، فتركوا ما أعدّوه أرضًا، وأطلقوا سيقانهم للريح. وكان الإخوة الذين رافقوا الراهبة قد ظنّوا أنّهم يلبّون نداء استغاثةٍ، ولكنّهم لّما تبيّنوا الواقع، ذُهِلوا من قدرة الأب على رؤية لصوصٍ، في ليلٍ دامسٍ، من مسافةٍ شاسعةٍ. وازدادوا يقينًا بقداسته الفائقة.

وذات يومٍ، إذ كان الأب يسير على مهلٍ، خارج البيت، تقدّمته فتاةٌ كانت تسير فرحةً، بخطًى سريعةٍ، حاملةً سلّةً محكمة الإغلاق، فحيّاها، وحذّرها من الوقوع، موصيًا إيّاها بتبيّن مواطئ قدمها. ولكنّها استاءت من تحذيره، اعتدادًا ببراعتها ورشاقتها، وتابعت سيرها السريع غير عابئةٍ بما سمعت. وإذ بها تطّرح أرضًا. وفيما كانت تحاول النهوض وانتشال سلّتها، كان الكاهن قد لحق بها، وقال لها، باسمًا ومواسيًا: "لا بأس، فلم تصابي بأذًى، وانحصرت خسارتك ببيضتين

كُسِرتا. فذُهِلت من صحّة تحذيره، وكانت أشدّ ذهولاً بمعرفته محتوى السلّة، مع إحكام إغلاقها، وبلغ ذهولها ذروته لّما انتهت إلى غايتها، وتبيّنت أنّ وقوعها لم يسبّب إلاّ كسر بيضتين فقط.

ومثلما كان الأب يقرأ أسرار القلوب، وما وراء الحُجُب والجدران، كان يرى المستقبل. فيوم صدر قرار إغلاق مستشفى "القنطرة الحمراء" استشاط رئيس جمعيّته غيظًا، وصبّ عليه جام تأنيبه، فأجاب الأب بهدوءٍ أنّ الربّ أراد إغلاق المستشفى الصغير، بسبب ضيق رقعته، وضآلة استيعابه، وبغيةَ نقله إلى مكانٍ آخر يتيح له نموًّا بلا حدودٍ. وقُبَيْل وفاته قدّم للملك بيانًا يظهر أنّ *البيت الصغير*، وحده، يؤوي ويطعم أكثر من ثمانية آلاف شخصٍ، وأنّ قيمة موجوداته تتخطّى مليون ليرةٍ ذهبيّةٍ، وأنّه ليس مجرّد حقل ملفوفٍ أُعيد غرسُه، كما كان يحلو له أن يصفه.

ولّما قرّر الأب إرسال راهباتٍ إلى مدينة كييري (Chieri)، استدعى راهبتيْن من "غاسّينو"، وقال لإحداهما: "إنّ ذاكرتك متينةٌ، فسأخبرك أمرًا، وبعد أكثر من عشرين سنةً، ستكونين على قيد الحياة، وسترين من هنا إلى بعيد جدًّا، بيوتًا كثيرةً تؤلّف *البيت الصغير*. نحن ما زلنا في بدء رحلتنا، وسينمو عدد الراهبات بحيث لن تتعرّفي، حينذاك، إلاّ عددًا ضئيلاً منهنّ، وستحتاجين إلى دليلٍ، كي تتمكّني من التنقّل بين الأُسَر التي ستملأ المكان، وإلاّ لما استدللتِ إلى طريق الخروج من هذه المتاهة". وتابع الأب تنبّؤاته قائلاً: "وبعد عشرين سنةً من الآن، ستعودين إلى *البيت الصغير*، وستنعمين، مدى خمس سنواتٍ، بصحّةٍ ممتازةٍ، ثمّ يأخذ بك التعب، ويتنامى حتّى تكادي تفقدين البصر، وستعجزين عن أيّ عملٍ. ولكنّ العناية الإلهيّة ستهتمّ بك، وسيكون لك كرسيٌّ تجلسين عليه وتتلين، منه، مسبحتك. وستتناولين خبزًا أبيض. ولكنّك لن تفقدي البصر فقدانًا تامًّا، أبدًا، وفي سنواتك الأخيرة ستتحسّن رؤيتك. والآن تقبّلي بركتي الأخيرة.

وقد تحقّق حرفيًّا كلّ ما توقّعه لها.

وذات يومٍ اشتدّت به الحاجة إلى مالٍ، فقصد رجلاً ثريًّا، ولكنّه كان ضنينًا بماله. فحذّره من أنّ فسحة الوقت المتاحة له للانتفاع من ثروته لن تتخطّى خمسين يومًا. ومنذ ذلك اليوم أمضى الرجل واحدًا وأربعين يومًا، وهو يلعن ذلك الكاهن الذي ألقى الشؤم على حياته. ولكنّ ضميره استيقظ في أيّامه التسعة الأخيرة، فأوصى بألف ليرةٍ ذهبيّةٍ لـ *البيت الصغير*.

ولّما انتقل ذلك الكاهن القدّيس إلى الديار السماويّة، اجتاحت نفوس العديد من أصدقائه، خشيةُ انهيار *البيت الصغير*، تحت وقر ضخامته، وتلال الديون المتراكمة عليه، ونفقاته اليوميّة الباهظة. وشاركهم الملك نفسه هذه الخشية، مع تقديره العميق للأب القدّيس، الذي طالما أكّد، تأكيدًا واثقًا وجليًّا، أنّ حدث *البيت الصغير* هو عمل الله، والله لن يسمح بانهياره. وكان قد باح لإحدى الراهبات: "بعد خمس مئة سنةٍ، سيظلّ العالم يتكلّم عن *البيت الصغير*. والديون الطائلة التي يتحدّث بعضهم عنها الآن، هل هي من أجلي، أم من أجل العناية الإلهيّة، وبضمانتها؟ هذا الشيء الزهيد الذي فعلته، فعلته باسم العناية الإلهيّة، وهي التي ستسدّد الديون، عقب رحيلي، بأكملها، وحتّى الفلس الأخير".

وهذا ما حدث فعلاً.

وللذين استهجنوا كبر الكنيسة التي بناها كان يؤكّد: "بل أنا أراها صغيرةً، ولن يمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن يتحتّم توسيعها". وحينئذٍ، التفت صوب الشرق، وقال: "سنمضي بها شرقًا".

ولّما تبيّنت لخلَفِه ضرورةُ توسيعها، نصحه مهندسون ببناء كنيسةٍ جديدةٍ، في مكانٍ آخر، حيث سيُتاح إخراجها وفق مخطَّطٍ حديثٍ. وشُرع بالعمل وفق هذه المشورة. ولكن ما لبث أن أغرق نهرٌ قريبٌ، المكان الذي أُعدّ لإرساء أساسات البناء الجديد، وتبيّن وجود حفرةٍ عميقةٍ في التربة تحول دون متابعة البناء العتيد. واتّضحت حتميّة توسيع الكنيسة القديمة شرقًا، وتحقيق نبوءة الأب كاملةً، وبدقّةٍ.

وتنبّأ القدّيس، أيضًا، عن الصمّاوات والبكماوات، فقال: "إنّ في *البيت الصغير* صمّاواتٍ وبكماواتٍ، وسيكون لهنّ ديرٌ مزدهرٌ، يمجّد الله تمجيدًا عظيمًا. وقد تحقّقت هذه النبوءة، عام ١٨٤٨، حين أُقيم لهنّ ديرٌ باسم "قلب مريم المقدّس"، وحُدِّدت له مهمّتان: العناية بأغطية الهياكل، وحلى الكنائس، وتقديم الصلوات والتضحيات، وثمار الأعمال الصالحة لقلب مريم الطاهر، من أجل مساعدة المرسلين والمبشّرين، وارتداد الخطأة. وكانت نفوس أولئك الراهبات الزاخرة ورعًا، وغيرةً مقدّسةً، والبراءة المرتسمة على وجوههنّ، وعيونهنّ، والبسمة المزهرة على شفاههنّ، تعلن طهارة قلوبهنّ.

وكانت أيديهنّ الماهرة، تبتدع من القماش، وخيوط الحرير والذهب، تحفًا رائعاتٍ جديرةً بتزيين أكبر الكاتدرائيّات.

ولم يكن الأب يستشفّ الأحداث فحسب، بل كان يقرأ مستقبل النفوس. فقد جاءته فتاتان، وطلبتا الانضمام إلى الـــڤنسانيّات، فأوكلهما إلى راهبةٍ ورعةٍ، ورئيسة ابتداء، خبيرةٍ. وبعد فترةٍ وجيزةٍ. طلبت الفتاتان ارتداء الحجاب الرهبانيّ أُسوةً بالأُخريات، وتخلّصًا من إلحاحهما اليوميّ في هذا الشأن، التمست رئيسة الابتداء من الأب الإذن بالاستجابة لرغبتهما، متوقّعةً أن تسير أمورهما على أحسن حالٍ. ولكن كان للأب رأيٌ مختلفٌ، وقال لها: "هاتان الفتاتان ليستا مدعوّتيْن إلى الحياة الرهبانيّة، ومع ذلك، إرضاءً لهما، لا بأس في أن ترتديا الحجاب، ولا تنسي أنّهما، كلتيهما، ستغادران الدير قريبًا، وستدفع القحة بإحداهما إلى العودة كي ترمي بحجابها في وجهنا". وقبل مضيّ خمسة أشهرٍ، كانتا قد هجرتا الدير، كلتاهما، ثمّ عادت إحداهما، وهي الأشدّ قحةً، ورمت بالحجاب في وجه الأب قائلةً: "إنّي أفضّل قبّعةً".

وعلى نقيض ذلك، جاءت إلى *البيت الصغير* فتاةٌ كان والداها قد أرخيا لها العنان، فواجهت جمًّا من المخاطر، وأوقعت آخرين في مخاطر. وما إن دخلت إلى البيت، حتّى راودها الرغبة في هجره. غير أنّ الأب، مذ شاهدها، قال: "ستنجح نجاحًا باهرًا، وهي معدّةٌ لهذا البيت، وستصبح ركنًا من أركانه". وباح للّذين واكبوا مجيئها: "إذا هي رغبت، باكيةً، في العودة إلى بيتها، فهي حرّةٌ، ولن نكرهها على المكوث هنا. ولكنّي على يقينٍ بأنّ مصيرها هو الحياة الرهبانيّة، لا حياة العالم". وأكّد الأب رأيه هذا لراهبةٍ، فاقتربت من الفتاة، ولاطفتها، ورافقتها إلى الكنيسة، ووعظتها برقّةٍ، وبلّغتها رأي الأب فيها، وأكّدت لها أنّها ستسعد إذا سارت وفق رغبته، لأنّه قدّيسٌ. فسكن روع الفتاة. وحينئذٍ اقتادها الراهبة إلى دير "الراعيات الصغيرات"، وأوصت بها. وبما أنّها برهنت عن استقامة سلوكها، ضمّها الأب إلى مبتدئات "كافّوريتّو". ثمّ التحقت براهبات الشفاعة، حيث تميّزت بفضائلها، وتولّت مهمّة رئيسة ابتداء، ثمّ رئيسةٍ عامّةٍ، على امتداد سنواتٍ طويلةٍ، وخلّفت مُثُل قداسةٍ رائعةٍ. وكانت، أثناء أحاديثها مع أخواتها، تروي لهنّ توقّعات الأب، وتستخلص: "لقد رأى الأب كلّ شيءٍ، بنورٍ سماويٍّ. وما كوني الآن راهبةً، إلاّ بفضله، بعد فضل الله".

وكان المحامي "بياندرا"، الذي أتينا على ذكره، آنفًا، قد رغب في اعتناق الكهنوت، ولكنّ خوفه من أن يتوفّاه الله، قبل ذلك، كان يمسكه عن الإقدام على تحقيق رغبته. فأهاب به الأب أن ينبذ التردّد، مؤكّدًا له: "اطمئنّ، فستمارس الكهنوت مدى أربعين سنةً". وكان، حينئذٍ، في الرابعة والأربعين. وسيم كاهنًا. ولّما بلغ الرابعة والثمانين، اعتلّت صحّته، فأخذت الراهبات يصلّين ملتمساتٍ شفاءه. ولكنّه دعاهنّ إلى الكفّ عن الصلاة من أجل شفائه، لأنّ السماء هي خيرٌ من الأرض، ولا بدّ من أن تتحقّق نبوءة الأب. وكان لا يني يردّد القول، في أيّامه الأخيرة: "إنّ أبهى انتصارات الأب كُتُّلِنْغو، هو أنا".

أشفيةٌ عجيبةٌ

إضافةً إلى الكرامات الاستثنائيّة الفريدة، التي أنعم بها الله على خادمه الأمين، وإكرامًا لثقته المطلقة به، ولقداسته، أجرى الله بواسطته شفاءاتٍ عديدةً معجزةً.

فعام ١٨٣٦، كانت في إحدى قاعات *البيت الصغير* فتاةٌ، في العاشرة من عمرها، مصابةٌ بسرطان في عظم ذراعها اليمنى. وأجمع الأطبّاء الذين اطّلعوا على وضعها، ومنهم الدكتور "غرانيتّي"، وطبيب القصر الملكيّ، وعميد كلّيّة الطبّ في تورينو، على واجب بتر الذراع المصابة، لأنّهم لم يروا سوى البتر علاجًا. ونما الخبر إلى الأب، فعاد الفتاة التي وجدها مفجوعةً، مذعورةً، منتحبةً. وجهد في تهدئة روعها، وقال لها: "اطمئنّي، يا بنيّتي، فأنا أعدك بألاّ تُبتر ذراعك". وباركها ومضى. ولمّا حان موعد العمليّة، تفقّد الدكتور "غرانيتّي" حال الفتاة، فوجدها في حالة اضطرابٍ مقلقةٍ، وقال للراهبة التي رافقته: "سنرجئ العمليّة الجراحيّة إلى الغد. لعلّها تكون قد هدأت". ولكنّ الراهبة اعترضت بجرأةٍ ويقينٍ: "لا، لن تُجرى لها عمليّةٌ، لا اليوم، ولا غدًا، ولا في أيّ يومٍ. فقد وعدها الأب بألاّ تُبتَر ذراعها". وعلّق الدكتور "غرانيتّي"، الذي لم يخامره، قطّ، شكٌّ في كرامات الأب كُتُّلِنْغو: "إذا شُفيت هذه الفتاة، ولم تخضع لجراحةٍ، فسيكون شفاؤها معجزةً باهرةً!". ومنذئذٍ أخذ السرطان يتبدّد، شيئًا فشيئًا، حتّى غادرها، نهائيًّا، وتلاشى، بلا علاجٍ، ولا دواءٍ، وبلا لجوءٍ إلى جراحةٍ كان عمالقة الطبّ في تورينو قد أعلنوا حتميّتها.

وقد جاء، يومًا، شقيق الأب، الرسّام "أُغستينو" إلى مستشفى *البيت الصغير* بطفلته، البالغة ثلاث سنواتٍ، وكانت تعاني مرضًا مستعصيًا، يدفعها إلى بكاءٍ متواصلٍ، آملاً في أن تلقى ابنته في ذلك المستشفى العلاج الشافي.

وفيما كان ثلاثة أطبّاء يتداولون بشأنها، أُودعت الطفلة في غرفة عمّها الكاهن، وهي تصمّ الآذان ببكائها الحادّ المتواصل. وما هي سوى دقائق حتّى صمتت الفتاة، ودعا الأب أخاه إلى أخذ ابنته، لأنّه لا يعرف كيف يداعبها ويسلّيها. وذُهل والدا الطفلة، عندما شاهداها مبتسمةً، هادئةً، مبتهجةً، وفي حالٍ لم يعهدوه منذ وقتٍ طويلٍ. وهي، منذ شاهدتهما، زفّت إليهما البشرى: "ذهب الوجع. فقد شفاني "پـــاپو والعذراء". وأوصاهما الأب بالعناية بها، لأنّها ستصبح راهبةً حبيسةً.

واتّفق أن شاهدت راهبةٌ تدعى "مسّيما"، كاهنًا يرتمي أرضًا من جرّاء نوبة صرعٍ ألّمت به؛ وكان لشدّة تأثير هذا المشهد عليها، أن أُصيبت، هي ذاتهـــا، بالصـــرع، وأحدثت في جمعيّتها، اضطرابًا نفسيًّا ولكنّ الراهبة المعنيّة تحمّلت بصـــبرٍ صـــامتٍ، بطوليٍّ، ولم تُسمع لها، قطّ، شكوى. وزار الأب، ذات يومٍ، الدير الذي كانت تقيم فيه، واستفسر عن حالها، واستدعاها وقال لها: "أعلم أنّك، بين حينٍ وحينٍ، تـــثيرين الاضطراب في نفوس رفيقاتك، فاعلمي أنّني لا أريد حدوث ذلك. فتقبّلي بـــركتي، ولينتهِ كلّ شيءٍ!". وفي الواقع انتهى كلّ شيءٍ. ومنذئذٍ، وعلى امتـــداد الســـنوات العشر التي أمضتها تلك الراهبة في الدير، لم تصبها أيّة نوبة صرعٍ.

وتوالت الشفاءات العجيبة، وتكاثرت بعد وفاة الأب القدّيس بشفاعته.

ولكم تجلّت ألطاف العناية الإلهيّة في *البيت الصغير*، إكرامًا لثقة الأب المطلقة بها.

فذات صباحٍ، لم تجد الأُخت "دومينيك"، المسؤولة عن المائدة، في المطبخ، كسرة خبزٍ، والفتيات الصغيرات جائعاتٌ. فهرعت إلى الأب، وأطلعته على الأمر قائلةً: "ستضطرّ الفتيات إلى الصوم، اليوم، بسبب افتقارنا إلى ما نطعمهنّ". فأجابها: "حسنٌ، ولكن صارحيني هل هنّ غاضباتٌ، وهل يتذمّرن من العناية الإلهيّة؟". فأكّدت أنّهنّ لا يتذمّرن، ولا يتململنَ. ومع ذلك هنّ جائعاتٌ. فطمأنها الأب، قائلاً: "لا تقلقنَ. أوْكِلنَ أمركنَّ إلى العناية الإلهيّة. هي تتكفّل بكنّ. في هذه اللحظة صندوق الحسنات فارغٌ، ومع ذلك، أكرّر القول: سيعمل الربّ". وحينئذٍ انزوى الأب في غرفته، واستغرق في الصلاة. وبعد نصف ساعةٍ تفقّد صندوق الحسنات فوجد فيه ما يعادل ألفي فرنكٍ، فهرع بها إلى المطبخ وأعطاها للأخت دومينيك كي تعدّ طعامًا للفتيات، وقفز قفزتين في الهواء، مثلما كان يفعل كلّما منّت عليه العناية الإلهيّة بنعمةٍ، هاتفًا: "شاهدوا كم العناية الإلهيّة عظيمةٌ!".

وفي مناسبةٍ أُخرى، نقص الخبز، فاستغاث الأب بالعناية الإلهيّة، وأعلن: "ستهبنا العناية الإلهيّة الخبز، فلنجلس إلى المائدة، وجلس الجميع وشرعوا بتلاوة "ارحمنا يا الله"، وقبل فراغهم من هذا الدعاء، دخل رجلان حاملان سلال خبزٍ تكفي البيت لنهارٍ كاملٍ. وهتف الأب "نباركك يا الله".

الكنيسة المركزيّة

المعبد الذي يحتضن مدفن المؤسّس القدّيس

صورة العذراء التي كان القدّيس يصلّي أمامها راكعًا

مدخل جناح سيّدة الحبل بلا دنسٍ
(هذا التمثال هو شبيهٌ بالتمثال الذي يحرس مدفن القدّيسة تيريزا الكلكتّاويّة)

امتيازاتٌ وانخطافاتٌ

فضلاً عن المعجزات التي أكّد بها الله قداسة خادمه الوفيّ، ورضاه عنه، فقد ميّزه بقدراتٍ فريدةٍ، غير مألوفةٍ، مثل تسليطه على الكائنات اللاعاقلة، وعناصر الطبيعة. فقد وَهبَه قدرةً على مخاطبة البهائم، والتفاهم معها، وترويضها وضبط سلوكها، على غرار ما كان يفعل فرنسيس الأسّيزيّ. مثال ذلك أنّ البيت كان يربّي قطيعًا من الإوزّ، وكانت الإوزّات تقصد بركةَ الاستسقاء مرّتين كلّ يومٍ، في موكبٍ لجبٍ، متدافعةً، متزاحمةً، مالئةً الأجواء بزعيقها الحادّ، مشتّتةً تركيز الراهباتِ المتأمِّلات ووَرَع المصلِّين والمصلِّيات.

فجمع الأب الإوزَّاتِ، يومًا، وخاطبها برقّةٍ وبيَّنَ لها الأذى الذي تلحقه بالمصلِّين، وأمَرَها بتنظيم موكبها، فتنطلق اثنتَين اثنتَين، صامتاتٍ، متمهّلاتٍ، وتستقي وتعود مثلما أتَت.

والتزمت الإوزّات بتعليمات الأب، وأمسَى منظر موكبها مدعاةً للتأمّل والإعجاب.

وسنكتفي، في ما يلي، ببعض الأمثلة عن خوارق تمّت بواسطته:

كان الأب خارجًا من كنيسة "جسد الربّ" برفقة اثنين من رفاقه الكهنة، فرأى في ساحة بائعًا حاملاً سلّة كرزٍ، صغيرةً. وطار به خاطره إلى فقرائه الذين ربّما لم يتذوّقوا، قطّ، طعم هذه الفاكهة، فابتاع السلّة، ومضى بها إلى *البيت الصغير*، واستدعى الأولاد والفقراء، وأعطى كلاًّ منهم بضع حبّات كرز. ودهش رفيقاه وهما يراقبان أفواج الأولاد الذين تناولوا كرزًا، في حين ظلّت السلّة مليئةً.

هبّ حريقٌ في دار "الأرسلاويّات"، وامتدّ بسرعةٍ هائلةٍ، حتّى كاد يشبّ بهيكل البناء، وهرع الحرّاس بمضخّات المياه، وحضر الأب. ولكنّه، فيما كان الحشد يتدافع بالمناكب، وكلٌّ يحاول تقديم مساعدةٍ، ظلّ، هادئًا، مطمئنًّا. وبغتةً هتف: "علامَ كلّ هذا الحشد، وعلامَ يجهد كلّ هذا القوم الطيّب في إطفاء النار بالماء؟ إنّ للماء غايةً أُخرى، والنار ستنطفئ تلقائيًّا. وما كاد يتلفّظ بهذا القول حتّى همد اللهب، وسرعان ما انطفأت النار كلّيّةً. ولم يحتج إطفاؤها إلى قطرة ماءٍ.

كلّف الأب ثلاث راهباتٍ، بالمضيّ إلى مدينةٍ إيطاليّةٍ أُخرى من أجل تولّي إدارة مستشفًى فيها. وباركهنّ، وانطلقت بهنّ العربة، ولكنّه ما لبث أن جرى وراءهنّ، وأوقف العربة، وقال للراهبات: "لقد غاب عن بالي إرشادكنّ إلى خريطة سيركنّ. لذلك آمركنّ بشطر رحلتكنّ إلى مرحلتَيْن. المرحلة الأولى تقودكنّ إلى محلّة "كارينيانو"، حيث ستتوقّفنَ، وتنلنَ قسط راحةٍ، وتُرِحْنَ الأحصنة، في نزل شخصٍ طيّبٍ، صديقٍ لي. ثمّ، عند الساعة الرابعة عشرة ستستأنفنَ الرحلة... وإيّاكنّ أن

تنطلقنَ من هناك قبل هذه الساعة... وفي "كارينيانو" كان الطقس جميلاً، والسماء مشرقةً، وغايتهنّ ما زالت بعيدةً، فقالت كبراهنّ: "هناك رفيقاتٌ ينتظرنَنا مشتاقاتٍ، ونحن توّاقاتٌ إلى لقياهنّ، فما بالكنّ أن ننطلق باكرًا، قبل الموعد الذي حدّده الأب، فيزيد فرحنا، وفرح رفيقاتنا؟". وأيّدهما الراهبتان الأُخريان. وما كدْنَ يقطعنَ من الطريق شوطًا قصيرًا، حتّى ازدحمت السماء بالغيوم الدكناء، ودوّت الرعود، وتساقط وابلٌ من البرَد الضخم، الذي حطّم زجاج العربة. وهبّت ريحٌ هوجاء، جفّلت الأحصنة، فثبتت في مكانها، رافضةً التقدّم خطوةً واحدةً. وتورّمت يد إحدى الراهبات، وتمزّق حجاب أُخرى وثوبها، ولحق الأذى بجميعهنّ. ولمّا حانت الساعة الرابعة عشرة التي كان الأب حدّدها لبدء المرحلة الثانية، انجلى الجوّ، وسكنت الريح، واستعادت الأحصنة مسيرتها، وتلقّنت الراهبات درسًا قاسيًا، سرّب إلى وجدانهنّ التصميم على التقيّد بإرشادات الأب بحذافيرها، واليقين بأنّه يرى بالروح ما لا يراه الآخرون بعيونهم.

من امتيازات الأب كُتُلِنْغو أنّه، بقدر ما كان يوسَع إهاناتٍ، ويواجه عقباتٍ، ويتجرّع كؤوس مرارةٍ، كان يوغل في السكون والصلاة والتأمّل. وفي أيّام الأعياد الكنسيّة الكبرى، كان يتألّق فرحًا، ويعلّل فرحه بأنّه أسرف في السُّكر. وسكره كان استغراقه في حبّ الله وفي مناجاته. وهذا السكر الروحيّ كان يفصله عن العالم، ويسمو به عنه. ولقد شهدت راهباتٌ كثيراتٌ أنّهنّ شاهدنَه فوق الأرض، وقد التهب محيّاه، وافترّ ثغره عن بسمةٍ ملائكيّةٍ، وعيناه المتألّقتان شاخصتان إلى السماء.

وشهدت الراهبة المسؤولة عن الاستقبال أنّ قومًا قدموا، بضعة أيّامٍ قبل عيد الصعود، وطلبوا التحدّث إلى الأب. فقرعت بابه ثلاثًا، حسب تعليماته. ولّما لم يُجِبْ، شقّت الباب على مهلٍ، فرأته محلّقًا في جوّ الغرفة، ملتهب الوجه، وعيناه شاخصتان إلى إيقونة السيّدة العذراء. وتسنّى لها أن تنعم، مدى خمس دقائق، بتأمّل مشهدٍ شديد الاختلاف عن مشاهد الأرض. وهي تردّد، في ذاتها: "يا إلهي، أيّ قدّيسٍ قد وهبتنا في شخص أبينا!".

وذات مساءٍ، كان الأب عائدًا من مزار سيّدة العزاء، وحيدًا، وإذ بشرطيّين تطوّعا لمواكبته، ولا سيّما أنّ الطرقات لا تكون آمنةً في مثل هذا الوقت، فرحّب بعرضهما، إذ لم يغرب عن باله أنّ أوغادًا كانوا قد هدّدوه بالانتقام منه بسبب إقامته ديرًا لغانياتٍ سابقاتٍ تائباتٍ. ولّما أصبح على بعد خطواتٍ من *البيت الصغير* شكر للشرطيَّين لطفهما، وما كادا يبتعدان بضع خطواتٍ، حتّى هبّ من حفرةٍ مُعَدّةٍ لإرساء أساسات بناءٍ جديدٍ، مجهولان انقضّا على الأب انقضاض الكواسر. ولولا عودة الشرطيّين السريعة لكانا أجهزا على الأب القدّيس.

ولحظت راهبة الاستقبال اضطراب الأب العائد، وشحوبه، فقدّمت له كوب قهوةٍ. وظلّت، بعد اعتكافه في حجرته، تطلّ بين فينةٍ وفينةٍ، وتتنصّت علّها تسمع حركةً منه أو صوتًا، فتطمئنّ. وبعد محاولاتٍ متعدّدةٍ، وغياب أيّ صوتٍ يشير إلى حياةٍ، استبدّ بها الفضول، فشقّت باب غرفة الأب، وإذ به مستغرقٌ في الصلاة، وذراعاه مبسوطتان على شكل صليبٍ، أمام إيقونة السيّدة العذراء، مرتفعًا عن الأرض، مضطرم المحيّا، فانصرفت فرِحةً. وعادت بعد لحظاتٍ، فوقع بصرها على المشهد عينه.

وبعد أن فرغ الأب من حواره الأخّاذ مع والدة الله، قصد إحـدى قاعـات المستشفى، حيث شارك المرضى تلاوة المسبحة. فلحقت به الراهبة التي شـهدت انخطافه، في غفلةٍ عنه، وتأمّلته طويلاً، ثمّ دنت منه، وقالت:

- "ليتني رأيتُ ما رأيتَه أنت، هذا المساء!". فسألها:
- "ماذا رأيتِ، أيّتها الحمقاء الصغيرة؟"
- "رأيت كيف كنتَ في غرفتكَ".

وسارع الأب إلى وضع حدٍّ لحديثٍ كان يُتعبُه. وحذّرها من الإدلاء بأيّ حرفٍ عمّا شاهدته. ومنعها من محاولة فتح باب غرفته، مستقبلاً، إن لم يدْعُها.

مِحَنٌ، وأسقامٌ، وأحزانٌ، وهجَماتٌ شَيطانيّةٌ

قد يُخيّل إلينا أنّ الربّ يدلّل خادمه الأمين. ولكن، ألم يحذّر الربّ نفسه أنْ ما من حال تلميذٍ خيرٌ من حال معلّمه؟ أوَلَم تعقب الجلجلة التجلّي على طابور؟ والله، مع كلّ ما أغدق على مختاره من نِعَمٍ وامتيازاتٍ، لم يحمِه من مِحنٍ أوهنت جسده، وأوجعت قلبه، ولم يعفِه من الشعور المضني بتخلّيه عنه. ولكنّ الأب كُتُّلِنْغو قد واجه كلّ هذه المِحَن بجرأةٍ بطوليّةٍ، وبإيمانٍ ثابتٍ يليق بتلميذٍ للمسيح.

منذ صغر القدّيس كُتُّلِنْغو، كانت هشاشة صحّته تُقلق والدته، وقد ازدادت هشاشةً من جرّاء جسامة المشاريع التي أقدم عليها، وآتته أتعابًا ومشقّاتٍ، ملأت كلّ دقيقةٍ من حياته. والأكثر مشقّةً هو ما واجهه من معارضاتٍ، وملاماتٍ، واتّهاماتٍ باطلةٍ، واجهه بها أشخاصٌ كان منهم من يفوقه علمًا، ومركزًا، ومقامًا، ومنهم إخوةٌ، وأصدقاء، ظنّهم موالين أوفياء، ولكنّهم لم يملكوا ذرّةً من قداسته، ومن ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة. وحتّى رفاقه في جمعيّة "جسد الربّ" الذين جاهدوا كي يجعلوا منه زميلاً لهم، كانوا دائمي الخوف من أن يورّطهم في مغبّات مغامراته التي أسفرت، في نهاية المطاف، عن دواعي افتخارهم.

ناهيك عن وقر الديون التي لم تستطع لجمه عنها، رغبتُه الضاغطة في إغاثة كلّ بؤسٍ، وفضلاً عن فظاظة فئةٍ من الدائنين، وإهاناتهم، وشكاواهم، بلا هوادةٍ، واتّهامهم إيّاه بالحمق، والادّعاء وجهل الأصول.

بيد أنّ هذه الضربات التي ما انفكّت تنهال عليه كانت أقلّ إيجاعًا من تلك التي أصابت راهباته وإخوته، من جرّاء مواجهتهم الجوائح والأوبئة، بلحمهم الحيّ، فكانت تفتك بهم، مدميةً قلبه في الصميم. ففي شهرٍ واحدٍ فقد اثنتي عشرة راهبةً قُنسانيّةً، وشهد وفاة معاونيه الأساسيّين الذين كان قد بنى عليهم أكثر آماله طموحًا واعتمادًا، الواحد تلو الآخر.

وكم من فواجع جرحت قلبه! فوالدته التي كانت تربطه بها أوثق علاقة محبّةٍ وأنقاها، فارقت الحياة، وهو بعيدٌ عنها. ولم يصل إلى سرير والده المحتضر إلاّ بعد ساعةٍ من وفاته. ولّما أُخطر أنّ الأُمّ أنّا ماريّا نازي تحتضر هرع لوداعها. وما إن أطلّ عليها حتّى لفظت نفَسَها الأخير في كتلة دمٍ. وكانت في الواحدة والأربعين من سنيها.

وأسوةً بالمخلّص، عانى الأب نوبات شعورٍ بتخلّي الله عنه. وفي هذه الأوقات العصيبة كان إبليس ينقضّ عليه بكلّ شراسته، انتقامًا من كلّ أعمال المحبّة التي كان يحقّقها بمعونة العناية الإلهيّة. وقد روت راهباتٌ قائماتٌ على رعايته أنّ الشرّير كان يقذف بثياب الأب من النافذة، أو يخفيها في أمكنةٍ حيث يصعب العثور عليها، كي يعيقه عن القيام بالقدّاس باكرًا، فكان يستدعي من يبحث عنها، ويأتيه بها.

وكان الشرّير يهاجم كلّ أجنحة *البيت الصغير*، ويشيع فيها الصخب، والفوضى، والضوضاء، والرعب. ويُلقي أدوات التقوى أرضًا، ويتنكّر أحيانًا، في زيّ شابٍّ أنيق الهندام، ويحذّره من المضيّ قدُمًا في بناء مؤسّساتٍ مصيرها الخراب، ويحشد جموع دائنين ويحرّضهم على المطالبة الوقحة بديونهم في مواعيد لم يكن بوسع الأب الالتزام بها. وحينئذٍ، كان يعتري نفس الأب ضيقٌ ينبئه بهويّة الزائر الجهنّميّ، الذي يلوذ بالفرار، ولا يرى أحدٌ، في البيت، لا أوان حضوره، ولا أوان فراره.

وفي جميع تلك الأحوال كان الأب يكتفي بعبارة: "من أجل الله". وكانت هذه العبارة تُمدّه بفيضٍ من القوّة والطاقة، بحيث، في غمرة أقسى المِحَن كان يمتلئ ثملاً روحيًّا، وينسى كلّ شيءٍ: والأوجاع الجسديّة، ومضض الروح، ولوعة القلب، وكمد النفس، وتخلّي السماء، وهجمات الجحيم. ويغمره الفرح فيتوثّب. وكان يجهد في بثّ هذا العزاء في نفوس كهنته وإخوته وراهباته، مردّدًا على مسامعهم: "لا تخشوا شيئًا. اكتفوا بمحبّة الربّ. ولا تكتئبوا عندما يتلكّأ الغوث. واذكروا أنّ الربّ يريدنا فرحين، وأنّ فردوسه ينبذ الكآبة. وإن كان علينا أن نعاني، فلنعانِ بسلامٍ، حبًّا بيسوع الذي طالما تألّم من أجلنا". وكان أساس فرحه المتين ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة.

الفصل السادس

القدّيسون، أيضًا، يموتون

« المحبّة هي وسيلة العبور من الموت إلى الحياة »

"الأخت إيمّانويل"

« وحـدَه من أحـبّ، يمـوت إنســـانًا »

"ستان روجييه"

- « كم البون شاسعٌ بين معرفة اللّه ومحبّته »

پـــاسكال

- « هناك سبيلان إلى الوقوع في الخطأ، أحدُهما الإيمانُ بما لا وجودَ له، والآخر هو رفض الإيمان بالواقع الماثل »

كيركيغارد

- « صليبُنا هو الذي يرسم قسمات محيّانا »

فرنسوا مورياك

- « عود الكبريت المضاء في الظلمة لا يضيء حيّزًا صغيرًا فحسب، بل يُظهِر كثافة العتمة المحيقة بنا »

إدغار موران

وداعٌ

يُلاحَظ، غالبًا، أنّ أبا العيلة الكبيرة يهرم باكرًا، تحت عبء همّ توفير أوَد عيش أبنائه، ونفقاهم العديدة المختلفة، وتأمين مستقبلهم.

وكان الأب كُتُّلِنْغو قد رُزِق آلاف الأبناء في غضون سنواتٍ معدوداتٍ، وهبطت على كاهله مهمّة إطعامهم، ومعالجتهم، وتربيتهم، وتقديس نفوسهم. صحيحٌ أنّ العناية الإلهيّة التي أولاها ثقةً مطلقةً لم تضنّ عليه بعونها السخيّ. غير أنّ خشيته من أن يرتكب هو أو أيّ شخصٍ في *البيت الصغير* أخطاءً تجعل العناية الإلهيّة تقبض كفّها إلى حينٍ، كانت تحاصره بلا هوادةٍ. ولذلك كان همّ تزويد أبنائه بكلّ احتياجاهم الجسديّة والروحيّة، وهمّ تجنّب أيّ خطأٍ بحقّ العناية الإلهيّة يلازمانه، ويُلجِئانه إلى التماس عون الأُمّ السماويّة.

ولهذه الغاية عينها، ولكيلا يُحرَم أيٌّ من معاونيه وأبنائه خبزه المادّيّ والروحيّ، كان يُمعن في الأصوام والتقشّفات والإماتات. وكان يستمدّ القوّة من القدّاس اليوميّ الذي كان يُقيمُه بكلّ أوتار قلبه، ويستعدّ له بثلاث ساعات تأمّلٍ، وتخشّعٍ، ثمّ يحتفل به متأثّرًا، مرتجفًا، باكيًا، وينهيه بالغذاء الإلهيّ، منبع كلّ منعةٍ وصمودٍ.

وكانت صلواته تمتدّ إلى ما بعد منتصف الليل، مضحّيًا بفسحات راحةٍ هو في أشدّ حاجةٍ إليها. ومنذ الساعة الرابعة فجرًا يبدأ نهارًا جديدًا من الجهد، والتقشّف، والتضحية، وتقديس الذات. ولطالما انهدّ إرهاقًا، وارتمى على مقعدٍ مردّدًا: "يا إلهي، ليتني أعمل ما يرضيك!".

ومع ذلك، لم يكن يحجم عن أيّ عملٍ وضيعٍ، فهنا يساعد "ولدًا طيّبًا"، واهن العقل، على انتعال أحذيته، وهنا ينظّف زجاج نوافذ، أو يكنّس الأرض، وقواه تتفتّت وتتناثر.

ومنذ عام ١٨٤١ أخذ يبوح للمقرّبين منه: "يراودني شعورٌ غير مألوفٍ يدعوني للرحيل إلى السماء. لقد حان الوقت كيّ أُعدّ حقيبتي، وأمضي إلى بيت أبي..."

لقد جاءه الأجل مستعجلاً، مسرعًا مثل ليل شتاءٍ، وهو في منتصف العقد السادس من عمره. لم يطعن في السنّ، ولكنّ التقشّفات والهموم، والجهود المستمرّة كانت قد امتصّت قواه، وأودت به إلى شيخوخةٍ مبكّرةٍ. ولا ننسينّ آثار الضرب الوحشيّ الذي أنزله به أوغادٌ، انتقامًا من إقامته ديرًا لفتياتٍ كنّ تائهاتٍ، وتبنَ، ضربٍ هدّ جسمه، وخلّف فيه آثارًا لم تّمحِ من بعد، وأحدث في صدره جرحًا التهب وتقيّح، وأهمل هو معالجته.

بعد خمسٍ وخمسين سنةً من الجهد المتواصل، ومن مقارعة المستحيل، ومن التصدّي للمعارضة والمقاومة، ومن معاقرة التضحيات، ومن تحقيق الإنجازات المذهلة، واكبه الشعور بأنّ شوطه على الأرض قارب غايته. وبات يردّد على مسامع أصدقائه أقوالاً مثل: "ما أجمل الموت! أيّها الفردوس ما أروعك!"، "كم أرغب في هجر هذا العالم، والاعتكاف في زاويةٍ ضيّقةٍ، حيث لا يحتلّ فكري سوى الله وحده، ثمّ... ثمّ..."

كان يسمع نداء السماء، ويشعر أنّ روابطه بالأرض تتفكّك عقدةً عقدةً، ويتساءل عمّا يبرّر بقاءه على الأرض. وكانت الغرفة التي حجزها في بيت أخيه الأب لويس في كييري، وزيّنها بلوحات المصلوب، وسيّدة الورديّة، والقدّيس ڤنسان دي پول، والملاك الحارس، والسرير الحديديّ الذي وضعه فيها، منذ نحو اثنتي عشرة سنةً، وزوّده بفراشٍ، وغطاءٍ، ووسادةٍ، ما برحت تنتظر أن يرقد عليها، الرقاد الأخير. تلك الغرفة المستعارة كانت له أرض الميعاد.

وذات مساءٍ، إذ كان يتأمّل السماء المرصّعة بالنجوم هتف: "ما أصغر العالم! لم يعُدْ شيءٌ يربطني به، ولم أعد أجد فيه متعةً. الدنيا بشعةٌ، والجمال في السماء!".

وفي هذه الأثناء زاره كاهنٌ صديقٌ، وأثناء الحديث، أشار الأب بإصبعه إلى

بعيدٍ، قائلاً: "هناك سأرقد رقادي الأبديّ". وظنّ الكاهن الضيف أنّه يشير إلى كاتدرائيّةٍ، في تلك الجهة، تضمّ رفات الملوك. ولكنّ الأب كُتُّلِنْغو أوضح له أنّه لا يشير إلى الكاتدرائيّة، بل إلى أبعد منها، أي إلى مدينة "كييري".

ولاحقًا أسرّ لأخيه الراهب، مشيرًا إلى "كييري": "وراء تلك التلّة، يجب أن أمضي وأريح عظامي". ثمّ أردف: "بعد خمسة عشر يومًا، لن يكون لي وجودٌ على الأرض". ربّما ألهمه هذا القولَ شعورُه بانهيار قواه، ولكن، من المؤكّد أنّ إلهامه كان حدْسًا فائق الطبيعة.

يوم ١٨٤٢/٣/١٩، احتفلت كلّ جماعات *البيت الصغير* بعيد شفيعه، وقدّمت له اليتيمات لوحةً تمثّل رقاد القدّيس يوسف بين يسوع والعذراء مريم، فقال: "هذه اللوحة هي ما يلزمني من أجل حَدَثٍ سيجري في *البيت الصغير* وستفسّره هذه اللوحة".

واستغلّ الأيّام القليلة المتبقّية له على هذا الكوكب من أجل ترسيخ ثقة الجميع بالعناية الإلهيّة، ساهرًا على أن يكون لكلّ أُسرةٍ في *البيت الصغير* كلّ ما يلزمها، وحريصًا على توفير هذه اللوازم بنفسه. وإذا اعترض أحدٌ، رأفةً به، بحجّة أن لا مبرّر للاستعجال، كان يجيب: "بل إنّ العجلة واجبٌ، وإلاّ لفات الأوان".

وأغدق على الجميع حنانه الأبويّ، وودّعهم وهو بكامل وعيه.

وإغراقًا في التجرّد، أبى أن يموت في البيت المعجزة الذي بناه بمعونة العناية الإلهيّة، وأودعه بين يدي خليفته، الأب أنكليزيو، ومات بعيدًا، في بيت أخيه في "كييري".

وكان أخوه الراهب قد جاء من جنوى، في شهر شباط ١٨٤٢، والتمس منه كتاب توصية من الملك بأحد معارفه، فلبّى ملتمسه، ورجاه أن يقضي معه اليوم التالي. ومنذ الصباح، أقام الراهب الذبيحة الإلهيّة، ثمّ قدّم عظاتٍ لجميع أُسَر *البيت الصغير*، وأمضى معهم النهار كلّه. وفي المساء تناول مع أخيه عشاءً قوامه

حساءٌ شفّافٌ. وحينئذٍ، اعترف له الأب أنّ ذلك الحساء هو الطعام الوحيد الذي دخل فاه، في ذلك اليوم. ثمّ أهدى أخاه صُوَرًا تذكاريّةً، وطلب منه أن يركع، فباركه، وقبّله قبلةً أخويّةً، وهو وحده عالمٌ بأنّها قبلة الوداع، القبلة الأخيرة.

هذا التصرّف غير المألوف أثار في ذهن الراهب هواجس وتساؤلاتٍ: فكتب إلى أخيهما الرسّام "أُغستينو"، مستطلعًا رأيه في هذا السلوك، ومتسائلاً هل يعني أنّنا لن نلتقي من بعد؟".

كان، إذّاك، مهدود القوى، كسير القلب، إذ كانت جائحة التيفوئيد قد حصدت أرواح معظم معاونيه، وأبقته هزيلاً، متهاويًا. وأقلقت الحال التي انتهى إليها الدكتور "غرانيتّي" الذي صارحه قائلاً: "حالتك تدعوني إلى نصحك بتلقّي الأسرار الأخيره". فأجابه الأب مازحًا: "لم يحِنِ الأجلُ بعدُ. وإنّ إسكافيًّا مسكينًا مثلي لا يستأهل كلّ هذه العناية منك".

ثمّ خطر له، في ساعةٍ متأخّرةٍ من مساء اليوم التالي، أن يودّع كرمليّاته في "كافوريتّو". ولّما شاهدت الرئيسة شحوبه، ووهنه، اقترحت أن تعطيه كوب قهوةٍ يشدّ قواه، فالتمس أن تُرفق القهوة بكسرة خبزٍ، لأنّه لم يكن قد تناول أيّ طعامٍ في ذلك اليوم. ثمّ قضى ليلته في الدير ساهرًا متخشّعًا أمام القربان المقدّس. وصباحًا أقام القدّاس، وزوّد الراهبات بإرشاداته. وعند رحيله، همس في أذن الأُمّ الرئيسة أنّ زيارته كانت وداعًا.

وزار التائيسيّات، وشجّعهنّ على الثبات في التوبة ومحبّة الله، وقبل مغادرته، رفع يديه إلى السماء، وقال: "إلى اللقاء في الفردوس!".

ثمّ ودّع نسّاك القدّيس "روموالد"، الذي تحلّقوا حول عربته، فأوصاهم بالثبات في دعوتهم، ثمّ همس في أذن كلٍّ منهم كلمةً، وانتهى بقوله: "كنت أودّ المكوث معكم مدّةً طويلةً. ولكن لم يبقَ لي فسحة وقتٍ. فعليّ أن أزور جميع الأُسر، ثمّ

الرحيل بعيدًا. فتقبّلوا بركة شيخٍ عجوزٍ مسكينٍ، للمرّة الأخيرة على هذه الأرض، حيث لن نلتقي، بعدُ".

ثمّ زار المدرسة التي تديرها راهباته الـڤنسانيّات، وأبلغهنّ تشجيعه ومحبّته، وباركهنّ. فقالت إحداهنّ: "أراك متعبًا جدًّا، فدعني أرافقك". فأجابها: "أنا ألفظ أنفاسي الأخيرة. وأخشى، إن كنّا اثنين في العربة ألاّ يكفي الهواء لكلينا. وباركهنّ، وضرب لهنّ موعدًا في الفردوس.

يوم الأحد الذي يلي الفصح، ودّع دير "الشفاعيّات"، وفي عظته أشار إلى نهايته الوشيكة، وطلب الصلاة من أجله، وفي أثناء حديثه معهنّ، شبّه النفس الصاعدة إلى السماء بالعصفور المحرّر من قفصه، المحلّق في أجواء الحرّيّة؛ وبالسمكة التي تكاد تنفق خارج الماء، ولكنّها تنتعش وتستعيد رشاقتها عندما تعود إلى عنصرها الحيويّ. وخلص إلى القول: "إنّ نفسنا السجينة في هذا الإناء الخزفيّ، لا تستطيع الالتحاق بخالقها الذي هي جزءٌ منه، إلاّ بكسر الإناء..." وأنهى بقوله: "مُنيَتي أن أذوب، وأتّحد بالمسيح".

وما إن تعافى الأب أنكليزيو من التيفوئيد حتّى حدّد الأب كُتُّلِنْغو يوم ٢١ نيسان موعدًا لرحيله إلى "كييري"، وإلى السرير الذي ينتظره هناك. وفي ذلك اليوم، احتفل بالقدّاس احتفالاً اتّسم بالمزيد من الورع والتركيز. وحاول إلقاء عظته الأخيرة التي تناولت القدّيس "أنسلم" (Anselme)، الذي اشتهر بتعبّده للسيّدة العذراء. ولكن سرعان ما حاد عن الموضوع، وأضاع سلسلة أفكاره، وراح يردّد: "كم الدنيا بشعةٌ، وكم السماء جميلةٌ!"، طالبًا أن يردّد الحضور معه هذا الهتاف عينه.

فبكى جميع الحاضرين، وقد أدركوا أنّ توقه إلى السماء قد طغى على فكره، وعلى كيانه كلّه. وبعد لحظات استراحةٍ، استدعى أخًا شابًّا، وأوصاه قائلا: "إن لم أعُد غدًا عند الساعة الثامنة صباحًا، فاقرع الجرس الكبير، وبعدما يحتشد الجميع،

قل لهم: كلّفني الأب أن أوصي رؤساء ورئيسات جميع أُسَر البيت، بأن يوعزوا إلى أبنائهم وبناهم تلاوة أبانا والسلام وقانون الإيمان عن نيّته."

وطلب الأب أن يُؤتى بلوحة وفاة القدّيس يوسف التي أهدته إيّاها اليتيمات إلى أمام تمثال السيّدة العذراء، واستغرق في الصلاة. وحينئذٍ انتابه إغماءٌ. فاستُدعي الدكتور "غرانيتّي"، الذي طلب منه التزام الفراش، فرفض قائلاً: "ليس الآن، بل عليّ أن أمضي الآن إلى "كييري"، وهناك سأكون مريضك، وستأمرني بما تشاء".

ثمّ بعد استراحةٍ وجيزةٍ، أُخبر أنّ الراهبات المكلّفات بالتعليم في "كييري"، اللواتي سيرافقنَه إلى هناك، ينتظرنَه في معبد البيت، فحاول النزول إليهنّ، ولكنّ ساقيه عجزتا عن حمله، فتولّى اثنان من الإخوة إنزاله إلى المعبد حيث استغرق في الصلاة. ولّما نهض، ارتجّ، وفقد وعيه، ونصحه الدكتور غرانيتّي بملازمة سريره، فردّ أنّ الوقت لم يحِنْ بعد، فعليه إيصال راهباتٍ إلى "كييري"، وطلب من الطبيب أن يرافقه، وفي "كييري" سيخضع لطبّه. ولكنّه استدرك قائلاً: "لم يعُدْ لطبِّك نفعٌ لي، فأنا مدعوٌّ..." ورفع إصبعه نحو السماء. وريثما تمّت ترتيبات السفر، أنهى بعض أعمالٍ عالقةٍ، وسدّد ديونًا، وأعطى تعليماتٍ، وكلّف الأب أنكليزيو، العائد من نقاهته، بإدارة البيت. ثمّ انحدر نحو العربة مترنّحًا، متهاويًا، ساخرًا من عجزه، قائلاً: "يبدو أنّ الحمار يأبى السير بالحمل، ويطلب الرأفة به. ومع ذلك فلنمضِ".

ولم تسعفه ساقاه المنتفختان في الصعود إلى العربة، فحُمِل إليها حملاً.

وتحلّقت الراهبات حول عربته باكياتٍ. وقالت إحداهنّ: "أراك متعبًا جدًا. فما الذي سيحلّ بنا؟". وبما تبقّى له من قوّةٍ، أجابها: "أجل، لم أعد قادرًا على إفادتكنّ بشيءٍ، في هذه الدنيا. ومع ذلك، فابقينَ في سلامٍ. وأنا منذ وصولي إلى السماء، سيصبح كلّ شيءٍ ممكنًا، وستكبر قدرتي على عونكنّ. وسأواكب كلّ أعمالكنّ، وسأبقى لكنّ الأب. سأتشبّث بمعطف العذراء القدّيسة، وعيناي شاخصتان إليكنّ.

وأنتنّ احفظنَ في قلبكنَّ أقوال هذا الشيخ العجوز المسكين، الأخيرة. الشيء الأخير الذي سأعطيكنّ هو بركتي. فتقبّلنَها، لأنّها الأخيرة على هذه الأرض".

وفيما كانت العربة تتحرّك، ألقى الأب نظرةً وداعيّةً على أبنية *البيت الصغير*، وكانت أقواله الأخيرة تطوف في أذهان الراهبات: "لا تقلقنَ بشأن *البيت الصغير* فهناك من يهتمّ به. وإنّ فيه نفوسًا قدّيسةً، وبسببهنّ سيبارك الله البيت وسيساعده..."

ولّما وصلت العربة إلى "كيبري"، قال الأب للراهبات اللواتي رافقنَه من أجل استلام مهامهنّ في المدرسة: "إذهبنَ أنتنّ، وأنا سأرتاح بضعة أيّامٍ عند أخي". فسألنَه: "وهل تأتي لتزورنا؟". فردّ باسمًا: "إنْ تمكّنت. وكما يشاء الله. الحمد لله".

وفـاة القدّيس

لم يكن الأب لويس عالمًا بمجيء أخيه. ولّما دهش من مدى انهياره، ارتسمت على محيّاه أمارات حزنٍ ساحقٍ، وجهد القدّيس في تهدئة روعه فادّعى أنّ سبب مجيئه هو نفوره من الضجيج المصمّ الذي ملأ أجواء تورينو من جرّاء حدَثيْن: "عرض كفن الربّ المقدّس، وعرس ابن الملك اللذين استقطبا إلى تورينو حشودًا كثيفةً، أشاعت جلبةً لا تُحتمَل، ولا سيّما أنّ غرباء كثرًا استغلّوا هذه السانحة من أجل زيارة *البيت الصغير* الذي طبّقت شهرته الآفاق.

ولكنّ هذا التبرير لم يقنع الأب لويس، فقد كانت حال الأب المحزنة أصدق إنباءً من كلّ تفسيرٍ، وحينئذٍ صارح القدّيس أخاه: "وهل تظنّ أنّ شيئًا يستطيع، بعدُ، شدّي إلى الأرض؟".

كان قد ودّع كلّ شيء، حتّى *البيت الصغير*، وداعًا أبديًّا. وشرع يصلّي: "يا ربّ، إذا أردتني، فأنا بكلّيّتي لك. لم يعد شيءٌ يمسكني على الأرض... أجل، أجل، إنّي بكلّيّتي لك".

وقدّم له أخوه كأس نبيذٍ، لعلّه يشدّد قواه، فتذوّقه، وردّه، قائلاً: "من الأفضل الاستغناء عنه. أعدّ لي غرفتي، وأقم معي بضع دقائق، ثمّ دعني أستسلم للنوم". واستلقى، أخيرًا، على السرير الذي كان ينتظره منذ اثنتي عشرة سنةً.

ولّما استفاق استفهم أخوه عن حاله، فأجاب: "إنّي في أفضل حالٍ، بل أكاد أقول إنّي على أفضل ممّا تمنّيت. ولا بدّ من مصارحتك بأنّي، منذ أربع سنواتٍ، لم أرقد على سريرٍ!".

ثمّ أملى رسالةً إلى *البيت الصغير*، طلب فيها إرسال ما يعادل ثلاثين فرنكًا إلى الفرنسيسكانيّين كي يقيم أحدهم قدّاس يوم الأحد في دير نُسّاكه. وأخبر أخاه أنّه

باقٍ عنده حتّى يوم السبت، ورجاه ألاّ يدع أحدًا يدخل غرفته حتّى ذلك اليـــوم، وأنْ يتولّى أخوه، وحده، خدمته، في هذه الأثناء. على أن يُفتح بابُه، بعد ذلـــك، لكلّ راغبٍ في رؤيته.

وأبدى أخوه الأصغر رغبةً في استدعاء طبيب. ولكنّ الأب القدّيس أصرّ على أن يظلّ الأخوان الكاهنان، وحدهما خلال الأيّام الثلاثة، مستغرقَيْن في الصلاة، والصمت، والتأمّل. وبعدئذٍ إذا شاء أخوه استدعاء طبيبٍ، فليستدعِ الدكتور غرانيتّي، صديقه الوفيّ، طبيب فقراء *البيت الصغير*، لا أيّ طبيبٍ آخر.

بعد مضيّ أيّام العزلة الثلاثة، في حوارٍ حميمٍ مع الربّ، وتأهّبٍ للرحلة الكبرى والأخيرة التي ستمضي به إلى فردوس الأحلام التي طالما داعبها، استقبل القدّيس شقيقه الرسّام "أُغستينو"، وشقيقته تيريزا، والدكتور غرانيتّي. وقد نصحه هذا الأخير بتناول حساءٍ دسمٍ، فرفض مبرّرًا رفضه بقوله إنّ معدته قد لا تحتمله فهو لم يتذوّقه منذ سنواتٍ عديدةٍ. وبعد أن قضى الدكتور يومين إلى جانبه، استأذن بالعودة إلى *البيت الصغير*، فقد يكون هناك مرضى محتاجون إلى عنايته. ولكنّ الأب القدّيس، أمسكه عن ذلك، قائلاً: "تعلم العناية الإلهيّة أنّك معنا. وستهتمّ بكلّ شيءٍ". غير أنّه كلّفه بالكتابة إلى الأب أنكليزيو، موعزًا إليه إخلاء المستشفى من المرضى الذين نالوا شفاءً كاملاً، واستبدالهم بآخرين محتاجين إلى علاجٍ.

طيلة كلّ تلك الساعات الحاسمة، لم تُسمَع من المحتضر شكوى. فلم تعُد حياته الأرضيّة تعني له شيئًا. وقد ذهل عن كلّ ما بناه، وأودعه بين يدي الربّ. غير أنّه لم يذهل، لحظةً، عن العناية الإلهيّة، فبدعمها ومواكبتها، خاض المغامرات وقاسى المحن، وتحقّقت أسنى المعجزات، فما عاد يقوى الإمساك عن الإشادة بها، وشكرها.

في هذه الأثناء كانت وفود المستفسرين عن صحّته لا تنقطع، وكان منهم رسولٌ شخصيٌّ أوفده الملك.

وكانت ساعاته الأخيرة تكرّ مزيجًا من لحظات سباتٍ، ولحظات وعيٍ، يتخلّلها هذيانٌ، يردّد، من خلاله: "الفردوس، الفردوس، أمّي العذراء، أُمّي العذراء!"

كان لقاؤه الوشيك بيسوع وأُمّه يخطفانه من الدنيا، ويسموان به فوق محيطه كلّه. وإذا ألّمت به صحوةٌ، فكان يشرع بترنيم نشيده الخاصّ: "الفردوس، الفردوس!". ويحدّق إلى إيقونة السيّدة العذراء ويناشدها: "ها أنذا قادمٌ إليكِ، فقومي بواجبك! يا مريم أُمّي، يا مريم أُمّي!".

وحينئذٍ، كان صوته الأجشّ يصبح رقيقًا عذبًا، فقد كان حبّه المتّقد يتغلّب على وهن جسده.

وحين كان يلمح من حوله راهباتٍ، كان يبذل بقايا قواه من أجل تذكيرهنّ بالمواضيع التي طالما استفاض في تحديثهنّ عنها: القدّاس، الإفخارستيّا، السيّدة العذراء، الثقة المطلقة بالعناية الإلهيّة.

وحاولت بعضٌ منهنّ إراحته بتعديل وضع رأسه على وسادته. ولّما شعر بمحاولتهنّ، قال لهنّ: "لا تتعبْنَ نفوسكنَّ، فعندما مات يسوع، كان رأسه مستندًا على خشبةٍ، وتألّم أكثر منّي بما لا يُقاس".

صلواته، وأدعيته، ونصائحه الأخيرة كانت تشيع جوّ سلامٍ، وخشوعٍ، وعزاءٍ، وكان معظم الملتفّين من حوله يشعرون بنهاية مغامرة قدّيسٍ على الأرض، وانطفاء شمعة طالما أنارت ظلمات نفوسٍ.

ومع أنّ قلّةً من محبّيه، كانوا ما برحوا يرجون له هدنةً وشفاءً، كان الدكتور غرانيتّي يلمس، لمسَ اليد، تهاطل قواه، قطرةً قطرةً، فهمس في أُذنه: "ألا يحسن أن تنال الأسرار الأخيرة؟" فأجاب: "أجل، أجل، يا طبيبي الحبيب. أريد ذلك بطيبة خاطر! يا للنعمة، يا للرحمة! الفردوس! الفردوس!".

ولّما نال الأسرار هتف: "ما أسعد الموت! يا لعذوبة الانطلاق إلى يسوع وأُمّه!"

ولحظ الدكتور غرانيتّي، الملتصق به، افترار شفتيه عن بسمةٍ ملائكيّةٍ، وانخفاض نبضه، بحيث يكاد يتلاشى، فشرع بتلاوة صلاة المحتضرين، واحتشد الجميع مستطلعين، دهشين، لأنّهم لم يشعروا بأيّ دلالةٍ على هجر روحه لجسده، الذي أرفقه للمرّة الأخيرة، على الأرض، بقول: "يا مريم أُمّي، يا مريم أُمّي!"، ثمّ همس مقطعًا من المزمور ١٢١ يقول: "فرحت نفسي بما قيل لي إنّا ذاهبون إلى مسكن الله". ومنذئذٍ لم يعُدْ يُسمع سوى قول: "لقد مات القدّيس".

توفّي القدّيس "جوزيف بنوا كُتُّلِنْغو"، عند الساعة الثامنة من مساء يوم السبت، المكرّس لتكريم مريم العذراء، من شهر نيسان ١٨٤٢، عشيّة مطلع الشهر المريميّ الذي كان يجلّه الراحل القدّيس، إجلالاً جعله يتمنّى أن يحتفل *البيت الصغير* به في كلّ أشهر السنة، وكأنّ كلاًّ منها شهرٌ مريميٌّ.

موته الساجي لم يُسرّب إلى نفس الشهود المتحلّقين حوله الأسى الثقيل الذي يشيعه فقدان إنسانٍ غالٍ، محطّمًا قلوب محبّيه، بل أشاع في قلوبهم عزاءً لا محدودًا، قائمًا على يقينهم بأنّ فقيدهم انتقل مباشرةً إلى أحضان يسوع وأُمّه، وغاص في لجّة سعادةٍ أبديّةٍ.

وفي سياق دعوى تطويبه، شهدت إحدى رئيسات *البيت الصغير*، أنّ راهبتين جاءتاها ليلة الجمعة السبت، عشيّة وفاة القدّيس، وأخبرتاها أنّهما رأتا كرة نورٍ تطوف فوق سطح البيت، حيث اعتاد القدّيس تلاوة صلواته، وهي تتوهّج تارةً، وتخبو تارةً أخرى. وظنّت الرئيسة أنّ روايتهما لا تعدو عن كونها أضغاث أوهامٍ، ولم تصدّقهما. ولكنّهما أصرّتا على صدق ما رَوَتا، وشدّدتا على دعوتها إلى التيقّن بنفسها، ولبّت رغبتهما، وراقبت حيث كانتا تراقبان، فرأت كرة النور، تتوهّج بألوانٍ متعدّدةٍ تذكّر بألوان قوس قزح، ويتّسع حجمها حتّى يقارب خمسين سنتمترًا، ثم تتقلّص وتكمد ألوانها.

وفي ديرٍ آخر، حيث لم تكن الراهبات على علمٍ باحتضار الأب القدّيس،

انقلعت، تلقائيًّا من جذورها، شجرةُ خوخٍ مثقلةٌ بالزهور، وارتمت إلى الوراء مخالفةً قانون الجاذبيّة، ولم يُدرَك لسقوطها سببٌ، فلا عاصفةٌ، ولا طوفانٌ، ولا ريحٌ شديدةٌ. والمعجز، هو أنّ الشجرة تُركت ملقيّةً على الأرض، وأنّ زهورها عقدت وأثمرت، وكأنّها تأكيد لاستمرار *البيت الصغير*. فقد أنهى العامل عمله اليوميّ، وارتاح، تاركًا لآخرين حفر أثلامٍ جديدةٍ في الحقل الذي أخصبه بعرقه وجهاده.

كانت أسنى تجلّيات القداسة التي واكبت وفاة الأب القدّيس كُتُّلِنْغو قد غمرت بالعزاء نفس الدكتور غرانيتّي. بيد أنّ هذا العزاء لم يقف سدًّا في وجه الأسى الذي انقضّ على قلب من كان له رفيق نضال، منذ اليوم الأوّل، وشريك الإنجازات المذهلة، وقد هاله فقدان إنسانٍ فذٍّ قلّما تجود الدنيا بنظيرٍ له. وكان قد عاد في تلك الليلة عينها إلى تورينو، وقرع باب *البيت الصغير* قرعًا عنيفًا، وهرعت مجموعةٌ من الراهبات لفتح الباب. وكان المرضى قد احتشدوا في فناء البيت، مفجوعين، منتحبين.

وفي الصباح الباكر عاد، أيضًا، الأب أنكليزيو. وأقام القدّاس على نيّة الرئيس الراحل، وجهد في مواساة فئات المفجوعين. فلم يهتدِ إلى أكثر من قول: "إنّ أبانا، الآن، في السماء!"

وامتزجت دموع الأصاغر، بدموع الكبار، فبكى الملك صديقًا عزيزًا، وبكى رئيس أساقفة تورينو، كاهنًا قدّيسًا.

ويوم الثلاثاء التالي، وصل النعش، في موكبٍ حاشدٍ، إلى فناء *البيت الصغير*. ونزولاً عند رغبة العديد من الراهبات ونزلاء البيت، والمرضى كُشِف النعش، لحظاتٍ، وانطبعت قسمات ذلك القدّيس الفريد في نفوس محبّيه، وفي ذاكرتهم، إلى الأبد.

وكان البنّاء "كوپاسّو" قد أعدّ لجثمان صديقه، مسكنًا تحت هيكل سيّدة الورديّة المقدّسة.

جنازة القدّيس

شاع نبأ الفاجعة، فماتت الكلمات على الشفاه، وتفجّرت المآقي دموعًا، وبدت تورينو مثل بستانٍ اجتاحته عاصفةٌ هوجاء مدمّرةٌ.

واستثنائيًّا استقبل الملك، عند الساعة الرابعة صباحًا، الدكتور غرانيتّي العائد من "كييري". وما إن قرع سمعَه نبأ الفاجعة حتّى انفجر في النحيب، مردّدًا: "لقد فقدتُ صديقًا عظيمًا فريدًا!". ثمّ أضاف: "لو كان الأمر يتعلّق بأُسقفٍ، لما كان من الصعب استبداله. ولكن هل من سبيلٍ إلى استبدال قدّيسٍ؟!".

واستحوذ على قلوب أهالي تورينو، وحتّى على قلوب الذين ناوَأوا القدّيس في حياته، الشعورُ بحلول كارثةٍ وطنيّةٍ جسيمةٍ.

ومساء الثاني من أيّار انطلق أربعة إخوةٍ، كي يُتمّموا تدابير العودة بالجثمان إلى مثواه الأخير. وفي هذه الأثناء، كانت قد احتدمت المنافسة بين أطرافٍ عديدةٍ طامحةٍ في الاحتفاظ بهذا الكنز الثمين.

ومع أنّ القدّيس قلّما زار أخاه الأب لويس في رعيّة "كييري"، إلاّ أنّ أبناء تلك الرعيّة قد هتفوا مجمعين: "مات القدّيس عندنا"، فقد كانت أعماله، وإنجازاته المذهلة، وفضائله النادرة، على كلّ لسانٍ، في إيطاليا. ومن ثمّ خُيِّل إلى أهالي "كييري" أنّ موت القدّيس في مدينتهم هو امتيازٌ سماويٌّ يخوّلهم حقّ الاحتفاظ برفاته في تربتهم.

وتبارت أطرافٌ عديدةٌ على الاستئثار بهذا الامتياز، وعلى الاحتفاظ برفات قدّيسٍ فذٍّ. فطالب بهذا الامتياز مجلس كنائس تورينو، وادّعت "جمعيّة جسد الربّ" أفضليّة الاحتفاظ برفات من كان نائب رئيسها، وأبرز أعضائها. بيد أنّ الصوت

الأعلى نبرةً في المطالبة بهذا الامتياز، هو صوت *البيت الصغير*، الذي تمسّك بحقّه في إقامة مؤسّسه بين أبنائه وبناته الكُثر. وحسم الملك الخلاف، فأمر بدفن القدّيس في تربة مؤسّسته، التي اعتنقت اسمه، ونمت بنُسغ قداسته، وغدت معجزةً عالميّةً.

ومنذ فجر الثالث من أيّار، انطلق من "كييري" الموكب الجنائزيّ الوقور، واعترى المشيّعين مثل ما اعترى شهودَ وفاة القدّيس. فلم يخامرهم أيُّ شعورٍ بالرهبة والخشية، بل غمر نفوسهم عزاءٌ سرّيٌّ، لكونهم برفقة قدّيسٍ.

وكان الأب أنكليزيو، الذي خَلَف الراحل على رئاسة *البيت الصغير*، قد كلّف اثنتي عشرة راهبةً ڤنسانيّةً بالمكوث في الكنيسة مصلّياتٍ حتّى وصول جثمان الفقيد. ولكنّ معظم الـڤنسانيّات رغبنَ في الانضمام إلى المصلّيات، فأُتيح لعددٍ منهنّ هذا الامتياز. أمّا اللواتي أُكرِهنَ على التزام أسرّتهنّ، فقد جفاهنّ النوم، وما لبثنَ أن التحقنَ، خلسةً، برفيقاتهنّ في المعبد. ولّما دخل الأب أنكليزيو إلى المعبد، أدهشه عصيانهنّ الموصوف، وغير المألوف لأوامره، ولم يخفَ عليه دافعه ومبرّره، فأوعز إلى الراهبات المجتمعات بتلاوة المسبحة الورديّة، وصلواتٍ أُخرى حتّى الصباح.

وفي الساعة الرابعة من صباح الثالث من أيّار هتف رسولٌ: "الأبُ هنا". ومن غريب الصدف أنّ تلك الساعة هي التي كان الأب يغشى فيها الكنيسة استعدادًا للقدّاس، وتلاوة صلوات الصباح، برفقة كهنته "التوماويّين".

استقبل الرئيس الجديد الجثمان، مرتديًا شاراته الكهنوتيّة، ومحاطًا بلفيفٍ من الكهنة، فيما اصطفّت الراهبات صفّين متقابلَيْن، في بهو البيت.

وحينئذٍ، تحقّق حدْسٌ كان قد داخل الأب، قبل سنواتٍ، عندما زار البيتَ بائع مصابيح متميّزةٍ بشكلها، واقترحت راهبةٌ ابتياع مصباحٍ واحدٍ، على الأقلّ، كي تستخدمه الراهبات أثناء تفقّدهنّ المرضى، ليلاً، أو في حالاتٍ مماثلةٍ. ووافق الأب

على شراء مصباحٍ واحدٍ، ولكنّه أوعز إلى الراهبة ألاّ تستخدمه إلاّ عندما يعود، هو، إلى البيت، في الصباح الباكر. وفي ذلك اليوم أُشعل المصباح للمرّة الأولى، ترحيبًا بالعائد باكرًا، ولا سيّما أنّ المطر كان ينهمر مدرارًا، وكانت الريح الهوجاء تطفئ الشموع والفوانيس، فاستعين بذلك المصباح من أجل إنزال نعش الأب القدّيس.

وبدرت، آنذاك، من السماء غمزة عينٍ رقيقةٌ. فما إن استُهلّت صلوات الجنّاز، حتّى انقشع الجوّ، وغمرت الشمس الدنيا بنورها ودفئها، وخرست الريح، وساد الهدوء حتّى آخر الليل.

شاركت جميع أُسر البيت في صلوات الأموات، وأقام وفدٌ من كهنة تورينو قدّاسًا راحةً لنفس الراحل، وتوالت القداديس حتّى الظهر. وكان الملك قد كلّف أُسقفًا بتقديم العزاء نيابةً عنه، ولكنّ الأُسقف لّما اعتلى المنبر أخذ به التأثّر كلّ مأخذٍ، وخنقته العبرات، فلم يستطع إلقاء خطابه. وعلى امتداد النهار تعاقبت عشر ڤنسانيّاتٍ إثر عشرٍ أُخرياتٍ، على الصلاة أمام النعش. وكان الحزن يتعاظم ساعةً فساعةً، وقد استبدّت بجميع الراهبات رغبةٌ ضاغطةٌ في وداع الأب الحبيب بنظرةٍ أخيرةٍ. وواكبت هذا التمنّي رغبة مسؤولين كنسيّين في التحقّق من هويّة الراقد في النعش، وأخذ مندوب الأُسقفيّة على عاتقه مسؤوليّة فتح النعش، بضع دقائق. ولكن حيال انقضاض الراهبات على النعش ومحاولتهنّ اقتطاع أجزاء من ثيابه، أو خصلات شعره، بمثابة ذخائر مقدّسةٍ، وحؤولاً دون استعجال تقديس الأب، واستباق قرار الكنيسة في هذا الشأن، سارع الرئيس الجديد إلى إغلاق النعش.

واقترح الرئيس الجديد دفن الجثمان تحت هيكل القدّيس ڤنسان دي پول. ولكن المندوب الأُسقفيّ عارض، إذ كان قد سمع، مرارًا، القدّيس الراحل يعبّر عن رغبته في أن يُدفن في المساحة الصغيرة الشاغرة تحت هيكل سيّدة الورديّة. وأكّد البنّاء "كوپاسّو"، أنّه قد أعدّ هذه المساحة الشاغرة تلبيةً لرغبة الأب في أن يثوي رأسه تحت قدمي السيّدة العذراء. وحسمًا لكلّ تردّدٍ، أعمل فأسه، وأسفر عن

تلك المساحة المعدّة لاستقبال نعش القدّيس، وهذا ما تمّ يوم الثالث من أيّـــار، في الساعة التي كان الراحل قد رأى فيها النور لستّةٍ وخمسين عامًا.

وكرّت أيّامٌ عديدةٌ، لم تستطع أثناءها الراهبات، ولا العاملون الآخرون في *البيت الصغير* حبس دموعهم، كلّما مرّوا أمام ذلك المكان، الذي تقدّس بالثاوي تحته.

وقد فجع نبأ وفاة مؤسّس *البيت الصغير*، البابا غريغوريُس السادس عشر، الذي أعلن: "أشعر أنّ قدّيسًا قد مات في تورينو".

واحتفظ الملك شارل ألبير، في غرفته، بصورة ذلك الكاهن الذي كان يصـــفه برجل الله، وبصديقه الحقيقيّ، وأمسى ينعته بالطوباويّ.

وأجمع الأساقفة الإيطاليّون على وصف الراحل بالملاك، وبالكاهن المثاليّ، وكان يطيب لهم أن يرووا صنائعه، وأن ينصّبوه مثالاً لتكريم القربان المقدّس، والسيّدة العذراء، ولحبّه للبائسين، ولبذله في خدمتهم، ولثقته المطلقة واللامحدودة بالعناية الإلهيّة.

وأمسى *البيت الصغير* "بيت المعجزة" واختزله كثيرون ببيت "كُتُّلِنْغو".

وأُطلق اسم "كُتُّلِنْغو" على أحد شوارع تورينو.

وأقرّ الصحافيّون اعتبار وفاة الأب كارثةً وطنيّةً، وتنافسوا على تدوين سيرته.

وتبارت جهاتٌ عديدةٌ على اكتناز ذخائره، وتنافس فنّانون على نحت تماثيله.

العنَايَة الإلهيَّة تمجِّد قِدّيسَها

فور وفاة الأب تعالت الأصوات المطالبة بتطويبه قدّيسًا، على وقع شعار: "إن لم يكن كُتُّلِنْغو قدّيسًا، فمن هو القدّيس؟"

وقبل أن يتمّ هذا التطويب اعتاد كثيرون استشفاعه، واستجاب الله لهم. وإليكم بعض أمثلةٍ على هذه الاستجابة:

عام ١٨٦٥، جاء إلى مستشفى *البيت الصغير* إسكافيٌّ فقيرٌ، أَرمل، يُدعى "ڤيتّوريو دي ستيفانِس"، مصابٌ بالتهابٍ في عموده الفقريّ، وانفصال اثنتين من فقراته. وكان قد استصحب ابنه البالغ من العمر ثماني سنواتٍ. فأودع الصغير مع المرضى الصغار، ودأب الطفل على زيارة والده، كلّ مساءٍ. وذات مساء، قال لوالده: "إذا كنتَ راغبًا في الشفاء، فما عليك إلاّ أن تقوم بتساعيّة صلوات للأب كُتُّلِنْغو. ولم يكن الوالد يؤمن بالمعجزات، فقال لابنه: "أيّة حماقةٍ تخطر ببالك؟! لو كنت اهتديتُ إلى وسيلة شفاء لأقدمتُ عليها في الحال، منذ زمانٍ. إنّ شفائي يستلزم أكثر من كُتُّلِنْغو، وبركته. امضِ ونمْ، فهذا خيرٌ لك!". حزن الصبيّ، وعاد إلى سريره خائبًا. غير أنّ رغبته الطاغية في شفاء والده حملته على إعادة الكرّة، في اليوم التالي. وفي محاولةٍ لإقناع والده، قال له: "إشرع بالتساعيّة، وإن لم تحصل على الشفاء، فلن تكون قد خسرتَ شيئًا". وأعمل الوالد فكره في قول ابنه. وتذكّر ما طالما سمعه عن صغارٍ أبرياء، أرشدوا كبارًا متعنّتين إلى الصواب. واستشار مرشد المستشفى الروحيّ. ويوم ١٨٦٥/٤/١٣، استهلّ التساعيّة. وصباح يوم ١٨٦٥/٤/١٧، حلم أنّ الأب كُتُّلِنْغو قادمٌ إليه كي يحدّثه. وفي تلك اللحظة عينها قُرِع جرس الاستيقاظ، وأطاح بالحلم. ومع ذلك اعترى الإسكافيّ المسكين شعورٌ بأنّ نعمةً حلّت عليه، فحاول، بتؤدةٍ، تغيير وضع رقاده، فتمكّن من ذلك، بلا

وجعٍ، وكانت تلك هي المرّة الأولى، منذ شهورٍ طويلةٍ، التي استطاع فيها التحــرّك بلا ألمٍ، فازداد جرأةً، وحاول الجلوس فوق سريره، فتمّ له ذلك بيُسرٍ. وحينئذٍ غامر فوضع قدمًا على الأرض، ثمّ وضع قدمًا ثانيةً، ووقف، وفي غمرة سعادته ودهشــته سار غير مستعينٍ بعكّازٍ إلى مريضٍ آخر، صديقٍ له، وهو يسكبُ وابلاً من دمــوع الفرح، هاتفًا: "لقد شُفيتُ. يا للنعمة التي حصل لي عليها القدّيس كُتُّلِنْغو!". وأقــرّ الطبيب الذي كان يعالجه: "إنّها معجزةٌ باهرةٌ. وإذا طُلِبت منّي الشهادة فسأشهد".

وعام ١٨٨٧ كانت راهبةٌ ڤنسانيّةٌ تُدعى الأُخت "فيدي" (Fede)، أي إيمان، قد انضمّت إلى سلك الــڤنسانيّات، في عهد الأب المؤسّس، وبسبب قصر قامتها كان الأب يسمّيها، مازحًا، "جليات الجبّار". وكانت، بفضل صبرٍ جمٍّ، قد أعدّت ثلّةً من "الأولاد الطيّبين"، الواهنين عقليًّا، للمناولة الأولى. وبعد الاحتفال بهذا السرّ، وفيما كانت تعود بالأولاد إلى مقرّهم، وقعت وكُسِر عظم عنق فخذها. وأجرى لها طبيبان عمليّة جبر الكسر وترميم العظم، ولكنّهما لم يطمئنّا إلى نجاعة تلك العمليّة، بسبب تقدّمها في السنّ، وأُحيطت الراهبة علمًا بالأمر. فقالت، في ذاتها: "إنّ ما تعجز عنه شيخوختي سيحقّقه آخر!". وتناولت صورة للأب كُتُّلِنْغو، وحدّثته: "هذا ما جرى لي، من جرّاء ما فعلتُه مع "أولادك الطيّبين". لقد ثقّفتهم دينيًّا، وأعددتُهم للمناولة. ألستَ، أنت، ملزمًا بشفائي؟. ولكي أُجبرك على ذلك سأحبسكَ". ثمّ قبّلت الصورة، ودسّتها داخل ضمادها. وبعد أيّامٍ نزع الطبيب الضماد، ودهش لرؤية صورة القدّيس داخله، وأقرّت الراهبة ببساطةٍ عذبةٍ: "لقد سجنتُه لكي يشفيني، ونسيتُ إطلاق سراحه". فأغرق الطبيب في الضحك، وسألها ساخرًا: "وهل كنت واثقةً أنّ ذلك الكاهن الطيّب سيشفيك؟". غير أنّه سرعان ما تبيّن بنفسه أنّه هو الأحقّ بالسخريّة، بعد أن اتّضح له شفاء كسر الراهبة شفاءً تامًّا عجيبًا، رغم سنّها المتقدّمة. وربّما كان الأكثر ضحكًا في سمائه هو الأب كُتُّلِنْغو، الذي طابت له مداعبة ابنته البريئة الساذجة.

في مطلع شهر تشرين الثاني من عام ١٨٥٦، اعتلّ الأب أنكليزيو، خليفة القدّيس كُتُّلِنْغو، اعتلالاً خطيرًا، وأعلن الأطبّاء عجزهم عن شفائه. فتقبّل الزاد الأخير، واستعدّ للرحيل إلى بيت الآب. وأيقن المحيطون به، ومنهم أُسقفٌ وشنوانٌ، أنّه لم يعد يربطه بالدنيا سوى خيطٍ رفيعٍ، ويخشون انقطاعه بين لحظةٍ وأُخرى.

ولم يخرج عن هذا الإجماع المتشائم سوى راهبةٍ شابّةٍ، تُدعى الأُخت كاترينا، التي كانت موغلةً في الفضائل، وتحظى بمكرماتٍ فائقةٍ، وأكّدت أنّه سيشفى، متغلّبًا على علّته الخطيرة، وسيبقى على رأس *البيت الصغير* سنواتٍ عديدةً.

وتنامى موقفها هذا إلى الأب دون بوسكو، فقابلها، واستفسر عمّا أقامت عليه يقينها بشفاء الأب الرئيس. فروت له أنّها كانت، قبل لحظاتٍ، راكعةً أمام القربان المقدّس، واعتراها شعورٌ بأنّها اختُطِفت إلى السماء، حيث شهدت مجموعةً تضمّ كلاًّ من ڤنسان دي پول، ولويس دي غونزاغ (St Louis de Gonzague)، والقدّيسة إيليان، والأب كُتُّلِنْغو، وجميعهم يلتمسون من ملكة الملائكة مريم العذراء نعمة شفاء الأب المذكور، فوعدتهم العذراء بشفائه، ولكن بواسطة الأب كُتُّلِنْغو، الذي أشارت إليه بإصبعها. وحينئذٍ أدلت الراهبة بنصيحةٍ: "باركوا المريض بغرضٍ كان يخصّ الأب المكرّم كُتُّلِنْغو، واطمئنّوا واثقين أنّ الأب أنكليزيو سينعم بالشفاء".

وهرع دون بوسكو إلى معاون الأب أنكليزيو، مؤكّدًا ثقته بقول الراهبة الورعة. ولكنّ هذا المعاون، انتفض مستهجنًا تصديق دون بوسكو أوهام الراهبة، في حين أنّ الرئيس العليل يلفظ أنفاسه. بيد أنّ دون بوسكو لم يستسلم، وانتزع من جدارٍ صورةً للأب كُتُّلِنْغو، وطلب من الأُسقف أن يبارك بها الكاهن العليل. وتناول الأُسقف الصورة، ورفع ناظريه إلى السماء، وقال: "نسألك، يا ربّ، تمجيد خادمك جوزيف كُتُّلِنْغو". وحينئذٍ ركع جميع الحاضرين، وتلوا "أبانا" و"السلام" و"المجد"، وبارك الأسقف الرئيس المحتضر بصورة رئيسه السابق.

وفي الحال توقّف تدهور وضع الأب أنكليزيو الصحّيّ. غير أنّ التشنّجات لم تزايله حتّى الساعة الواحدة صباحًا. وحينئذٍ فتح عينيه، وابتسم وتعرّف الملتفّين حوله. وبعد مضيّ ساعتين استعاد كامل وعيه وسكونه. وفي المساء أعلن أطبّاؤه الثلاثة دهشتهم من التحسّن الذي طرأ على صحّته، واستعادوا أمل شفائه. وفي اليوم التالي أعلنوا دخوله مرحلة النقاهة. أمّا هو، فرغم تأثير العقاقير التي أُكرِه على تناولها، في عزّ علّته، شرع يهتمّ بشؤون *البيت الصغير*، مكتسبًا، في كلّ لحظةٍ، شحنة عزيمةٍ كانت تُدهشه هو نفسه.

ولّما تمّ له الشفاء التامّ، التمس من دون بوسكو، وضع تقريرٍ يوضح ما شـــهده أثناء اعتلاله. وعندما تبيّن له مدى فداحة الخطر الذي كان يحوم حـــول حياتـــه، والشفاء العجيب الذي ناله بشفاعة ومداخلة صديقه ورئيسه السابق، انفجر يبكي فرحًا واعترافًا بالجميل.

وفي شباط ١٨٧١، جيء إلى المستشفى بجنديٍّ يعاني آلامًا جسديّةً مبرّحةً، وشدائد نفسيّةً مدمّرةً، من جرّاء المخازي التي لوّنت كلّ مراحل حياته، والبهيميّة التي قادت كلّ أفعاله. وكان سوء حالته يتفاقم ساعةً فساعةً. وجهدت الراهبة الساهرة عليه وأخواتها في التحدّث إليه عن عطف الله وحنان العذراء، وعن ضميره، ومصير نفسه، داعياتٍ إيّاه إلى التوبة والتصالح مع خالقه. ولكنّ أقوالهنّ كانت عاجزةً عن إلهاب حطبٍ جافٍّ، ولم تستخرج من مستنقع نفسه سوى أبشع عبارات التجديف، والمسبّات للعذراء، وللصليب الذي كان معلّقًا على جدارٍ يواجهه. ولكم تمنّى انتزاعه وتحطيمه! ومع كلّ ما أثارت بذاءاته وقحته من استنكارٍ ونفورٍ في نفس الراهبة الساهرة عليه، غير أنّها دنت من سريره وعاتبته

قائلةً: "ما الذي فعله لك يسوع المصلوب الذي أحبّك حبًّا جمًّا، وسفك دمه، ومات على الصليب من أجلك؟". ومع ذلك طلبت الراهبة نزع الصليب عن الجدار، أملاً في تهدئة الجنديّ.

وفي هذه الأثناء، عاد الطبيبُ الجنديَّ، وصارح الراهبات: "لم يعُدْ بوسعنا التحدّث عن أيّامٍ تفصله عن نهايته، إذ لم يبق له إلاّ سويْعاتٌ معدوداتٌ. فهذا المسكين يهوي سريعًا إلى نهايته، ولست أظنّ أنّه سيكون غدًا حيًّا".

وأخذت الخشية على مصير ذلك المسكين بكلّ قلب الأُخت الساهرة عليه، فانزوت في غرفتها، وركعت باسطةً ذراعيها على شكل صليبٍ، ودعت: "أيّها الأب كُتُلِنْغو، أتوسّل إليك أن تهبني خلاص هذه النفس، إكرامًا للعذراء مريم! وفيما كانت مسترسلةً في صلواتها، جاءتها راهبةٌ ملهوفةٌ، وقالت لها: "إنّ الجنديّ البائس يطلب التحدّث إليك"، فهرعت إليه، فقال لها: "تحنّني عليّ وأرسلي لي كاهنًا، لأنّي أُريد أن أعترف بتوبةٍ عميقةٍ صادقةٍ". واستغفر، علنًا، الكهنة والراهبات، والأطبّاء والممرّضين، ورفاقه المرضى عن كلّ ما ارتكبه من مخازٍ. وتلقّى، بورعٍ، الزاد الأخير، ورجا الراهبة التي أحسنت إلى نفسه ألاّ تتركه، وأن تواصل إيحاءها له أفكارًا مقدّسةً، وأدعيةً. وغادر الدنيا متحرّرًا من أثقالٍ باهظةٍ.

وكان الأب، قُبَيْل وفاته، قد استقبل في *البيت الصغير*، فتاةً تُدعى تيريزا، ابنة ضابطٍ في الجيش، أرمل. وفي السنة التي تلت وفاة الأب القدّيس، كان الصيف قائظًا، وخطر للرجل الانتعاش بالسباحة في نهرٍ قريبٍ. ولكنّه فقد توازنه، وجرفه التيّار حتّى شارف على الغرق. ولم يكن هناك من يستعين به، فالتفت بفكره نحو الكاهن الذي

اعتنى بابنته، هاتفًا: "أيّها القدّيس كُتُّلِنْغو، إذا كنتَ، حقًّا، القدّيس الذي يشيدون به، فأثبت ذلك، وأغثني، لأنّني أغرق!". وما كاد يفرغ من هذا الدعاء، حتّى شاهد ضوءًا قادمًا نحوه، وكاهنًا يأخذه بيده، وينتشله إلى الضفّة، ويتوارى.

وابتغى الرجل الناجي تخليد إنقاذه العجيب بلوحة كبيرةٍ، كلّف فنّانًا برسمها، وتعليقها على مقربةٍ من مدفن القدّيس. ولكنّ الرئيس الجديد، الأب أنكليزيو، طلب إرجاء هذا الأمر، إلى أن تُعلن الكنيسة موقفها من قداسة الأب كُتُّلِنْغو.

ويوم ١٩٣٤/٣/١٩، أُعلنت قداسة الأب كُتُّلِنْغو، استنادًا إلى أعجوبتين حديثتين تحقّقتا بشفاعته:

أولاهما جرت للمدعوّة "مرغريت ماسّيمينو"، (Massimino)، التي أُصيبت بناسورٍ خطيرٍ، ولم تفلح عمليّتان جراحيّتان في شفائها منه. وفي عام ١٩٣١، عادت إلى المستشفى، آملةً في نجاح عمليّةٍ ثالثةٍ. بيد أنّ الطبيب تردّد في مدّ يده لعمليّةٍ ثالثةٍ بعد أن أفضت العمليّتان السابقتان إلى فشلٍ ذريعٍ. ولكنّ العليلة كانت وطيدة الثقة بحصولها على الشفاء، وكانت ثقتها مبنيّةً على حلمٍ رأت فيه كاهنًا ينحدر من قطارٍ، منتعلاً أحذيةً غليظةً، ومتلفّعًا بقبّعةٍ عتيقةٍ، ودنا منها، وطلب منها أن تصلّي، ووعدها بالشفاء في شهر حزيران. وهي لم تكن قد رأت صورة الأب كُتُّلِنْغو، فظنّته دون بوسكو، أو دون كافاسّو، وتشديدًا لهذه الثقة نصحتها راهبات *البيت الصغير* بالتوجّه إلى أبرع الأطبّاء، أي الأب كُتُّلِنْغو. وشرعت بتساعيّة صلواتٍ استشفاعًا به، وشاركتها في الصلاة الراهبات، ومريضات *البيت الصغير*. وفي ليلة أحد الأيّام التسعة نامت العليلة نومًا عميقًا. ونهضت في الساعة السادسة صباحًا معافاةً كلّيّةً، وبمعزلٍ عن أيّة مداخلةٍ بشريّةٍ. وحينئذٍ زارت *البيت الصغير*، ورأت تمثالاً للأب كُتُّلِنْغو، وتعرّفت الكاهن الذي وعدها بالشفاء.

الأُعجوبة الثانية نعمت بها راهبةٌ فْنسانيّةٌ تُدعى "بنيامينه سترادوتّو" (Benjamine Stradotto). كانت مديرة مدرسةٍ في مدينةٍ إيطاليّةٍ، تنتابها آلامٌ حادّةٌ في رأسها، أسفرت عن التهاباتٍ خطيرةٍ، وإفرازاتٍ قيحيّةٍ هائلةٍ من عينيها وأُذنيها. وارتأى أطبّاء ضرورة معالجتها جراحيًّا، وأيّد هذا التشخيص أطبّاء *البيت الصغير*، وشرعوا بإعدادها للجراحة، فحلقوا شعر رأسها، ولكنّها بلّغت رئيستها العامة أنّها لا تطيق الجراحة في أيّة حالٍ، وأجابتها رئيستها بهدوءٍ وثقةٍ: "لن تجرى لك عمليّةٌ، بل سيتولّى الطوباويّ كُتُّلِنْغو شفاءك".

هذا القول انسكب على قلب الراهبة العليلة بردًا وسلامًا، وثقةً مضاعفةً. فشدّت، بقوّةٍ، إلى صدرها، صورة الأب القدّيس التي كانت تحت وسادتها، والتمست بحرارةٍ، شفاعته. ومع أنّ النوم كان قد جفاها منذ أيّامٍ، أخذها النعاس عند الساعة العاشرة والنصف، ليلاً، لكنّه لم يطُلْ. ولّما استيقظت تبيّنت تلاشي أوجاعها. ثم استسلمت، ثانيةً، إلى نومٍ عميقٍ. وفي الصباح كان شفاؤها كاملاً: لا وجعَ، ولا قيحَ، واستعادةٌ لشهيّة الطعام. وبات بوسع البروفسّور "كازاسّا" تدبيج تقريره، بضميرٍ مرتاحٍ، وإعلان زوال كلّ أعراض المرض، زوالاً كاملاً، فوريًّا، وبمنأًى عن كلّ مداخلةٍ بشريّةٍ.

وأكّد الأب، من عليائه، أنّه ما برح إلى جانب راهباته. فبعد أيّامٍ قليلةٍ على وفاته، انتابت الأُخت "مرسلّين" نوبة تقيّؤٍ، لم تقتصر على إفراغ كلّ ما كان يدخل معدتها، بل واكبتها أوجاعٌ مريعةٌ. ولم تفلح وصفات الدكتور غرانيتّي إلاّ في مضاعفة أوجاعها واعتلالها. فشرعت بتساعيّة صلواتٍ على قبر الأب، ولّما انتهت كانت قد أبلّت من علّتها، إبلالاً تامًّا.

وانتابت راهبةً أُخرى آلامٌ شديدةٌ في رجلها لم تعرف لها سببًا. وبعد ثلاثة أشهر ظهر في رجلها قرحٌ يبعث روائح كريهةً، أدّى سريعًا إلى مصيرٍ خطيرٍ. وحاول طبيبها اختراق الرجل، من جانبٍ إلى الآخر، بسهمٍ حديديٍّ، فلم تشعر به.

وحينئذٍ قرّر الطبيب بتر الرجل. ولحسن طالع تلك الراهبة أنّ كاهنًا نصحها باللجوء إلى الأقدر على الشفاء، الأب كُتُّلِنْغو، فتشفّعت به، بحرقةٍ وثقةٍ، وفي اليوم التالي، نزعت الضمادات، وإذ بالرجل المعطوبة محرّرةٌ من كلّ علّةٍ!

تكاثرت، إذن، عجائب الشفاءات، بشفاعة الأب كُتُّلِنْغو، وأضحى قبره محجًّا، وملجأً لآلافٍ من المرضى والمحتاجين، مثلما هو كان في حياته، وكان مجد الله يتجلّى من خلاله.

وإلى جانب الأشفية المعجزة حدثت ظواهر فائقةٌ، وظهوراتٌ. مثال ذلك أنّ غياب الأب كُتُّلِنْغو كان موجعَ الوقع على نفس الأُخت "پـيّا"، ولا سيّما أنّ رحيل معرّفها قد عقب وفاة الأب، فغدت تعلن على الملأ أنّ عذابها لا يُطاق. وحاصرها خشية الهلاك، حتّى راودها فكرة هجر الرهبنة. وعشيّة عيد القدّيس ڤنسان دي پول جفاها النوم، وجفاها المكان، واحتدّت هواجسها، فجلست، ودفنت رأسها، بين يديها، وراحت تبحث عن مخرجٍ من محنتها. ولم تمضِ سوى لحظاتٍ حتّى انتابها شعورٌ سلامٍ طاغٍ غمر نفسها. ثمّ تخيّلت أنّها جالسةٌ إزاء الصيدليّة، وإذ بخادم الله القدّيس يأتيها ضاجًّا فرحًا ورقّةً، مثلما عهدته دائمًا. وجال ببالها أنّ الراهبات المعنيّات بالصيدليّة سيسعدنَ برؤيته، وهمّت باستدعائهنّ، ولكنّه منعها، مؤكّدًا أنّه جاء من أجلها فقط. واستفسرها عمّا يؤرّقها ويوجعها، فباحت له أنّ غيابه وغياب معرّفها الذي عقبه، قد أوقعاها في حيرةٍ ممضّةٍ، إذ لم يعُدْ لها من تبوحُ له بهواجسها وشكوكها، وأوجاع نفسها. ولكنّه هدّأ روعها، واعدًا بأن يرسل لها، في غضون شهرٍ، من يرتاح إليه قلبها وفكرها. وناشدها البقاء في سلامٍ، ووعدها بالتحدّث إلى الأب أنكليزيو، وبأنّ كلّ شيءٍ سيؤول إلى خيرٍ.

استعادت، إذن، الأُخت "پيّا" طمأنينتها، وشخصت إلى الكنيسة، ولكن اعترضت طريقها إحدى أخواتها، وسألتها بتأثّرٍ:

– بمَ كنتِ تفكّرين ليلة أمس، وما الذي تنوين فعله؟

فاجأها السؤال، وهمّت بالانصراف، فأمسكت بها زميلتها، وقالت:

- اسمعي، لديّ رسالةٌ لك. في الساعة الثالثة من ليلة أمس، كنتُ مستيقظةً مثلما أنا مستيقظةٌ الآن. ورأيت الطوباويّ الأب "ڤــاسكو" (المعرّف) يدخل قاعة نومنا، مرتديًا الزيّ عينه الذي كان يرتديه أثناء حياته، ووقف إلى يمين سريري وقال: "انصحي الأُخت "پــيّا" ألاّ تنفّذ النيّة التي راودتها. أنا لا أعلم شيئًا عن تلك النيّة. ها قد بلّغتكِ، والأمر لكِ".

تملّكت الأُخت "پــيّا" مشاعرها، وأحكمت كتمانها، وتابعت طريقها إلى الكنيسة بهدوءٍ. وكرّت عشرون يومًا، وهي تنتظر مآل ما وُعدت به. وإذ بالأب "أنكليزيو" يأتي إليها في "بيت الله"، الذي كانت رئيسةً عليه، ودودًا، وفق عادته، وتوجّه صوب الصيدليّة، وتوقّف في المكان نفسه حيث ظهر لها الأب كُتُّلِنْغو، في الحلم، وكرّر لها القول عينه الذي سمعته من أبيها القدّيس، موضحًا: "سيكون لك، منذ الآن، معرّفٌ يرتاح إليه قلبك وفكرك". وأضاف: "إنّي أُوكلكِ إلى الأب "غاليتّي" (Galetti)، وستستطيعين اللجوء إليه كما تشائين.

حينئذٍ تأكّد للأُخت أنّ ما رأته في الحلم كان ظهورًا حقًّا.

حيال تواتر مثل تلك الأحداث الخارقة، واندفاع المؤمنين إلى تكريم مؤسّس *البيت الصغير* بالنذور والتقادم، واللوحات التذكاريّة، وحؤولاً دون أن تصبح هذه الظواهر التكريميّة استباقًا لقرار الكنيسة بشأن قداسة المكرّم، ناشد الأب "أنكليزيو" الأساقفة، ورجال الإكليروس الذين عرفوا الأب عن كثبٍ، أن يدوّنوا شهاداتهم الشخصيّة وشهادات مؤمني رعاياهم الذين كانوا على علاقاتٍ مباشرةٍ به. ولمّا توفّر عددٌ وافٍ من هذه الشهادات التمس إذنًا بمباشرة دعوى تطويب الأب. وكانت سعادته عارمةً يوم ١٨٦٣/١/١٦، عندما عُقدت أولى جلسات الدعوى في كنيسة *البيت الصغير*، التي كان الراحل قد وضع حجر أساسها بيديه.

هذه المبادرة أثلجت قلب البابا بيّوس التاسع، فكتب بيده رسالةً إلى الأُسقف الذي ترأّس جلسات الدعوى، مؤكّدًا اعتزازه، واعتزاز الكنيسة جمعاء بمن كان "معجزة المحبّة المسيحيّة".

استغرقت مداولات الدعوى عشر سنواتٍ وبضعة أسابيع، عُقدت أثناءها خمس مئةٍ وثمانون جلسةً، واختُتمت في ١٨٧٣/٣/١٢.

واستمرّت نقاشات الدوائر الـڤـاتيكانيّة حول الوثائق المقدّمة، سالكةً المراحل القانونيّة المعتادة، إلى أن أعلن البابا بيّوس الحادي عشر قداسة الأب "جوزيف بنوا كُتُّلِنْغو"، يوم ١٩٣٤/٣/١٩.

وهل أحقّ بالتقديس ممّن عاش الإنجيل، حرفًا وروحًا، وبكلّ حذافيره، لحظةً فلحظةً، وبهذا العيش حقّق ما لم يكن ممكنًا تخيّله، ساهرًا على كلّ فكرةٍ تعبر في ذهنه، وعلى كلّ لفظةٍ يتفوّه بها، وعلى كلّ عملٍ يؤدّيه، فاستحقّ العبور مباشرةً من الأرض إلى أحضان الربّ والعذراء، بلا حاجةٍ إلى اختبار المطهر، جاهدًا في القضاء على أسباب الحزن والبؤس من حوله، مبرزًا صورةً سنيّةً لما تقتضيه القداسة المسيحيّة من جرأةٍ، وإقدامٍ، وبساطةٍ، وطفولةٍ روحيّةٍ، وتضحيةٍ بالذات، وثقةٍ مطلقةٍ بالعناية الإلهيّة، وعبقريّةٍ في استنباط الفرح والعزاء، من قعر الحرمان والقنوط؟!

البيت الصغير بعدَ "كُتُّلِنغو"

خلال عشر سنواتٍ، أي بين ١٨٣٢ و١٨٤٢، كان الأب كُتُّلِنْغو قد أشاد هيكل مؤسَّسةٍ جسيمةٍ، إشادةً معجزةً، بدعم العناية الإلهيّة. وكان ما زال يحلم بإكساء الهيكل وإتمامه، وتدعيمه، وتزيينه، وكان يسكنه اليقين بأنّ خلفاءه لن يكفّوا عن إضافة مداميك جديدةٍ للبناء، وعن التوسّع به في كلّ اتّجاهٍ، وعن تزويده بكلّ ما يضفي عليه مزيدًا من جمالٍ، وبما يمكّنه من جدوى متناميةٍ.

وكان قد اكتفى، في سبيل إنجاز هذا العمل المعجز، بأن يكون ابنًا صغيرًا وَلِهًا حبًّا بأبيه، واثقًا بعنايته وسهره، مستسلمًا لعطفه، وراسخ الإيمان أنّه، بعونه، سيقوى على كلّ شيءٍ، حتّى ما قد يناقض الحكم السليم، ويتخطّى إدراك عامّة الناس وتوقّعاتهم. فلم تقلقه، لحظةً، الحاجة إلى أطنان الخبز والطعام اللازمة، يوميًّا، لإطعام أُلوف الأفواه، والمبالغ الطائلة التي تقتضيها حركة بناءٍ لا تتوقّف. ولم يحجم، قطّ، عن إشراع أبوابه وقاعاته لأفواج القادمين الجدد، والمحتاجين إلى مأوًى وطعامٍ، وكساءٍ، وعلاجٍ، إيمانًا منه بأنّ الأب السماويّ هو أبو كلّ إنسانٍ، أيّةً كانت قدراته واحتياجاته، وأنّه لن يتوانى عن إجراء المعجزات من أجل تلبية طلبات أبنائه، فما عليهم، كي يحصلوا عليها، إلاّ الثقة بحبّه، وبعنايته.

كانت تؤرّقه، بلا هوادةٍ، خشيةُ التقصير في سدّ احتياجات المحرومين الأساسيّة، والعاجزين من جرّاء إعاقاتٍ جسديّةٍ أو ذهنيّةٍ، أو نفسيّةٍ، ويعدّ هذا التقصير إهانةً لله. وتجنّبًا لهذه الخطيئة، كان قد جنّد جحافل راهباتٍ، وإخوةٍ، وكهنةٍ، وأطبّاء، وممرّضين وممرّضاتٍ، وبثّهم روحه، ووضعهم بتصرّف العناية الإلهيّة، كي تستخدمهم في سبيل بقاء *البيت الصغير*، واطّراد نموّه، واستطاع أن يتنبّأ: "ستنطفئ شعلة الأُسر الكبيرة في تورينو، وفي منطقة "الـپـيمون" (Piémont)، ولن يزول *البيت الصغير*، فهو ليس

بيت هذا أو ذاك من البشر، بل هو بيت العناية الإلهيّة". والعناية الإلهيّة لا تخضع لتقلّبات الزمن، وعبث الظروف. وهي فاعلةٌ في كلّ وقتٍ، وفي كلّ حالٍ، وستظلّ ترعى ما بنَتْه، ولن تدعه ينهار، ما دام القائمون على البيت تحدوهم ثقةٌ لامحدودةٌ بها، ويعملون وفقًا لإيحاءاتها.

هذا اليقين كان قد رسّخه في نفوس الذين تعاونوا معه على إنهاض *البيت الصغير* من العدم، فضمّوا سواعدهم إلى ساعديه، وصلواتهم إلى صلواته، وتضحياتهم إلى تضحياته، وتشرّبوا إيمانه ومحبّته، وانبروا،بثقةٍ وتصميمٍ، لحمل أعباء آلاف المحرومين والمعانين. ومع هؤلاء الأعوان الأبطال، وبهم، أطلق اندفاعًا لن يفترَ له زخمٌ، ولن تردعه عقبةٌ أو مشقّةٌ.

لقد قدّر المراقبون من الخارج أنْ لا قدرة على البقاء والثبات لهذا الصرح الشامخ الذي أشاده كاهنٌ فردٌ، نسيجُ وحده، بلا رأسمالٍ، ولا مورد ثابتٍ، ولا احتياطيٍّ، وبفضل معوناتٍ زهيدةٍ أو جزيلةٍ، كانت تهطل عليه ساعةً فساعةً، ويومًا فيومًا، وتُنفَق في الحال، فيضطرّ، في اليوم التالي، إلى الاستدانة، والديون تتراكم تراكمًا مرعبًا، جارّةً، في إثرها، مواكب المطالبات السمجة، والتهديدات الوقحة، والتعدّيات الهمجيّة أحيانًا. ولم يخطر ببال هؤلاء المراقبين الخارجيّين أن يستطيع أيٌّ كان التمثّل بهذا الكاهن المجنون، الثَمِل بالله، والمضيّ قدمًا بمشروعه المعجز. وساورت العديد من أصدقاء *البيت الصغير* أنفسِهم خشيةُ تعثّره، وعجزه عن مواصلة مهامّه الجليلة.

وساد الاعتقاد بأنّ على من سيتنطّح لخلافة الأب كُتُّلِنْغو أن يمتلك قسطًا فائضًا من البطولة، ومن جنون المغامرة، في حين أنّ المؤسّس الراحل كان وطيد اليقين بأنّ الخلافة ستتمّ ببساطةٍ مدهشةٍ، ولينٍ سلسٍ، وكان قد شبّهها بتبديل الحرس الملكيّ، الذي يكاد لا يشعر به أحدٌ. ولذلك لم تشغل خلافته بالَه، واعتاد التأكيد بأنّها ليست شأنه، فثمّة من يهتمّ بها. من ثمّ، فآن يحين موعد تبديل الحرس، ستهمس العناية الإلهيّة كلمة السرّ في أذن البديل، وستسير الأمور على خير نسقٍ. وكان قد

تنبّأ، قبل سنواتٍ، أنّ الربّ هو الذي سيختار خليفته ويؤهّله... سيأتي من قلب المؤسّسة، مع أنّه ليس هو الآن فيها، وسيكون لها الأب".

وفي الواقع، إثر رحيل المؤسّس، استلم شعلة *البيت الصغير*، وسار بها على امتداد أربعين سنةً، الشنوان "لويس أنكليزيو"، الذي كان كاهن رعيّةٍ، أوكلها لخمس سنواتٍ خلت، إلى كاهنٍ آخر، وانضمّ إلى كهنة *البيت الصغير*، وعمل بتعاونٍ وثيقٍ مع الأب كُتُّلِنْغو، وتشبّع بروحانيّته، وتوغّل في الإحاطة بنواياه، وأحلامه لمستقبل *البيت الصغير*، وعلى غراره، كان زاخرًا إيمانًا، ومحبّةً، وثقةً لامحدودةً بالعناية الإلهيّة.

وجديرٌ بالتنويه أنّه ابن الصيدليّ الذي تبرّع بتزويد *البيت الصغير*، منذ نشأته، بكلّ العقاقير التي يحتاج إليها.

لّما تولّى خلافة الأب كُتُّلِنْغو، كان في التاسعة والثلاثين من عمره. وكان يتباين عن المؤسّس الراحل شكلاً وطباعًا. فقد كان قصير القامة، هزيل البنية. لم يكن يملك مرح سلفه، ولا خياله، ولا إبداعه. وكان ينزع إلى الصمت، والجدّ، وإيجاز الكلام، والدقّة، والوضوح، والتنظيم.

ومنذ البدء، أخذ على عاتقه المضيّ قدُمًا بالمشاريع الغالية على قلب سلفه، والتي داعبت أمانيه، ولم يُفسِح له قصر عمره، ورحيله الباكر إبرازها إلى النور. وآلى على نفسه مواصلة وتيرة ازدهار *البيت الصغير*، التي أطلقها المؤسّس، إيمانًا منه بأنّ كلّ خطوةٍ في هذا الاتّجاه كانت تعني مبادرة محبّةٍ جديدةً، تقلّص مساحة البؤس واليأس، ومزيدًا من تمجيد الله.

ومع أنّ تسمية *البيت الصغير* كانت تشحب، شيئًا فشيئًا، في أذهان العامّة، لصالح تسمية "مؤسّسة كُتُّلِنْغو"، التي كانت تكتسب شعبيّةً، غير أنّ العناية الإلهيّة أكّدت حرصها على البيت الذي تكنّى بها، فمكّنته من ازدهارٍ مطّردٍ ومذهلٍ، وواكبته في أصعب الظروف.

فيوم وفاة المؤسّس، عام ١٨٤٢، كان بيت العناية الإلهيّة يمتدّ على مساحة خمسين كيلومترًا مربّعًا. وفي عام ١٨٩٤ كانت مساحته قد اتّسعت حتّى ألفي كيلومترٍ مربّعٍ. وبما أنّه لم يبقَ له مجالٌ للتمدّد في تورينو، فقد تشعّب في كلّ اتّجاهٍ، وأقام عشرات الفروع في إيطاليا وخارجها. وكلّ فرعٍ كان يتحوّل مدرسة قداسةٍ، ومنجم محبّةٍ، ودعوةً إلى السخاء والمشاركة.

وبمعونة العناية الإلهيّة حقّق الأب أنكليزيو الكثير ممّا كان يطوف في ذهن الأب كُتُّلِنْغو، وفي قلبه. واقتاده طبعه التنظيميّ إلى توزيعٍ أوفر نجاعةً للمهمّات، وربّما على غير قصدٍ منه، حقّق طائفةً من نبوءات سلفه القدّيس. كان قد اتّضح له، منذ الوهلة الأولى، أنّ معظم مهامّ *البيت الصغير* كانت تقع على عاتق الراهبات الـقنسانيّات، وتودي بهنّ إلى هرَمٍ مبكّرٍ. فهنّ الممرّضات، والطبّاخات، والغسّالات، والمعلّمات. فأكبّ على توزيع المهامّ، وإيكال كلّ مهمّةٍ شاقّةٍ إلى أُسرةٍ مهيّأةٍ لها، ومنصرفةٍ إليها.

وكان المؤسّس القدّيس قد تنبّأ: "سيحين وقتٌ تتقدّس فيه فتياتٌ سليماتٌ، ومتينات البنية، ويستحقِقْنَ الفردوس بدأبهنّ على الغسل، والغسل، والغسل، بلا هوادةٍ". فقد كانت مهمّة تنظيف القاعات والممرّات، يوميًّا، وغسل عشرات أطنان الأغطية والأقمشة، وثياب المرضى ونزلاء البيت، الملوّنة بالدم والقيح، والبول، والبصاق، تقتضي جهودًا بطوليّةً، ومِنْعةً نفسيّةً يدعمها النظام الرهبانيّ.

وتحقيقًا لهذه النبوءة، جمع الأب أنكليزيو، بمبادرةٍ مُلهَمَةٍ، ثلّةً من الفتيات اللائي يتمتّعن بالبنية الجسديّة المنيعة، والراغبات في تقديس نفوسهنّ من خلال العمل الشاقّ، وأوكلهنّ إلى شفاعة القدّيسة الشهيدة "إيليان". وسرعان ما نمت هذه الأُسرة، وغدت تضمّ مئات الأخوات. وأقام لهذا الغرض مغسلاً حديثًا مجهّزًا بأحدث الأدوات، إلى جانب خزّانات ماء إسمنتيّةٍ، كانت الأخوات ينقعنَ فيها الغسيل ويعصرنَه، مستفيداتٍ من قناةٍ تمرّ بالمكان وتغذّي الخزّانات بالماء النظيف.

"الإيليانات" الدائبات على الغسل

وما كان أعذب أصوات الراهبات الدائبات على الغسل، ونغماهنّ الجذلى المدوّية في كلّ أرجاء البيت، مثبتةً أنّ أشدّ الأعمال مشقّةً، وقذارةً، عندما تُؤدّى بفرحٍ، بصفتها خدمةً طوعيّةً، وواجبًا مقدَّسًا ومقدِّسًا، تتجرّد من صفة السخرة، والعقاب، والعبوديّة، وتتحوّل مدرجةً إلى السموّ والكرامة، ورشاقة النفس وغبطتها.

وفي هذا السياق عينه، أسّس الأب أنكليزيو أُسرةً جديدةً قوامها فتياتٌ متينات البنية، صبوراتٌ، راغباتٌ في تقديس نفوسهنّ بالعمل. وأوكلهنّ إلى رعاية القدّيسة "مرتا" شقيقة لعازر صديق يسوع، التي كانت، كلّما زار الربّ أخاها، تُمضي ساعاتٍ في إعداد أشهى طعامٍ للزائر الكريم. وكلّفهنّ بالمطبخ المركزيّ، كي يتيح لأخواهنّ المريميّات الانصراف، بضميرٍ مرتاحٍ، إلى التأمّل، والصلاة، والعبادة، والتعليم، والتمريض. وأعدّ لهنّ مطبخًا نموذجيًّا، مجهّزًا بأحدث أدوات الطهو، وإعداد الأطعمة، ثمّ توزيعها على المرضى، وعلى جميع ساكني *البيت الصغير* .

وقد أوكل إليهنّ، فضلاً عن ذلك، شرف تنظيف كنيسة البيت المركزيّة، التي يؤمّ أجنحتها الثلاثة، يوميًّا، آلاف الحجّاج، والزائرين والمصلّين، والسهر على أن يبقى كلّ شيءٍ في الكنيسة متألّقًا نظافةً. فكانت لهنّ هذه المهمّات شرفًا وامتيازًا، ومعين فرحٍ.

وإلى جانب كلّ ذلك أوكل إليهنّ مهمّةً رسوليّةً، تتمثّل في عيادة المرضى الفقراء في منازلهنّ، والعناية بهم، والسهر على نساءٍ وحيداتٍ عاجزاتٍ. وبات مألوفًا أن يشاهد المرء، منذ الساعة التاسعة عشرة، في شوارع تورينو، أرتال راهباتٍ متوجّهاتٍ، اثنتين اثنتين، إلى مهمّات محبّةٍ، تثلج قلوب المرضى، وتغمر نفوس الراهبات بفرح الخدمة.

على امتداد ثمانية عشر عامًا، رغبت راهبات تلك الأُسرة في زيٍّ متميّزٍ، ونظامٍ خاصٍّ. ولكن كان عليهنّ الانتظار حتّى عام ١٨٨٤. وآنذاك خصّهنّ الأب "بوسّو" (Bosso) الذي خلف الأب أنكليزيو بزيٍّ، وأطلق عليهنّ اسم "أخوات القدّيسة مرتا". وبما أنّهن كنّ ملتزماتٍ بمواعيد الاستيقاظ، والصلوات الجماعيّة، والأعمال التي تقوم بها الـــڤنسانيّات، فقد أخضعهنّ لنظام الـــڤنسانيّات عينه.

وتحقّقت نبوءةٌ من نبوءات الأب كُتُّلِنْغو، عقب مضيّ ستّ سنواتٍ على وفاته. فقد سبق له أن قال للـــڤنسانيّات، يوم استقبل الصمّاء والبكماء الأولى: "هؤلاء الفتيات المحرومات من السمع والنطق سيكون لهنّ، في *البيت الصغير* ديرٌ يُسهم في تمجيد الله". وتحقّقت هذه النبوءة على يد الأب أنكليزيو، الذي أسّس لهنّ ديرًا، عام ١٨٤٨، في يوم عيد اسم مريم المقدّس؛ تألّف هذا الدير، في البدء من اثنتي عشرة صمّاء وبكماء، كنّ قد اجتزنَ سنة ابتداءٍ وامتحانٍ، ونذرنَ نذرًا يتجدّد كلّ ستّة أشهرٍ، واعتنقنَ اسم "أخوات قلب مريم المقدّس"، وكان لهنّ ديرهنّ المسوّر الخاصّ. وكنّ خاضعاتٍ لإدارة الـــڤنسانيّات.

مهمّتهنّ المادّيّة تمثّلت في تزيين الهيكل، وصنع هذه الزينة. وفي هذا المضمار برعنَ في ابتكار تحفٍ رائعةٍ، طرّزنَها بخيوط حريرٍ وذهبٍ تكريمًا لساكن الهيكل. أمّا مهمّتهنّ الروحيّة فكانت تقديم صلواتهنّ وتضحياتهنّ، ومناولاتهنّ، يوميًّا، لقلب مريم الطاهر، عن نيّة المرسلين في العالم، ومن أجل ارتداد الخطأة إلى الله.

وكان الأب كُتُّلِنْغو، في أيّامه الأخيرة، قد قرأ على شفتي يتيمةٍ تدعى "فرنشيسكا ديجيوميني" (Francesca Degiomini)، وفي قلبها، رغبةً في تكريس

ذاهًا للخدمة الروحيّة والصلاة، فقال لها: "لن تقوَي على عيش الـڤنسانيّات، ولكن سيأتي يومٌ يقيم فيه *البيت الصغير* ديرًا لراهباتٍ حبيسات، تكريمًا لقلب يسوع، وستكونين من أوليات مؤسّساته". وبعد مضيّ عشر سنواتٍ على رحيله، أي في عام ١٨٥٢، شرع الأب أنكليزيو يحقّق نبوءة رئيسه السابق هذه، فانتقى من مختلف أُسر *البيت الصغير* أربعًا وعشرين فتاةً، وكانت أُولاهنّ، فرنشيسكا المذكورة. وبهنّ أحدث أُسرةً جديدةً سمّاها "أخوات رهبنة الأب ڤنسان دي پول الثالثة"، شكرًا لله الذي وقى *البيت الصغير* من أضرار انفجار مستودع بارودٍ على مقربةٍ من البيت، وتكفيرًا عن الجرائم التي ارتكبتها السلطات الحكوميّة، بطردها راهبات القلب الأقدس، طردًا تعسّفيًّا.

وقد لبثت أولئك الراهبات الجديدات، بضع سنواتٍ، بلا ديرٍ، ولا زيٍّ خاصٍّ، مقيماتٍ في مكانٍ دُعي "بيت الرجاء"، مشاركاتٍ التائيسيّات والجينيڤيڤات معبدهنّ القريب من بيتهنّ. وفي عام ١٨٥٦، أمسى لهنّ ديرهنّ الخاصّ، وبدأنَ حياتهنّ، بصفتهنّ حبيساتٍ مكرّساتٍ لتكريم قلب يسوع الأقدس. واخترنَ عيد القدّيسة مرغريت ماري ألاكوك، عيدًا لجمعيّتهنّ، وانتظرنَ ثلاثين سنةً، أي حتّى عام ١٨٨٦، كي ينعمنَ بزيٍّ ونظامٍ خاصَّيْن.

وقد أُوكلت إليهنّ مهمّة رتق ثياب المرضى والعاجزين، والأولاد الطيّبين، ولوازم أسرّهم، وكيّها، وإصلاحها. وكانت مهمّتهنّ الروحيّة تنظيم عبادةٍ مستمرّةٍ للقربان المقدّس، تضطلع بها، متعاقباتٍ، بلا توقّفٍ، جماعاتٌ من ثلاث راهباتٍ، كلّ مرّةٍ. وكانت عبادتهنّ تتضمّن تلاوة مسبحةٍ خاصّةٍ بهنّ، تردّد خمسين مرّةً: "يا قلب يسوع الرقيق، اجعل حبّي لك ينمو دائمًا"، ويليها مئةٌ وخمسون مرّةً هتاف "ارحمني يا الله".

ولم تغرب عن بال الأب أنكليزيو الجماعات المُتعبة واليائسة، المحتاجة إلى دعم الصلاة، فأسّس جمعيّة "أخوات الصليب"، وأناط بها مهمّات:

- إنشاد صلوات الصليب المقدّس، والقيام مقام الجوقة في الكنيسة المركزيّة. فكنّ يؤدّينَ هذه المهمّة بخشوعٍ وفرحٍ، وكان ترتيلهنّ متعةً للآذان والنفوس، والخبز اليوميّ الذي يشتهيه ويتذوّقه المصلّون.
- إعداد أغطية الأسرّة، وألبسة المرضى، وتوزيعها على المرضى. ومن المحقّق أنّ هذه المهمّة كانت تسلتزم آلاف الأيدي.
- تقديم أتعابهنّ وتضحياتهنّ، غوثًا للذين يكدّون في جرّ صلبانهم اليوميّة.

وفي عام ١٨٧٦، أسّس الأب أنكليزيو آخر دير حبيساتٍ، تكريمًا لدم الربّ الثمين. وأطلق على راهباته اسم "الأخوات العابدات للدم الثمين".

ووفّر الأب، أيضًا، للراغبات في المشاركة بأعمال الخدمة والمحبّة، واللواتي يعيقهنّ هزال صحّتهنّ، فرصة تحقيق هذه الرغبة، فأسّس عيلة "الخيّاطات الصغيرات"، وقدّم لهنّ فرصة تقديس نفوسهنّ، من خلال أصابعهنّ العشر الماهرة في صنع ثياب جديدةٍ لنــزلاء *البيت الصغير*، في ظلّ أخوات "القدّيسة كيارا"، اللواتي كنّ يسقْنَ حياة كدحٍ وخفاءٍ، دائباتٍ على تأهيل أُسَر خدمة المحتاجين. ومع أنّ عدد "الخيّاطات الصغيرات"، كان ضئيلاً، غير أنّ ثوابهنّ كان عظيمًا. وقد حماهنّ عملهنّ، في ذلك الإطار الأمين والمقدّس، من غائلات الزمن، ومن مخاطر العالم.

وفضلاً عن كلّ ذلك أقام الأب أنكليزيو، في جناح الرجال، مركزًا استقبل فيه شيوخًا وكهولاً وشبّانًا تدهورت قواهم فعجزوا عن تأمين معيشتهم بمفردهم. ولم يقتضِ منهم سوى عمل بعض ما ألِفوا عمله من قبل، في ميادين النجارة، والحدادة، والبناء، وإصلاح الأعطال الطارئة. وبذلك أراحوا المؤسّسة من اللجوء إلى ممتهني تلك الأعمال الذين يقتضون أجورًا باهظةً. وبذلك كان أولئك الضيوف يخلصون من ملل البطالة، ويسعدون بما يقدّمونه من خدماتٍ، ويتحرّرون من الشعور بكونهم عالةً على الآخرين.

وبما أنّ معابد البيت كانت صغيرةً، وضاقت بمرتاديها الذين ما انفكّت أعدادهم تتنامى، بنى الأب أنكليزيو كنيسةً مكرّسةً على اسم الناسك القدّيس أنطونيُس الكبير، وكنيسةً كبرى رائعةً، تكريمًا للقدّيس ڤنسان دي پول، تتّسع لأربعة آلاف مصلٍّ.

وأخيرًا افتتح *البيت الصغير* أبوابه لأيتامٍ صغارٍ، بدءًا بمن كانت أعمارهم تتراوح بين خمسٍ وعشر سنواتٍ، ثمّ شرع يستقبل أيتامًا تتراوح أعمارهم بين ثلاثٍ وخمس سنواتٍ. وأُطلق عليهم اسم "لويسيّين" و"لويسيّات"، وأُوكلوا إلى حماية القدّيس لويس دي غونزاغ، ولرعاية الراهبات الـڤنسانيّات.

فراخٌ زُغْبٌ (لا ريشَ لها) هوت من العشّ قبل الأوان، فتلقّفتها أيدٍ مُحبّةٌ، ووفّرت لها دفئًا، وقوتًا، وكساءً، وقلوبًا مُحِبّةً، وآباءً وأُمّهاتٍ، وإخوةً وأخواتٍ.

كان القدّيس كُتُّلِنْغو، وطيد الثقة بأنّ بيت العناية الإلهيّة سيظلّ ينمو ويتّسع لمزيدٍ من مبادرات الخدمة والمحبّة، متغلّبًا على المصاعب والعقبات. وتحقّق رجاؤه، واستمرّت العناية الإلهيّة التي واكبت نشأة *البيت الصغير* ونموّه، تواكبه بعد رحيل المؤسّس. وتجلّت هذه المواكبة، أوّلاً، بانتشال الأب أنكليزيو من حافّة القبر، بشفاعة القدّيس كُتُّلِنْغو، الذي شفاه من علّةٍ، كان الأطبّاء قد ألقوا سلاح براعتهم وعلمهم، حيالها، وأقرّوا بعجزهم عن إنقاذه منها. وسبق لنا أن روينا تفاصيل هذا الشفاء المعجز.

وتوالت هذه المواكبة الساهرة في عهود الرؤساء الذي تعاقبوا على إدارة شؤون *البيت الصغير*. فبعد زهاء أربعين سنةً من النضال، والعمل الدائب على إنماء البيت، وتنظيمه، وتزويده بأُسَرٍ جديدةٍ عاملةٍ ومتعبّدةٍ، سلّم الأب أنكليزيو الراية، عام ١٨٨١، للأب "دمينيكو بوسّو" (Domenico Bosso)، الذي كان، حينذاك، في السابعة والخمسين من عمره. ومعه استمرّت اندفاعة نموّ *البيت الصغير*، فارتفع عدد نزلائه من ثلاثة آلافٍ إلى أربعة آلافٍ.

ومن منجزات الأب "بوسّو"، بناؤه مستشفى سيّدة الأوجاع، ومستوصفًا في

مدينة "كاڤور" (Cavour)، ومستشفى آخر في مدينة "پـــينيرولو" (Pinerolo). وفي عام ١٨٨٨، أسّس مدرسةً مهنيّةً يتلقّى فيه الأيتام الذين لا يشعرون بدعوةٍ إلى الحياة المكرّسة، مهنةً تؤهّلهم لخوض غمار الحياة، وتقيهم من الحرمان والمهانة، الناجمَيْن عن الافتقار إلى علمٍ ومهنةٍ.

بعد قضائه عشر سنواتٍ على رأس *البيت الصغير* ، سلّم الأب بوسّو الشعلة إلى الأب "برتولوميو رويتّي" (B. Roetti)، الذي غدرته المنيّة سريعًا، ولم تتح له تحقيق أيّ إنجازٍ أو تجديدٍ.

وعام ١٨٩٤، تولّى الإدارة كاهنٌ شابٌّ، في الأربعين من العمر، يُدعى "جوزيف فرّيرو"، كان قد نشأ في *البيت الصغير* ، وانضمّ، في سنّ السادسة عشرة، إلى جمعيّة "التوماويّين" الصغار. وتولّى أمانة سرّ البيت مدّة خمس سنواتٍ، قبل أن تُسنَد إليه الرئاسة العامّة.

كان فارع الطول، متين البنية، داكن لون البشرة، صارم المنظر، متحفّظًـــا في كلامه، وله عينان حادّتان ثاقبتان. ولكنّه كان فرح المزاج، متيقّظ الذهن، منيـــع الذاكرة، فولاذيّ الإرادة، رجل تنظيمٍ، وإدارةٍ حازمةٍ. وقد أجرى تحديثاتٍ هامّةً، فأدخل المياه الجارية والغاز إلى أبنية البيت، وأشاد أجنحـــةً حديثـــةً، ومستشـــفًى للـــڤنسانيّات، ومطحنةً، وميتمًا لصبيان مدينة (Pinerolo)، واستحدث فروعًا في العديد من المدن الإيطاليّة، وأشاد كنيسةً جديدةً للمؤسّسة. ورحـــل إلى المـــوطن السماويّ عام ١٩١٦، عشيّة إعلان الأب كُتُّلِنْغو طوباويًّا.

واهتمّ الأب فرّيرو بمن قلّما يخطرون ببال الآخرين، أي بفاقدي نعمة العقـــل. فافتتح لهم، عام ١٩٠٠، جناحين، أحدهما للذكور الذين أسكنهم في حيّزٍ منفصلٍ من مستشفًى حديثٍ، فيما احتلّت النساء بناءً رحبًا مرفقًا بفناءٍ ظليلٍ.

وطالما ظلّ هؤلاء المساكين هادئين ساكنين، كانوا يُكلَّفون بأعمالٍ بسيطةٍ تتلاءم

وطاقاتهم المحدودة. وحين كانت تنتابهم نوبة ثورةٍ وهياجٍ كانوا يُنقلون إلى عيـــادةٍ نفسيّةٍ، تفاديًا لما قد يُحدِثونه من أضرارٍ وأخطارٍ.

ولا ريب أنّه كان لكلّ ما يستطيعون فعله، من القيمة، مثل ما لأفعالنا، وكان لصلواتهم من الأثر مثل ما لصلواتنا.

وبهذه المبادرة، أضاف الأب فرّيرو حلقةً جديدةً إلى شبكة المحبّة الكبرى الـــتي نسجها *البيت الصغير*، وزادها شمولاً.

وخلفه الأب "ريبيزو" (Ribeso)، الذي أدار المؤسّسة مدى عشرين سنةً، ونعم بإعلان قداسة الأب كُتُّلِنْغو في عهده. واندفع في تيّار سلفه التجديديّ، فحـــدّث تجهيزات أبنية البيت، وأحدث مخبزًا كهربائيًّا، ومطبخًا جديدًا، ومحطّةً حراريّـــةً، ومغسلةً ميكانيكيّةً. ولكنّه أُصيب بالتهاب عضلة القلب عام ١٩٣٦، وانتقل إلى خالقه في مطلع العام التالي ١٩٣٧.

وكان على خلفه، الأب "جيوزيـــبي تالينتي" (Giuseppe Talenti)، أن يواجه حقبةً من أقسى الحقب التي عهدها إيطاليا، وأوروبـــا عمومًـــا، حقبـــة هتلـــر وموسّيليني، وما واكبها من اضطراباتٍ سياسيّةٍ هوجاء. ومع ذلك لم يحجم الرئيس الجديد عن المضيّ قدُمًا في إكمال أبنية "الأُرســـلاويّات" واليتيمـــات، و"البنـــات الطيّبات"، والأولاد الطيّبين"، والميخائيليّات"، ومستشفى كُتُّلِنْغو.

في هذه الأثناء عمّ الدمار، وسالت سواقي الدماء، وشاع المـــوت، وانتشـــرت الحرائق وأعمال التهجير، واقتربت من منطقة تورينو. وكان على الرئيس الجديـــد مواجهة عالمٍ من المرضى المهدّدين من كلّ صوبٍ، ولا سيّما أنّ نقلهم إلى مكـــانٍ آمنٍ كان متعذّرًا. وكان أشدّ تعذّرًا بناء ملاجئ لهم، فمستوى الماء أمسى بمستوى الأرض، وكلّ ضربة معولٍ كانت كفيلةً بالكشف عـــن طبقـــة مـــاء. ومنطقـــة "ڤـــالدوكّو"، التي كانت شبه خاويةٍ، حين شرع الأب كُتُّلِنْغـــو يؤسّـــس فيهـــا *البيت الصغير*، أمست غاصّةً بالسكّان والمشاريع الصناعيّة.

وتوالت الكوارث. فليلة ٢١/٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٢، أمطرت القاذفات الحربيّة قنابلها فوق مدينة تورينو، مدمّرةً نحو أربع مئةٍ وخمسين مترًا من سقوف *البيت الصغير*، ومحدثةً في أبنيته أضرارًا هائلةً.

وشهد يوم الثامن من كانون الأوّل موجةً أُخرى من الدمار الذي قضى على نصف بناء تمريض الراهبات، دافنًا العديد من الضحايا تحت الركام، وجارحًا المئات. ومع ذلك لم تكن تُسمَع، من جوف الظلام الدامس، والويل القاتل، سوى عبارات "الحمد لله".

وكان لا بدّ من إصلاح النوافذ التي تحطّمت، والأبواب التي اقتُلعت، درءًا للبرد القارس، ومن إعادة بناء البناء المحطّم.

ومع عودة الصيف استعاد الدمار شهيّته، ففي ليلة ١٣/١٤ تمّوز ١٩٤٣، مزّقت صفّارات الإنذار صمت الليل، ودوّت تشكيلة قاذفاتٍ، جاءت مستهدفةً، ترسانة أسلحةٍ في ضواحي تورينو، ولكنّ خطأً في التصويب حوّل آلة التدمير نحو *البيت الصغير*، مدى عشرين دقيقةً، كانت كافيةً لمحو جناح العاجزين، وإحراق بيت الراعيات الصغيرات، وتدمير مقرّ الراهبات الإيليانيّات، ومستوصف الراهبات، ودير راهبات الشفاعة، وتحويل المستشفى الجديد إلى ركامٍ وحطامٍ. وبلغ عدد الضحايا ستّةً وثمانين قتيلاً. وناهز عدد الجرحى ثلاث مئةٍ.

واقتضت كوارث العدوان إخلاءً فوريًّا لأكثر من مئتين وخمسين جريحًا ومريضًا، وراهبةً نجوا من الموت، وإيواءَهم في فروع المؤسّسة في مدنٍ إيطاليّةٍ أُخرى، ونقل ما يلزمهم من أسرّةٍ، وأغطيةٍ، وألبسةٍ. وفيما كانت الجهود قائمةً على تحقيق هذا الإخلاء، والجراح ما زالت نازفةً، عادت القاذفات إلى قصف الترسانة التي كانت هدفها، فأصابت أيضًا أجزاءً رحبةً من *البيت الصغير*، وأطاحت بمطبخه، وحطّمت برج أجراس كنيسته. وسقطت قنبلةٌ وزنها ثلاثة أطنانٍ على سلّم مستشفى سيّدة الحبل بلا دنسٍ، ولكنّها لم تنفجر.

ولم يقوَ قلب الأب "تالينتي"، ابن الثمانين عامًا، على تحمّل هذا الدمار المريع. ولا سيّما أنّه كان قد أمضى حياته، منذ سنّ الثالثة عشرة، في هذا البيت، الذي لم يعرف سواه بيتًا. فقضت على حياته خثرةٌ دمويّةٌ في الوريد، يوم ١٩٤٣/١١/٢١.

لم تكن الجرأة كافيةً لدفع متطوّعٍ إلى إدارة مؤسّسةٍ جسيمةٍ محطّمةٍ. وآلت هذه المسؤوليّة إلى الأب "لودوڤيكو كييزا" (Ludovico Chiesa)، الذي تحلّى بأكثر من الجرأة، تحلّى بالبطولة، وارتضى أن تُلقى على عاتقه تلك المهمّة الباهظة، في تلك الظروف العصيبة.

كان الأب "كييزا"، على غرار سلفه، ابن تلك المؤسّسة. ففي سنّ العاشرة، أي عام ١٨٨٦، كان قد انضمّ إلى جماعة الإخوة الصغار فيها. وأُسوةً بالمؤسّس القدّيس اعتمد اعتمادًا مطلقًا على العناية الإلهيّة. فلا شيءَ سواها يمكّن من مواجهة ظروف حربٍ لم تنتهِ، وركام أنقاضٍ لم يُزَلْ بعدُ، وما زال يقيم في أجزاء البيت التي نجت من الدمار، أكثر من ألف شخصٍ ينبغي إطعامهم، وحمايتهم، ولا وجود لمالٍ أو لاحتياطيٍّ، ونظام البيت يقتضي العيش يومًا فيومًا، برعايةٍ إلهيّةٍ. بيد أنّ الأب كييزا، تمثّلاً وفيًّا بالمؤسّس القدّيس، كان مؤمنًا أنّ هذه الظروف العصيبة والمريعة هي الشرط الذي لا غنى عنه لتدخّل العناية الإلهيّة.

كان على الأب "كييزا" إعادة بناءٍ كلّيٍّ لخمسة أجنحةٍ لم يبقَ منها أثرٌ، وترميم العديد من الأجنحة المدمّرة تدميرًا جزئيًّا، وإعادة تأهيل المستوصفات، والصيدليّات، وغرف العمليّات وملحقاتها، وإرجاع الذين هُجِّروا إلى مدُنٍ أُخرى، في حين لم تصمت، بعدُ، أصوات المدافع والبنادق، وموادّ البناء صعبة المنال. ومع ذلك استهلّ الأب إعادة البناء، في غروب عام ١٩٤٤، وفق مخطّطاتٍ جديدةٍ تراعي مقتضيات النور والهواء، ومستلزمات التقنيّات الحديثة، ولكن بمنأًى عن همّ المال، فهو من اختصاص العناية الإلهيّة.

ولم يقتصر الأب "كييزا" على ذلك، بل افتتح فرعًا جديدًا في مدينة ليتيانو، وبيتًا كبيرًا في فلورنسا، وأعاد بناء فرع پـيزا، وجعله أجمل منظرًا، وأرحب حجمًا. ودشّن مركزًا طبّيًّا في روما يتّسع لأربع مئة سريرٍ.

انطفأ الأب "كييزا" يوم الخامس من حزيران ١٩٥٣، عن سبعةٍ وسبعين عامًا، وتعاقب على إدارة *البيت الصغير* آخرون كان يحدو جميعَهم روحُ كُتُّلِنْغو.

وأسفرت تلك السلسلة الطويلة من البناء وإعادة البناء عن أرقامٍ فصيحةٍ. ففي منتصف القرن العشرين كان *البيت الصغير*، في تورينو وحدها يمتدّ على مساحة سبعةٍ وثمانين ألف مترٍ مربّعٍ، منها نحو سبعةٍ وثلاثين ألف مترٍ مسقوفٍ. ولم يعُدْ هناك مجالٌ للتوسّع، لأنّ المحيط قد بُنِيَ بأكمله، وغدا يحاذيه مركز القدّيس دون بوسكو الجسيم.

وكان عدد الراهبات اللواتي غلب عليهنّ لقب "الكُتُّلِنْغويّات" قد بلغ خمسة آلافٍ، يخدمنَ في مئةٍ وعشرين مركزًا، وفي مستشفياتٍ، وملاجئ، وإكليريكيّاتٍ، ومياتم، ومختبراتٍ، ومنهنّ حاملاتُ شهاداتٍ عليا في الصيدلة والتمريض. وكانت إعانات *البيت الصغير*، خارج تورينو، تطال نحو ستّة آلاف شخصٍ.

وامتدّ تأثير القدّيس كُتُّلِنْغو حتّى فرنسا، حيث تعرّضت منطقة النورماندي لقصف القنابل الألمانيّة التي حطّمت كنائسها، وألقت جرسيّاتها الشامخة أرضًا. وكان الأب "فريبورغ" (Frèbourg)، الذي عُيِّن حديثًا راعيًا لثلاث رعايا في تلك المنطقة، يحاصره، بلا هوادةٍ، همّ ترميم الكنائس المدمّرة، وإعادة تأهيلها، وإنهاض جرسيّاتها الداعية إلى عبادة الله، وتمجيده. ولجأ إلى وسيلتَيْن كفيلتَيْن بإيصاله إلى غايته: التماس سخاء المؤمنين، وغوث العناية الإلهيّة. فكان المؤمنون أسخياء، ولكنّ قدراتهم كانت ضئيلةً جدًّا. ومن أجل استمطار النعَم السماويّة استشفع الكاهن بالقدّيس كُتُّلِنْغو، رغم وجود العديد من القدّيسين النورمانديّين، وكوْن القدّيس

كُتُّلِنْغو مُغْفَلاً في فرنسا. غير أنّ ذلك الكاهن كان قد تلقّن، في الإكليريكيّة، أنّ ذلك القدّيس الإيطاليّ هو الذي أبرز، بحياته وإنجازاته، أسنى صورةٍ للثقة بالعناية الإلهيّة، والاتّكال عليها. وبشفاعته وبغوث العناية الإلهيّة أفلح الكاهن في ترميم الكنائس وتأهيلها، ضمن مهلةٍ قياسيّةٍ. وحينئذٍ، آلى على نفسه تعميم تكريم القدّيس كُتُّلِنْغو في فرنسا، ولا سيّما أنّ شفاءاتٍ عجيبةً عديدةً قد تمّت في رعاياه بشفاعته. فقرّر جعل كبرى الكنائس المرمّمة مركزًا لتكريم القدّيس كُتُّلِنْغو في فرنسا، وطلب من كردينالٍ أن يوافيه بإحدى ذخائر ذلك القدّيس، والتمس من الحبر الأعظم ترؤّس قائمة متبرّعين لصنع تمثالٍ للقدّيس الإيطاليّ.

إثر وفاة المؤسّس، ما انفكّ *البيت الصغير* يتنامى، يومًا فيومًا. واهتماماته تتشعّب كي تُغيث كلّ ألوان المآسي البشريّة، وكي تُحِلّ الرجاء محلّ اليأس، والثقة برحمة الله محلّ النقمة عليه، وفرح الحياة محلّ البؤس والقنوط. وما زال الهمّ الطبّيّ هو الطاغي، ومعه همّ أُلوف المرضى والقائمين على العناية بهم، وإطعامهم، وإكسائهم، ونظافتهم، وعلاجهم.

وقد أضحى للرجال ستّة مشافٍ تحمل أسماء القدّيسين: يوسف، وغائيتانو (Gaëtano)، وكميليو (Camilio)، ويوحنّا، ولويس.

وخُصِّص للنساء جناح البشارة الذي يضمّ أربع قاعاتٍ كبرى تحمل أسماء القدّيسات: "أنييس، وكلوتيلد، ولوسيّا، وكرستينا.

وخُصِّص مشفى الثالوث الأقدس لجميع راهبات أُسَر *البيت الصغير*، وأُقيم مشفًى خاصٌّ لجيش الراهبات الـڤنسانيّات العاملات في تورينو وخارجها.

وكان قد أُقيم "مشفى الآلام السبعة" لمعالجة القادمين من الخارج، والذين يعالَجون ويعودون إلى منازلهم عقب شفائهم، وكان يتّسع لسبع مئة سريرٍ.

غير أنّ هذا المشفى قد أُلحق بمجمّع *البيت الصغير*، وبات يتألّف من بناء على شكل صليب يونانيٍّ متساوي العوارض، يتشعّب إلى أربعة أجنحةٍ، وأمام كلّ جناحٍ ينبسط فناءٌ شاسعٌ. وقد استقبل أحد الأجنحة عاجزين مسنّين، ومقابله جناحٌ لعاجزاتٍ مسنّاتٍ. أمّا الجناحان الآخران فاستقبلا صبيانًا كسيحين ومصابين بتشوّهاتٍ خلقيّةٍ، يقابله جناحٌ لمثيلاتهم من الفتيات.

وقد استُبدِل مستشفى المرضى الخارجيّين بمشفيَيْن حديثَيْن مجهّـزَين بأحـدث الأدوات: مستشفى أُمّ الآلام، ومستشفى كُتُلِنْغو، يتّسعان لتسع مئة سريرٍ، يعمل فيهما أطبّاء وجرّاحون من نخبة الجسم الطبّيّ في تورينو، يساعدهم جـيشٌ مـن الراهبات اللواتي نلنَ شهاداتٍ عليا في التمريض من مدرسـة تمـريضٍ ملحقـةٍ بالمشافي. وفي الفناء الممتدّ بين البناءَيْن ينهض معبدٌ مضيءٌ يجثم على هيكله تمثـال العذراء المفجوعة (لاپـيتا) (La Pietà) المرحِّبة بكلّ متألّمٍ.

وفي هذين المستشفيَيْن تجري الفحوص الطبّيّة، والتحاليل، ومختلف أصناف التصوير الطبّيّ لقاء أجورٍ رمزيّةٍ، لا تغطّي كلفتها. أمّا المعالجات الطبّيّة، فلا تسعيرة لها، إنّما وُضِع صندوقٌ يودع فيه كلّ مُستشفٍ، ما يسعه دفعه، بعيدًا عن المراقبة. والفقراء لا يدفعون شيئًا، بلا حرجٍ ولا خجلٍ.

وما زال *البيت الصغير* ومستشفياته واحة رجاء تقصدها، بلا انقطاعٍ، أفواج المتألّمين جسديًّا ونفسيًّا، فترحّب بكلّ قادمٍ إيقونةُ سيّدة العزاء، المبتسمة، المحاطة بالزهور، والمضاءة بالشموع، وأمامها مركعٌ يدعو كلّ راغبٍ في الصلاة إلى الركوع، ومن لا يستطيع الركوع، ومن لا يريد أن يصلّي، فتدعوه إلى طرد النوايا الخبيثة، والتغلّب على الميول الشرّيرة، وتذكّر أنّ الرحمة الإلهيّة تشمل الجميع.

الحركة في المجمّع لا تهدأ، ومن بهو البناء تتفرّع ممرّاتٌ عديدةٌ، وكلٌّ يمضي إلى مقصده بهدوءٍ وصمتٍ. والعبارات التي تتردّد كاللازمة: "شكرًا لله"، "المجد ليسوع المسيح"، وتردّ عليه عبارة: "إلى الأبد".

يسود المكانَ هدوءٌ وراحةٌ يُشعّان سلامَ نفسٍ مُنعشًا، ويخيَّل إلى الزائر أنّه يدخل كنيسة قريةٍ، دُوِّن على بابها "يُمنع دخول الضجيج". فهنا يطغى الإيمان والثقة على أنّات الألم والعذاب اللذين يعانيهما مئات البائسين الذين لا ينقطع تدفّقهم إلى ملجأ الرحمة. وقد لا يلحظ الزائر فرقًا بين غرف تلك المستشفيات، ودهاليزها، ومرضاها، وأطبّائها، ظاهريًّا مقارنةً بسائر المستشفيات. غير أنّ النزلاء يلمسون روحًا مختلفًا يسود بين جدرانٍ يسكنها روح الله الذي أوحى ببنائها، واستنهضها من الفراغ، ورعى وجودها مستخدمًا كاهنًا، ورفاقًا له، ومساعِداتٍ، تنبض في قلوبهم المحبّة، والإيمان، والثقة المطلقة بالعناية الإلهيّة.

وما أشسع البون بين هذا الروح وروح المستشفيات التجاريّة!

لا يحظى بنعمة الدخول إلى صرح المحبّة هذا سوى من افتقر إلى كلّ شيء: لا مالَ، ولا سندَ، ولا مُعيلَ أو داعمَ، وسوى من أُوصِدت في وجوههم أبواب كلّ المستشفيات الأُخرى، ولا سبيل خلاصٍ لهم إلاّ ملاذ المحبّة هذا، حيث ترحّب بهم وجوهٌ طافحةٌ مودّةً وعطفًا، وأيدٍ رقيقةٌ تقودهم إلى سريرٍ مريحٍ نظيفٍ، وتغمرهم بسمةُ محبّةٍ تحرّرهم من أعباء همومهم.

ولا جرم أنّ الأشدّ مدعاةً إلى الإعجاب والتقدير هو ما يشاهَد في الأجنحة المخصّصة للمختلّين عقليًّا، الذي يفصلهم جدارٌ صفيقٌ عن الآخرين، ومع ذلك يحيق بهم كهنةٌ وراهباتٌ متخطّين الخوف والنفور، والفشل المرجّح، ولا يكفّون يكرّرون المبادرات الرقيقة والعبارات المطمئنة ذاتها، حتّى يسرّبوا إلى تلك الأذهان

المعتمة، والنفوس المغلقة، أمواج ضياءٍ، وومضات نورٍ ورجاء. ولا يمكن لزائريهم الذين ترحّب بهم عبارات "المجد ليسوع المسيح"، و"الشكر لله"، تخيُّل مقدار الصبر الذي بُذل في سبيل إيصالهم إلى هذه المعجزة، وكم من تضحياتٍ استلزم تلقينهم صلاةً وجيزةً، أو بسمةً، أو إيماءة محبّةٍ! وكم من ضبطٍ للنفس اقتضى التأقلم مع مناظر التشوّه، والبشاعة الخلقيّة، وكم من سنواتٍ أُنفقت تضحياتٍ، وصبرًا، وبذلاً، ومحبّةً بطوليّةً، من أجل خدمة من يعدّهم المجتمع نفاياتٍ حيّةً، وينبذهم، وهم أبرياء من كلّ ذنب. وبمَ يمكن أن توصف راهبةٌ لازمت هؤلاء، مدى ستّين سنةً، وهي عاكفةٌ، ساعةً فساعةً، ويومًا فيومًا، على مواساة جراحٍ لن تلتئم، وعلى إسالة السلام والعزاء والنور إلى نفوسٍ مغلقةٍ؟!

ولطالما أعلنت الكنيسة اعتزازها بابنها البارّ الذي أسهم إسهامًا فريدًا في إبراز وجهها الأصيل وجه المحبّة، والرحمة، والخدمة!

فيوم شخص الأب أنكليزيو إلى روما عام ١٨٥٤، للمشاركة في إعلان عقيدة الحبل بلا دنسٍ، حيّاه البابا بيّوس التاسع بقوله: "أنت خليفة قدّيس".

وبمناسبة الاحتفال بالذكرى المئويّة الثانية لوفاة القدّيس ڤنسان دي پول، شفيع *البيت الصغير*، هتف رئيس أساقفة تورينو: "ألم تُنهض رعاية القدّيس ڤنسان، في هذه المدينة، عملاً عملاقًا، أثار الإعجاب والذهول، ليس فقط في منطقة "الـپييمون" وإيطاليا، بل في أوروپا جمعاء؟ إنّي أتكلّم عن هذه المؤسّسة الفريدة التي تستقبل المصابين بالصرع، والاستسقاء، والقروح، وواهني العقل، والصمّ والبكم والعميان، والذين تلتهمهم الحمّيات، والذين تعجز أرجلهم عن

حملهم، وحيث يجد جميع البائسين، بلا استثناء، مأوًى، وغوثًا. إنّه عملٌ جبّارٌ، لا يستطيع مدّعو الإنسانيّة، تصوّر أعظم منه...".

ويوم إعلان الأب كُتُّلِنْغو طوباويًّا، في ١٩١٦/٨/١٣، قال رئيس *البيت الصغير*، آنذاك، الأب "ريبيزو" (Ribeso) للحبر الأعظم: "بفرحٍ أقول لقداستكم إنّ الزخم الإنجيليّ الذي واكب انطلاقة *البيت الصغير*، ما انفكّ يدفع هذا البيت ويقوده، بالعزيمة عينها. وما زال هذا البيت يحيا بالمعجزات، التي قام عليها. وقد استقبل هذا البيت منذ نحو تسعين سنةً ملايين الأشخاص من كلّ الأعمار، وكلّ المجتمعات، وعالج عللهم الجسديّة والروحيّة. ومع كلّ العداوات التي شنّتها على الدين وعلى الكنيسة جهاتٌ مختلفةٌ، وبفضل تدخُّلٍ سماويٍّ، لم ترفض نفسٌ واحدةٌ التصالح مع الله، قبل انتقالها إلى الآخرة، ولم تُحرَم نفسٌ عزاء الإيمان".

وما زال يتردّد في كلّ زوايا *البيت الصغير* وفروعه دعاءٌ إلى السيّدة العذراء، يقول: "اجعلينا قدّيسين!". ولاريب أنّ أُمّ الله تستجيب لهذا الدعاء العذب، وتجعل *البيت الصغير* مشتلاً للقدّيسين. بيد أنّ أبناء القدّيس كُتُّلِنْغو، المشبعين بتواضع مؤسّسهم، حريصون على إخفاء قداستهم، مكتفين بأنّ الله يراها.

من أقواله في الفقراء

من أقواله في الفقراء

للراهبات كان يقول:

- "لو أدركتنّ جيّدًا من يمثّل الفقراء، لخدمتُنّهم راكعاتٍ. يجب أن نرى يسوع نفسه في أشخاص الفقراء. وكلّما كان الفقراء منفّرين كانت صورة يسوع أشدّ تألّقًا فيهم".

"الفقراء هم أسيادنا، وواجبنا أن نعاملهم على هذا الأساس، وإلاّ يحقّ لهم أن يطردونا. ومع أنّ جميعهم أسيادنا، غير أنّ أعظمهم هم الأكثر استدعاءً للنفور، والأشدّ جلافةً".

- "اندفعنَ إلى خدمة الصغار، ولا سيّما المرضى منهم. ولا تدعنَهم يستدعونكنّ مرّتين. تخلّين عن اهتماماتكنّ، مهما كانت مقدّسةً، وامضينَ راكضاتٍ نحو من يستغيث بكنّ".
- إنّه لرائعٌ أن يضحّي المرء بصحّته، وحتّى بحياته، في سبيل إخوته المهملين والمعتلّين".
- كلّ فقيرٍ هو هو يسوع المسيح. فلا نفرِّقنَّ، إذن، بين فقيرٍ وآخر. وحسبنا أنّنا نغيث ربّنا يسوع".
- قداسة الراهبات القنسانيّات هي المشاركة في الصلوات الجماعيّة، ثمّ الانصراف، جسدًا وروحًا، لخدمة البائسين، والتغلّب على كلّ نفورٍ".

وعن الأطفال المصابين بإعاقاتٍ، وتشوّهاتٍ خلقيّةٍ، كان يوصي معاونيه ومعاوناته:

- **"هؤلاء هم جواهر *البيت الصغير*. ونحن لا نستأهل شرف خدمتهم. فلنحافظ عليهم محافظتنا على كنزٍ ثمينٍ!"**
- **"الفقراء هم حدقتا عينَي يسوع، وهم ممثّلوه. فمن ابتغى كسب رضا الله، عليه أن يسلك وفق هذه العقيدة، ووفق توصية يسوع. وفي الواقع، نحن جميعنا، في حضرة الله، فقراء".**
- **"ألا يمكن أن يكون يسوع ذاته هو من يحضر في شخص بعض الذين أمّوا أو سيؤمّون *البيت الصغير*؟ فاعملوا وفقًا لهذه الفرضيّة، واستشفّوا المخلّص ذاته في هؤلاء البائسين، وتيقّنوا أنّكم لن تتعبوا أبدًا من جرّاء خدمتهم".**

للراهبات قال:

- **"إنّكنّ تخدمنَ يسوع في الفقراء، والمرضى، والأطفال. فعليكنّ أن تكنّ، دائمًا، فرحاتٍ، وإلاّ لبدوتنّ تتقبّلن يسوع على مضضٍ".**
- **لا تمسكنَ عنهم الطيّبات التي يشتهونها، إلاّ ما يعدّه الأطبّاء ضارًّا لصحّتهم".**

المصادر

- Mgr. CONSTANS: Vie du Vénérable Cottolengo.
Librairie Bloud & Barrel, Paris, 1897.

- Père HUGHETTO: Sous le signe de la Divine Providence, St Joseph-Benoît Cottolengo
P.L.E. Lyon, 1953.

- Benjamin LEJONE: Miracle à Turin.
Apostolat de la presse 1958.

- Anne Le Cour GRANDMAISON: Un émule du Curé d'Ars et de Don Bosco, St J. B. Cottolengo.
Ed. Publiroc, Marseille, 1936.

- Jeanne DANEMARIE: La Cité de la Bienfaisance miraculeuse, création de Joseph Cottolengo.
Grasset, Paris, 1952.

- Walter-A. DEWETTER: Au service de la Providenc, St. Joseph Cottolengo.
Ed. Marie Médiatrice, 1965.

- Marie-France ESPIOUSE: St. Joseph Cottolengo
Pierre Téqui 2002.

الفهرس

تمهيد ٧

الفَصْلُ الأَوَّل

مسيرةٌ صوبَ الكهنوت ١٥

بيت العناية الإلهيّة الصغير ١٧

المؤسّس ٢٣

الكاهن ٣٢

بانتظار إشارة السماء ٤٥

الفَصْلُ الثَّانِي

على خطى القدّيس ڤنسان دي پول ٥٣

الشرارة التي أضرمت حريقًا ٥٥

مشاريع جريئةٌ تموّلها العناية الإلهيّة ٥٩

أصدقاء ومعاونون ومتطوّعون ومتطوّعاتٌ ٦٩

"ماريّا أنّا نازي پلّيني" Maria Anna Nazi Pullini ٨١

الأخوات "الڤنسانيّات" أو "المنصوريّات" ٨٦

اقتلاعٌ وإعادة غرسٍ ١٠٠

مستشفى القنطرة الحمراء يتحوّل مؤسّسةً اجتماعيّةً ١٠٣

الفَصْلُ الثَّالِث

مغامرات المحبّة ١٠٧

ازدهار النبتة المقتلعة ١٠٩

سفينة نوحٍ تزدحم باللاجئين إليها ١١٥

شعار البيت الصغير وتنفيذه ١٢٣
بوادر محبّةٍ تتخطّى البيت ١٢٨
بيت قداسةٍ ١٣٣
جمعيّاتٌ روحيّةٌ ١٣٩

الفصل الرابع

بيت العناية الإلهيّة.. ١٥٩
ثقةٌ لا محدودةٌ بالعناية الإلهيّة ١٦١
موقف الأب كُتُّلِنْغو من المال ١٨٨
إدارة "البيت الصغير" ١٩٥
روح "البيت الصغير".. ١٩٩
ثبات "البيت الصغير" ٢٠١

الفصل الخامس

وجهٌ ونفسٌ ٢٠٣
قداسته ٢٠٥
ملامحُ وخصالٌ.. ٢٢٥
كراماتٌ.. ٢٣٥
أشفيةٌ عجيبةٌ ٢٤١
امتيازاتٌ وانخطافاتٌ ٢٤٨
مِحَنٌ، وأسقامٌ، وأحزانٌ، وهجماتٌ شيطانيّةٌ.. ٢٥٣

الفصل السادس

القدّيسون، أيضًا يموتون ٢٥٥
وداعٌ ٢٥٧
وفاة القدّيس ٢٦٤

جنازة القدّيس ٢٦٩
العناية الإلـهيّة تمجّد قدّيسها ٢٧٣
البيت الصغير بعد كُتُّلِنْغو... ٢٨٣

من أقواله في الفقراء ٣٠٣

المصادر ٣٠٦

الفهرس...٣٠٧

صدر للمؤلّف

أوّلًا. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پــيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤــانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤــانّي پــاپــّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبة القديس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

- مؤلّفات متفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباوية الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأول – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القديس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠

- سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپـّي – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة)
وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢
٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٠
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانية – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ثانيًا. دور نشر أخرى

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – ١٩٩٨ و٢٠٠٠